

من التراث السنن الإسلامي

نصيحة الملوك

تأليف
أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن جبيب
المأوردي
المتوفى ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)

تحقيق
الشيخ خضر محمد خضر
العالية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر - ليسانس
العالية مع إجازة التدريس - ماجستير



مكتبة الفلاح

نصيحة الملوك

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ



مكتبة الفلاح هاتف ٥٤٧٧٨٤ - ص.ب ٤٨٤٨ - الصفاة - الكويت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونثني عليه الخير كله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه ومن تبعه من العلماء العاملين والمؤمنين المتقين صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين .

وبعد ، فمنذ أن حققت تفسير القرآن الكريم المسمى « النكت والعيون » وأتبعته ذلك بتحقيق « الإقناع » في الفقه الشافعي وكلاهما لأقضى القضاة أبي الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي - رحمه الله - أقول منذ ذلك عقدت العزم على تحقيق كل ما أستطيع تحقيقه من كتب هذا الإمام الكبير والعالم العظيم .

وها أنا أقدم اليوم بعون الله وحسن توفيقه الكتاب الثالث وهو « نصيحة الملوك » سائلا المولى عز وجل أن يعينني على هذه المهمة وأن يلهمني السداد كي أخرج الكتاب على الوجه الأكمل .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

المآوردي

نسبه :

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المآوردي ، ولد في البصرة سنة أربع وستين وثلاثمائة للهجرة الموافقة لسنة أربع وسبعين وتسعمائة للميلاد ، في أسرة عربية عرفت ببيع ماء الورد ، ومنها عرف بالمآوردي .

وتوفي يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة للهجرة الموافقة لسنة ثمان وخمسين وألف للميلاد .

ودفن بمقبرة باب حرب في بغداد ، وصلى عليه تلميذه الخطيب البغدادي بجامع المدينة وذلك بعد وفاة القاضي أبي الطيب الطبري بأحد عشر يوماً .

وللمآوردي ترجمة في المراجع التالية^(١) :

٤٤٤/٢	لاين خلكان	(١)
٥٢/١٥	لياقت الحموي	وفيات الأعيان
٣٠٥/٣	للتاج السبكي	معجم الأدباء
٦٤/٥	لاين تغري بردي	طبقات الشافعية
٢٨٥/٣	لابن العماد	النجوم الزاهرة
٤٨٣/٣	للخوا نساري	شذرات الذهب
١٩/١ وغيرها	لحاجي خليفة	روضات الجنات
٦٨٩/١	للبيغدادي	كشف الظنون
= ٧٢/٣	لليافعي	هدية العارفين
		مرآة الجنان

عصره :

عاش الماوردي في العصر العباسي الذي يعتبر العصر الذهبي للدولة الإسلامية إذ لم يبلغ المسلمون من القوة والسلطان وال عمران ما بلغوه في هذا العصر من قبل ولا من بعد .

ومع أن الفترة التي عاش خلالها الماوردي كانت حافلة بالأحداث والتقلبات السياسية إلا أنها كانت كذلك حافلة بالعلم والمعرفة والتقدم والحضارة إذ ترجمت علوم الأولين من الفرس واليونان ، وألفت الكتب في شتى فروع العلم .

ومن معاصري الماوردي أبو العلاء المعري والرئيس ابن سينا .

ويطول بنا المقام إذا تتبعنا جوانب النهضة الإسلامية في هذا العصر ، وقد أسهبت كتب التاريخ والأدب في الحديث عنها فمن أراد الاطلاع أمكنه الرجوع إلى تلك الكتب ففيها شفاء لقلته .

رقم ٥٩٣٦	للذهبي	= ميزان الاعتدال
- المقدمة	بتحقيق مصطفى السقا	أدب الدنيا والدين
- المقدمة	بتحقيق محمي السرحان	أدب القاضي
٦٦٨/١ و ٣٧٦/١	لكارل بروكلمان	تاريخ الأدب العربي
		الملحق
١٠٢/١٢	للخطيب البغدادي	تاريخ بغداد
٣٧٨/٢	لعبد الرحيم الاسنوي	طبقات الشافعية
٨٧/٨	لابن الأثير	الكامل
٣٦٥/١	لابن الوردي	تاريخ ابن الوردي
٨٠/١٢	لابن كثير	البداية والنهاية
١٤٦/٥	لخير الدين الزركلي	الأعلام
١٨٩/٧	لعمر كحاله	معجم المؤلفين
١٩٤٤	يوليو	مجلة الثقافة الإسلامية

أخلاقه :

كان رحمه الله ذا علم غزير وخلق حميد وسيرة كريمة حليماً وقوراً أديباً ، جريئاً في الحق لا يهاب أحداً في حق من حقوق الله ولو كان الخليفة ذاته .

فيروى أن جلال الدولة بن بويه سأل الخليفة أن يزيد في ألقابه لقب « شاهنشاه » ومعناه ملك الملوك ، فاختلف الفقهاء في جواز إطلاق هذا اللقب ، فمنهم من أفتى بالجواز كالقاضي أبي الطيب الطبري ، وأفتى الماوردي بالمنع لأن ملك الملوك هو الله تعالى ، وكان الماوردي مقرباً إلى جلال الدولة ، وكان يختلف إلى دار المملكة كل يوم ، فلما أفتى بهذه الفتوى انقطع ولزم بيته من رمضان إلى عيد الأضحى ، فاستدعاه جلال الدولة فحضر إليه خائفاً فأدخله وقال له : قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منا ، وقد خالفهم فيما خالف هواي ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحابة منك واتباع الحق ، وقد بان لي موضعك من السدين ومكانك من العلم ، وقد جعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إليّ وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحب ، فشكره ودعاه ، وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف^(١) .

قال السبكي في الطبقات : وما ذكره القاضي أبو الطيب هو قياس الفقه إلا أن كلام الماوردي يدل له حديث ابن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : أخنع اسم عند الله تعالى يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك . رواه الإمام أحمد وقال سألت أبا عمرو الشيباني عن « أخنع » . فقال : أوضع . والحديث في صحيح البخاري .

وفي حديث عوف عن خلاص عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : اشتد غضب

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٦٠ . طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٣٠٥ . المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٦٥ .

الله على من قتل نفسه واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الملوك لا ملك إلا الله تعالى .

ولم تمكث دولة بني بويه بعد هذا اللقب إلا قليلاً ثم زالت كأن لم تكن ، ولم يعيش جلال الدولة بعد هذا اللقب إلا أشهراً يسيرة ثم ولى الملك العزيز منهم وبه انقرضت دولتهم . انتهى كلام السبكي .

وكان الماوردي متواضعاً ، يقول في كتابه أدب الدنيا والدين^(١) : وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبراً شمخ بأنفه وظن أنه ناله ، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيها لا يناله أحد أبداً .

ومما أذكرك به من حالي أنني صنف في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به ، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي اعرابيان فسألاني عن بيع عقدها في البداية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جواباً ، فأطرقت مفكراً وبحالي وحالهما معتبراً .

فقالا : واهما لك وانصرفا ، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه .

فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبراً ، وإلى لعل ما كنت عليه في تلك المسائل إلى وقتي ، فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العجب توفيقاً منحته ورشداً أوتيته ، وحق على من ترك

(١) كتاب أدب الدنيا والدين ص ٥٧ .

العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهي الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما .

يقول ابن كثير : وقد كان حليماً وقوراً أديباً ، لم ير أصحابه ذراعه يوماً من الدهر من شدة تحرزه وأدبه^(١) .

ويقول ابن الجوزي : وكان وقوراً متأدباً ، وكان ثقة صالحاً^(٢) .

ويقول تلميذه ابن خيرون كما نقل عنه السبكي كان رجلاً عظيم القدر^(٣) .

وروى ياقوت عن عبد الملك الهمداني تلميذ الماوردي : لم أر أوقر منه ولا سمعت عنه مضحكة قط ، ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلى أن فارق الدنيا^(٤) .

وكان رحمه الله مدارياً للناس ، فمن ذلك ما رواه عن نفسه قال : ومما أطرفك به عني أنني كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مقبل على تدريس أصحابي إذ دخل عليّ رجل مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها ، فقال لي : قد قصدتك بمسألة اخترتك لها . قلت : أسأل عافاك الله ، وظننته يسأل عن حادث نزل به . فقال : أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو ؟ فإن هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما إلا علماء الدين .

فعجبت وعجب من في مجلسي من سؤاله ، وبدر إليه القوم منهم بالإنكار والاستخفاف ، فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلت عليه وقلت : يا هذا إن المنجمين يزعمون أن نجوم الناس لا تعرف إلا بمعرفة مواليدهم ، فإن ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله .

(١) البداية والنهاية ٨٠ / ١١

(٢) المنتظم ١٩٩ / ٨ .

(٣) طبقات السبكي ٣ / ٣٠٣ .

(٤) معجم الأدباء ٥٤ / ١٥ .

فحيثئذ أقبل عليّ وقال : جزاك الله خيراً ، ثم انصرف مسروراً . فلما كان بعد أيام عاد وقال : ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولد هذين .

فانظر إلى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم^(١) .

ويروى أن الماوردي لم يظهر من تصانيفه شيئاً في حياته وإنما جمعها كلها في موضع ، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي ، وإنما لم أظهرها لأنني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر ، فإن عانيت الموت ووقعت في النزاع فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب والقها في دجلة ليلاً ، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت ، وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة .

قال ذلك الشخص : فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها ولم يقبض على يدي ، فعلمت أنها علامة القبول . فأظهرت كتبه بعده^(٢) .

منزلته العلمية :

لقد كان الماوردي ذا حظ وافر في علوم عديدة فهو فقيه سياسي قاض محدث مفسر لغوي أديب .

ولقد كان هذا شأن العلماء في ذلك العصر لا يختص الواحد منهم بعلم واحد يقصر نفسه عليه إلا أنه قد يبرز في ناحية يشتهر بها ويبرز ، وما برز فيه الماوردي الفقه والسياسة .

(١) أدب الدنيا والدين ٢٥١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٤٤ / ٢ .

كتبه :

١ و ٢ - لقد ترك لنا الماوردي كتابين في الفقه هما الحاوي والإقناع . والحاوي موسوعة ضخمة في الفقه الشافعي يقع في نحو ثلاثين جزءاً وهو ما يزال مخطوطاً .

وأما الإقناع فكتاب مختصر إلا أنه شامل ومفيد جداً وينقل ابن الجوزي عن الماوردي قوله : بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة واختصرته في أربعين ، يريد بالمبسوط كتاب الحاوي ، وبالمختصر كتاب الإقناع^(١) .

٣ - وقد مر معنا انه ألف كتاباً في البيوع إلا أن هذا الكتاب لم يصل إلينا .

٤ - أما في التفسير فقد ألف الماوردي كتاباً سماه . « النكت والعيون » لم يفسر فيه كل الآيات وإنما اقتصر على ما يحتاج إلى تفسير وقد جمع فيه أقوال السلف ، ويعتبر بحق من أمهات كتب التفسير ومع ذلك ظل هذا الكتاب مخطوطاً حتى عهد قريب^(٢) .

٥ - وله كتاب أعلام النبوة وهو يبحث في أمارات النبوة ، وقد طبع .

وفي السياسة ألف الماوردي أربعة كتب هي :

١ - الأحكام السلطانية .

٢ - قوانين الوزارة وسياسة الملك .

٣ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر .

٤ - نصيحة الملوك .

أما الأحكام السلطانية فإنه أشهر كتب الماوردي وفيه بيان لما يحتاجه الحاكم والوزير والقاضي والولاة والعمال .

وقد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة وترجم الى عدد من اللغات

(١) المنتظم لابن الجوزي ٨ / ١٩٩ .

هذا وقد قمت بتحقيق كتاب الإقناع وقامت بنشره دار العروبة بالكويت سنة ١٩٨٢ .
(٢) لقد قمت بتحقيق هذا الكتاب وقامت بطبعه ونشره وزارة الأوقاف الكويتية في أربعة مجلدات وذلك سنة ١٩٨٢ .

وأما كتاب قوانين الوزارة فقد اشتمل على آداب الوزارة وأحكامها
وواجبات الوزير وحقوقه .

وقد طبع هذا الكتاب ثم قام بتحقيقه بعدئذ الدكتور فؤاد عبد المنعم .
وأما كتاب تسهيل النظر فقد عالج أمرين هامين أحدهما - سياسة الملك
وقواعده ، والآخر أصول الأخلاق .

وقد قام بتحقيقه الأستاذ محيي هلال السرحان المدرس بقسم الدين بجامعة
بغداد ونشر الكتاب عام ١٩٨١ .

أما نصيحة الملوك فهو هذا الكتاب ، وسأحدثك عنه بعد قليل إن شاء الله .

بقي للمأوردي ثلاثة كتب هي :

١ - كتاب في النحو .

٢ - كتاب الأمثال والحكم .

٣ - كتاب أدب الدنيا والدين .

وقد نسبت إليه كتب أخرى مثل : أدب التكلم^(١) ، ومعرفة الفضائل^(٢) ،
والرتبة في طلب الحسبة^(٣) ، غير أنه لم تثبت نسبتها إليه .

وكتاب النحو هذا لم يصل إلينا ، وقد قال عنه ياقوت : رأيت في حجم
الايضاح . والايضاح كتاب في النحو لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

(١) توجد منه نسخة بمكتبة ليدن وقد ذكر الأستاذ محيي هلال السرحان في مقدمة كتاب أدب القاضي ان
الكتاب نسخة مكررة من كتاب أدب الدنيا والدين تحت اسم مغاير .

(٢) توجد منه نسخة في مكتبة الاسكريال بمديرد وقد حصلت على تصوير لهذه النسخة فأنضح لي أنها
نفس كتاب أدب الدنيا والدين .

(٣) منه نسخة بمكتبة مسجد فاتح باستانبول ، وقد رجح الأستاذ محيي هلال السرحان أن هذا الكتاب
لابن الأخوة القرشي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ . وهناك كتاب آخر اسمه الرتبة في الحسبة قال عنه أنه ليس
للمأوردي على الأرجح .

أما كتاب الأمثال والحكم فتوجد منه نسخة بمكتبة ليدن في هولندا وقد حصلت على مصور له وأقوم الآن بتحقيقه .

ويقول الماوردي في مقدمته :

وجعلت ما تضمنه من السنة ثلاثمائة حديث ، ومن الحكمة ثلاثمائة فصل ، ومن الشعر ثلاثمائة بيت ، وقسمت ذلك عشرة فصول ، أودعت كل فصل منها ثلاثين حديثاً وثلاثين فصلاً وثلاثين بيتاً ، فيكون ما يتخلل الفصول من اختلاف أجناسها أبعث على درسها واقتباسها .

والكتاب يدل على علم الماوردي وحفظه للحديث والشعر وحكم الأقدمين . وقد شرعت في تحقيقه وعما قريب سيكون في أيدي القراء إن شاء الله .

وبالنسبة لكتاب أدب الدنيا والدين فهو مشهور وقد طبع طبقات عديدة وهو كما يدل عليه عنوانه يبحث في الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المرء في دينه ودنياه وقد كان مقررّاً في المطالعة على طلاب المدارس الثانوية بمصر .

شيوخ الماوردي :

- ١ - منهم أبو القاسم عبد الواحد بن الحسين الصيمري المتوفي بعد سنة ٣٨٦ هـ .
- ٢ - وأبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد الأسفرايني المتوفي سنة ٤٠٦ هـ .
- ٣ - وعبد الله بن محمد البخاري الباقي المتوفي سنة ٣٩٨ هـ .
- ٤ - والحسن بن علي بن محمد الجلي^(١) .
- ٥ - ومحمد بن عدي بن زجر المنقري .

(١) له ترجمة في طبقات السبكي ٣٤٨/٥

٦ - ومحمد بن المعلی الأزدي

٧ - وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي المعروف بابن المارستاني المتوفى سنة ٣٨٤هـ .

تلاميذه :

١ - الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

٢ - أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .

٣ - عبد الملك بن ابراهيم ابو الفضل الهمداني الفرضي المعروف بالمقدسي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ .

٤ - محمد بن أحمد بن عبد الباقي ابو الفضائل الربيعي الموصلی المتوفى سنة ٤٩٤ هـ .

من رواية الحديث عنه :

١ - علي بن سعيد بن عبد الرحمن المعروف بأبي الحسن العبدري المتوفى سنة ٤٩٣ هـ .

٢ - أبو عبد الله مهدي بن علي الاسفرايني القاضي .

٣ - عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن وهو أبو سعيد ابن أبي القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٩٤ هـ .

٤ - عبد الرحمن بن عبد الكريم بن هوازن أبو منصور القشيري المتوفى سنة ٤٨٢ هـ .

٥ - عبد الغني بن نازل بن يحيى الألواحي المتوفى سنة ٤٨٦ هـ .

٦ - أحمد بن علي بن بدران أبو بكر الحلواني المتوفى ٥٠٧ هـ .

- ٧ - محمد بن علي بن ميمون المعروف بابن المقرئ المتوفى سنة ٥١٠ هـ .
- ٨ - محمد بن عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة المتوفى سنة ٤٩٩ هـ .
- ٩ - محمد بن أحمد بن عمر النهاوندي المتوفى سنة ٤٩٧ هـ .
- ١٠ - أحمد بن عبيد الله بن كادش العكبري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ^(١)

(١) اعتمدنا في ذكر هؤلاء على مقدمة كتاب أدب القاضي للاستاذ محيي هلال السرحان .

حياته إجمالاً :

ولد الماوردي في البصرة وبها نشأ وإليها ينسب ، وفيها تلقى العلم في الصغر ثم رحل الى بغداد حيث لقي العلماء وأخذ عنهم ، وبعد أن أتم تحصيله العلمي درّس سنوات عديدة ثم عين قاضياً في بلدان كثيرة وقد تولى رئاسة القضاء في كورة استوا من نواحي نيسابور التي تشتمل على ثلاث وتسعين قرية وقصبتها. خبوشان كما ذكر ياقوت في معجم البلدان .

وفي سنة ٤٢٩ هـ لقب بأقضى القضاة وقد استمر له هذا اللقب حتى وفاته واشتهر به في كتب المؤرخين . وقد أصبح الماوردي زعيماً لجماعة الشافعية في عصره نظراً لما امتاز به من العلم وسعة الاطلاع .

وقد اختير سفيراً بين الخليفة والبويهيين ثم بينه وبين السلاجقة ، وظل على صلة وثيقة بالخليفة حتى وفاته .

لقد عاش ستاً وثمانين سنة وترك لنا اثني عشر كتاباً تدل على علم غزير وشخصية فريدة . وقد هيا الله لهذه الكتب في السنوات الأخيرة من قام بتحقيقها واخراجها للناس فقد حقق الاستاذ محيي هلال السرحان كتابي أدب القاضي وتسهيل النظر وتعجيل الظفر كما قمت بعون الله وحسن توفيقه بتحقيق ثلاثة كتب هي « النكت والعيون » في التفسير ، والاقناع في الفقه ونصيحة الملوك وهو هذا الكتاب .

كتاب نصيحة الملوك

هذا الكتاب هو أحد الكتب السياسية لأبي الحسن الماوردي وهو مقسم الى عشرة أبواب جعل الباب الأول في أهمية النصائح والحث على قبولها .

أما الباب الثاني ففي جلاله شأن الملوك وما يجب عليهم من الأخلاق التي تناسب منازلهم .

والباب الثالث في الأسباب التي تؤدي إلى فساد الممالك .

والباب الرابع في مواظب تعالج قسوة القلوب وتداوي أمراض النفس وآفات الشهوات .

والباب الخامس في سياسة النفس ورياضتها .

والباب السادس في سياسة الخاصة من الأهل والولد والأقارب والخدم .

والباب السابع في سياسة العامة وتدبير أهل المملكة .

والباب الثامن في الاقتصاد وتدبير المال .

والباب التاسع في مواجهة الأعداء الذين يريدون النيل من الدولة ، وسياسة الحرب والسلام .

والباب العاشر في أمور اختلف فيها العلماء من ناحية التحليل والتحريم

كتولي العمل للحاكم الظالم وحكم لبس الحرير واستعمال أواني الذهب وآلات الطرب والملاهي .

والكتاب رغم أنه ألف في القرن الخامس إلا أن ما فيه يصلح للعمل به في عصرنا هذا لأنه ارتكز على قواعد أساسية لا تتغير بتغير الزمان .

ويمكن أن يلمس القارئ ذلك عند اطلاعه على الفهرس التفصيلي الذي عملناه وأود أن أزيل شكا وقع فيه الأخ الفاضل الدكتور فؤاد عبد المنعم في تحقيقه لكتاب التحفة الملوكية إذ قال ان أول من أسند « نصيحة الملوك » إلى الماوردي هو بروكلمان وتابعه آخرون من بعده .

وأقول : الحق أن علماء سبقوا بروكلمان قد ذكروا هذا الكتاب ضمن كتب الماوردي ومنهم حاجي خليفة في كشف الظنون إذ قال عنه : وللماوردي في معيد النعم .

وعندما اطلعت على مصور النسخة الخطية وجدت نصيحة الملوك قد جمع مع كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ أي قبل ان يولد بروكلمان بأكثر من خمسة قرون .

آمل ان أكون قد أزلت الشك ، وأسأله تعالى علما نافعا وقلبا متواضعا .

وَصَفُ النِّسْخَةِ الْخَطِيَّةِ

هذه النسخة من مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس وهي تحمل الرقم ٢٤٤٧
ومعها كتاب معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي (بنفس المايكرو فلم) .
تقع المخطوطة في ست وتسعين ورقة مقاس ٢٢ × ١٥ سم وفي الصفحة
خمسة وعشرون سطراً ، في السطر نحو اثنتي عشرة كلمة ، كتبت بخط النسخ .
وفي أول الكتاب فهرس بموضوعاته .

وجاء في آخر المخطوطة ما نصه :

وافق الفراغ من نسخ هذه النسخة المباركة يوم الأحد المبارك رابع شهر صفر
الخير سنة ١٠٠٧ هـ .

علقه بيده الفانية العبد الفقير الحقير المعترف بالذنب والتقصير اسماعيل بن
سليمان بن اسماعيل البيجوري .

وبعد ذلك كتب الناسخ ترجمة موجزة للمؤلف وختم الكتاب بما يفيد انه
كتب في مصر .

منهج التحقيق

- ١ (قمت بالحصول على مصور هذا الكتاب عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .
- ٢ (وقد بدأت بقراءة الكتاب بامعان ورجح عندي أنه للمؤلف .
- ٣ (ضبطت الآيات القرآنية وذكرت أرقامها في سورها من المصحف .
- ٤ (خَرَّجْتُ أكثر الأحاديث الواردة في الكتاب .
- ٥ (ضبطت أبيات الشعر ونسبت كثيراً منها إلى قائلها .
- ٦ (كانت عبارة المؤلف جلية واضحة فلم تحتج الى شرح إلا في القليل فقامت بشرح ما غمض معتمدا على كتب اللغة .
- ٧ (كتبت مقدمة مطولة ترجمت فيها للمؤلف وذكرت كتبه وأوضحت منزلته العلمية ومراجع ترجمته .
- ٨ (جعلت للكتاب فهرسا تفصيليا بعناوين فرعية وكتبتها بخط مغاير على جوانب الصفحات وهي ليست في الاصل .
- ٩ (وبالجملته فإنني لم أَلْ جهداً في سبيل إخراج الكتاب على الوجه الذي استراح له ضميري ، مراعيًا الأمانة العلمية ، قاصداً بعملِي هذا وجه الله تعالى وخدمة العلم .

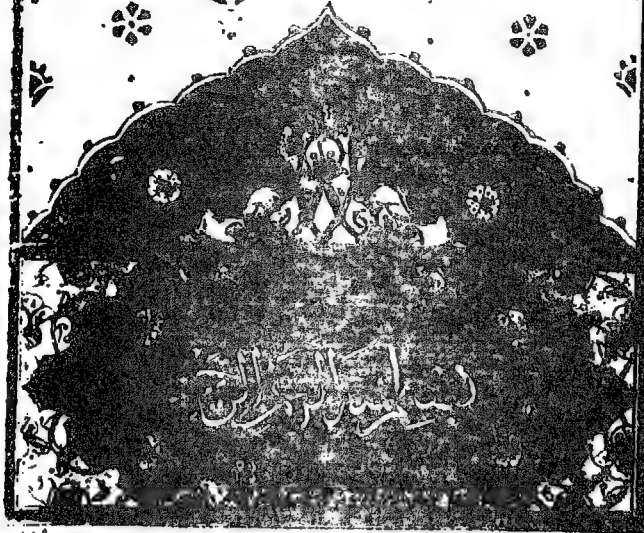
نسأل الله أن يوفقنا لخدمة الدين والعلم وأن يلهمنا سبل الرشاد وهو نعم
المولى ونعم النصير .

الكويت

في ٢٠ من ذي القعدة ١٤٠٢ هـ

٨ / ٩ / ١٩٨٢ م .

خضر محمّد خضر



بحمد الله لفتح وعلية تنوكل به مستعين على كل مقصود واية نزل
 التوفيق والسداد ونقول ان ما حملنا من اليقظة الكا
 بعده ما علمنا من حب الله جل جلاله للعبادة على طلب الاجر وركب
 في طابع الفضل من المحبة لبقاء الذكر قول الله جل وعزه واذا اخذ الله
 ميثاق الذين اتوا الكتاب ليؤمننه للتائب ولا يكتونه وقوله ان الذين
 يكتونه ما اتوا من البينات والهدى من غير ما بينا للناس في الكتاب
 اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ثم ما روي عن بعض اصحاب الله عليه
 وسلم انه قال من كان عند علم فكتبه لغير الله بلجأ من زاد يوم القيمة
 ثم روي عنه انه قال ما ابرز البصيرة قبل ان يرسل الله قال الله ولربك
 ولائمة السبلين وجميعهم وادي عن عشرين ربيما الله انه قال لا يبعث
 رسولا الله صلى الله عليه على السبع والطامة والفسخ لكل مسلم فالملوك
 اولي الناس ان يهدي اليهم النصائح واقتحام بان يحولوا بالمواعظ اذ كان
 في صلاحهم صلاح الرعية وفي فسادهم فساد البرية ولذلك ما كان
 الملوك الاولون يقولون صلاح اولي خبر من خصبت الزمان وقالوا
 من غش الامر فقد غش العامة وان ظن انه للعامة مناصح وكانوا يقولون
 لمن يصح عمله من غش غاملة وقال جليل من الحكماء يجب من حق الله تبارك
 وتعالى على المرء التوحيد والطاعة ومن حق السلطان الود والنصيحة وكان
 يقال من كثر السلطان فصيحته والاطمأن منه والاخوان شبه فقد خان

نفسه قالوا وكان كسرياً بر وزير يقول من لم يصلح للملكه مع تعلق
ضرم ونفعه به لم يصلح لنفسه ومن لم يصلح لنفسه فلا خير فيه ففي
نصيحة السلطان نصيحة الكافة وفي نصيحة الكافة هداية الى
مصلحة العالم بأسره ونظام امور الكل بحلته وعلى حسب ذلك
بأذنه المم من ثواب العاجل والاجل وبراء المحيا والممات ولهذا لما
جرت العادة في الانبياء ان يعثمهم الله الى ملوك الامم او الي جماعتهم
دور الواحد بعد الواحد من افرادها ياتواهم لاني شخص الملك وجه يعني
جميع من في ضمن مملكته وتحت سياسته ولا الارباعي اذا ما لي مذهب
سالت اليه الرعية والملك اذا زهد في سير زهدت فيها العامة
وعلى هذا جرى امر اكثر المتبسين الذين اوفوا فساد الدنيا والدين
فكتمنا كتابنا هذا نصيحة للملوك واظهار للمجتهد واشفا قالم على
انفسهم وزمانهم ورجونا ان من وقع اليه كتابنا هذا نافع فيه من
صادق النصيحة وبلغ الموعظة واعطاه من هباته عظمه بالنظر
والتدبر له والاصغاء اليه علم اننا من اعظم اوليائه له نصيحة وبلغ
خدمه واعوانه له معونة لاننا نصيحة من قبلها وعمل بها من
الملوك والساسة وصل الله ملكه الامدي بالابدي في دار القرب
ومحل البراري ملك لا ينل ولا يغير لا يفتي ولذ لا يشونها السر
وسر ولا يكدر غم وفرح لا يخالطه حزن وعين لا يحشو بعد
فقر وصحة لا يخالط فيها سقمنا ينال فيه غاية المن ولكن المستحي
تركاه كثير من الجنود والاعوان والقواد والفرسان ووقاه كثيراً
من فقرات الاعداء ومكايدها البغضاء وكثر له من الاوليا واطلق
فيه وله السنة الثنا والثناء المهر وض عليه والمرعوب فيه ثم جعل
مملكته عامرة وايامه مفضة ناضرة وقواصمه راضية ورعاياه
منفاعة ساكنة وبلاده هادئة وسبلها امنة وامواله دارة واعداءه
مقهورة مغمومة وعز في حياته نائماً وذكر بعد باقيا ثم اراح

ويحك وكيف بين يدي الطبع والصفراء البينضايدي والحواء والحامض
 عندي فقال ومثل ذلك احد من الطبع ما وظللك ان الله تبارك وتعالى
 استرعا المسلمين واموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجحوق والاخر
 وابوابا من الحديد وحجبه معهم السلاح ثم حجت نفسك منهم فيها
 وبعت عمالك في جباية الاموال ونحوها وقوتهم بالرجال والسلاح
 والكرام وامرت بان لا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان وفلان
 قد سميتهم فلم تامر ايضا المظالم ولا الملهوف ولا الجامع العاري
 ولا الضعيف الفقير ولا احد الا فله من هذا المال حق فلما انك سلا
 النفوس الذين اشتغلهم لنفسك واثرتهم على هيتك وامرت ان لا
 يجوهوا عنك بجباية الاموال ونحوها ولا تقسمها قالوا هذا قدما زلت به
 ورسوله فمالنا لا نخونه وقد سخرنا نفسه فاستروا على ان لا يسبل
 اليك من اخبار الناس شي الا ما ارادوا ولا يخرج لك عامل في مخالفتهم
 الا بقتلهم عندك ونفوسهم حتى لا يقطع عقره وتنفذ قدوم فلما انتشر
 ذلك عندك ومنهم اعظم الناس وهايونهم فكانوا اول من ساء لهم حالك
 بالهدايا والاموال ليقرهم على طاعتهم فامتلأت بلادهم بالبيع
 بغيرا وفسادا وصار هؤلاء شركا في سلطانك وانت غافل فاذا جاء
 منظرهم على بينه وبين دخول بيتك فاذا اراد رفع قصة اليك
 عند ظهورك وجدوك قد خفيت عن ذلك ووقفت للناس به لا ينظر
 في مظالمهم فاذا جاء ذلك الرجل فبلغ بظلمتك ساء للصاحب المظالم ان لا
 يرفع مظالمه اليك فان المتظلمين منهم انهم صرخوا فاجابهم خوفا منهم
 فلا يزال المظالمون مختلفا اليه ويشكوا ويلوذون ويستغيثون ويدفعون قبل
 عليه فاذا جهد واخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا
 يكون نكالا لغيره وقد كنت يا امير المؤمنين سافرا الى الصين فقدمتها
 مرة وقد اصبحت ملكها بسمعك فبك يوما بكاء شديدا فلهذا جئت
 على الصبر فقال اما اني لا ابكي البلية النازلة وليكن ابكي المظالم والبالا

يصرخ فلا اسمع صوته ثم قال ان ذهب سمعي فان بعيري لم يذهب ناوواني
الناس ان لا يلبس ثوبا احمر الا مظلم ثم كان ركبا القبل طرقي نمان ينظر
ضلري مظلوما فهذا يا امير المؤمنين يشرك بالله غلبت راقته بالمشركين
شم نفسه وانت مؤمن بالله ثم من اجل بيت نبينا صلى الله عليه لا يغلب
بالمسلمين ثم نفسك فان كنت انما تجتمع المال لولدك فقد اراك هبتي في
الطفل ينقط من بطنا مته وماله في الارض مال وما من مال الا ودفنه
يد شجبه تحويه مما نزال الله يلبط بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناب
اليه ولست بالذي يعطى بل الله يعطي من يشاء ما يشاء وان قلنا انما جمع
الاموال لتسديد السلطان فقد اراك الله عزرا في بني امية ما ابقى عنهم
ما جمعوا من الذهب والفضة واعدوا من الرجال والصلاح والكرام
حين اراك الله بهم ما اراد وان قلنا انما جمع الاموال لطلب غاية هي
اجتم من العناية التي انت فيها فوالله ما فوق ما انت فيه الامتلة لا
تدرك الا خلافا مما انت عليه يا امير المؤمنين هل تغايب من عصاك
بأشد من القتل فقال لا المنصور لا قال فكيف تصنع بالملك الذي يملك
ملك الدنيا وهو لا يغايب من عصاه بالقتل ولكن بالجلود في العذاب
الا ليم ه قد اري ما عقد عليه قلبك وعلمته جوارحك ونظر اليه بعين
واجرحت به يدك ومشت اليه رجلاك هل يغني عنك ما شئت عليه من
طلب الدنيا اذا التزعة من يدك وودعها الى الحساب علي ما حو لك بنكا
المنصور وقال يا ليتني لم اخلق وعليك كيف اخذت القيتي فقال يا امير
المؤمنين ان للناس علما يعرفون اليهم في دينك فاجعلهم بطانتك
يرشدوك وشاورهم في امرك بسند ذوك قال قد بعثت اليهم فمروا
مني قال خافوا ان تعلمهم على طريقك ولكن افزعنا بك وسهل حججك
وانصرا المظلوم واجتمع الظاهر وحدا اليه والعدقات مما حل قطان
وامتد بالحق والعقل على اهله وانا الصائم عليهم ان يا نون وسعدو
على صلاح الامة وبكا المودون فسلوا عليه فصلى وعاد الى مجلسه

وطلبنا الرجل فلم يوجد، وهذه موعظة جامعة تبين من كثير من أصول
 فساد المال والأديان وصلاحياتنا ان نقيم به كتابنا هذا الذي
 جمعنا فيه جمل ما اوجب الله على مالوك اهل الملة وامرائها واميتها
 وخطاياها وانقصهم لها في انفسهم قد اسرف فيها وتعدى حدودها
 وعدل على طريقها وقد اشبعنا لهم الموعظة وبذلك لم نصيحه وادبنا
 اليهم الامانة ديننا وديننا واخره واقلي غلبت فاطر وليتعض متعظ
 وفقهم الله وايانا للتداد وهذا ما اياهم سبل الله ساد

تم كتاب نصيحه الملوك والامهنة

وحسن الصلاة والسلام على من لا نبي بعده

واقفا الفراع من نسخ من النسخة

المباركة بنو من الاحل المبارك

رابع شهر صفر الخير

سنة ١٠٠٠

تم

علق بيد الفانية بعد الفقيه الحفيظ المعترف بالدين والتصير
 اسماعيل بن سليمان بن اسماعيل الميمري خادمو فعا الى السادة الخلو بنو الميمري

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو الامام العلامة اصفى القضاة ابو الحسن علي بن
 محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي مصنف
 كتاب الحاوي في الفقه في نحو عشرة مجلدات ليس له
 نظير في المذهب وله كتاب في الفقه سماه
 الاقناع فيه فوائد وغرائب ليست في غيره وله
 كتاب سماه اذبا الدين والدنيا وله تفسير القرآن
 العظيم سماه النكت وكان اماما في الفقه

والأهول والتفسير بصيرا بالعربية ولي قضاء
بلاد كثير ثم سكن بغداد وعاش رحمه الله
تعالى مئتا وثمانين سنة تفقه على أبي القاسم
القصيري باليمن وعلى الشيخ أبي حامد ببغداد
وحدث عن الحسن الجلي صاحب أبي خليفة الجهمي
وجماعه آخرين روى عنه أبو العزيب كادش توفي
رحمه الله سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة
النوية ومما حكى عنه أنه كان إذا أراد
الاستشهاد بدلت شعر من قصده حفظها
وحفظ القصيدة كلها رحمه الله تعالى ورضي عنه

استكتب هذا الكتاب لنفسه لينتفع به وليعتد
بها فيه العبد الفقير إلى الله تعالى راقم الحروف كاتبه علوان
ابن عبد النبي بن علوان القرماني الحنفي من كتبة الأحكام
الشرعية بالأنوار لهالكة والتذكري على يد علوان مصر المحروسة
غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين والمسلمات آمين

نصيحة الملوك

تأليف
أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن جبيب
المأوردي

المتوفى ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)

مقدمة المؤلف^١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بحمد الله نفتح ، وعليه نتوكل ، وبه نستعين على كل مقصود وإياه نسأل
التوفيق والتسديد .

ونقول إنَّ ما حَمَلْنَا على تأليف هذا الكتاب بعدما علمنا من حَثِّ الله - جل
ذكره - العقلاء من عباده على طلب الأجر ، ورَكْبِ في طبائع الفضلاء من المحبة
لبقاء الذكر ، قول الله - جل وعز - : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾^(١) . وقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا
أُنزِلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ
يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾^(٢) .

ثم ما روينا عن نبينا ﷺ أنه قال : « من كان عنده عِلْمٌ فكتمه أَلْجَمَهُ
الله بلجامٍ من نارٍ يوم القيامة »^(٣) .

ثم روينا عنه أنه قال : « إنما الدينُ النصيحةُ ، قيل لمن يا رسول الله ؟
قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وجماعتهم »^(٤) .

(١) الآية ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٣) رواه أبوداود والترمذي في العلم ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند .

(٤) رواه البخاري ومسلم في الايمان .

وروى عن جرير بن عبد الله أنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم^(١) .

فالملوك أولى الناس بأن تُهدى إليهم النصائح ، وأحقُّهم بأن يُحوَّلوا بالمواعظ إذ كان في صلاحهم صلاح الرعية ، وفي فسادهم فساد البرية . ولذلك ما كان^(٢) الملوك الأولون يقولون :

صلاح الوالي خيرٌ من خضْبِ الزمان . وقالوا : من غش الإمام فقد غشَّ العامة وإن ظنَّ أنه للعامة مُنصَح . وكانوا يقولون لم ينصَحْ عملاً مَنْ غشَّ عامِله .

وقال جليل من الحكماء : يجب من حق الله - تبارك وتعالى - على المرء التوحيد والطاعة ، ومن حق السلطان الوُدُّ والنصيحة .

وكان يقال مَنْ كتم السلطان نصيحته ، والأطباء مَرَضَه ، والإخوان بَثَّه فقد خان نفسه .

قالوا : وكان كسرى أبرويز يقول : من لم يصلح للملكه مع تعلُّق ضره ونفعه به لم يصلح لنفسه ، ومن لم يصلح لنفسه فلا خير فيه .

ففي نصيحة السلطان نصيحة الكافة ، وفي نصيحة الكافة هداية إلى مصلحة العالم بأسره ، ونظام أمور الكل بجملته ، وعلى حسب ذلك يرجو بإذنها لهم من ثواب العاجل والآجل وجزاء المحيا والممات .

ولهذا ما جرت العادة في الانبياء أن يبعثهم الله الى ملوك الأمم وإلى

(١) رواه البخاري ومسلم في الايمان ، والنسائي في البيعة .

(٢) ما : زائدة ، وكثيراً ما يأتي بها المؤلف كذلك .

جماعتهم^(١) دون الواحد بعد الواحد من أفراد رعاياهم ، لأن شخص الملك وحده يفي بجميع من في ضيمن مملكته وتحت سياسته ، ولأن الراعي إذا مال إلى مذهب مالته إليه الرعية ، والملك إذا زهد في سيرة زهدت فيها العامة ، وعلى هذا جرى أمر أكثر المتنبيين الذين راموا فساد الدنيا والدين .

فكتبنا كتابنا هذا نصيحة للملوك ، وإظهاراً لمحبتهم ، وإشفافاً لهم على أنفسهم ورعاياهم ، ورجو أن من وقع إليه كتابنا هذا بما فيه من صادق النصيحة وبلغ الموعظة ، وأعطاه من عنايته حظاً بالنظر فيه والتدبر له والإصغاء إليه ، علم أننا من أعظم أوليائه له نصيحة ، وأبلغ خدمه وأعوانه له معونة .

لأنها نصيحة من قبلها وعمل بها من الملوك والساسة وصل الله ملكه الأبدى بالأبدى في دار القرار وعمل الأبرار ، في ملك لا يبلى ، ونعيم لا يفنى ، ولذة لا يشوبها ألم ، وسرور لا يكدره غم ، وفرح لا يخالطه حزن ، وغنى لا يخشى بعده فقر ، وصحة لا يخاف معها سقم .

ينال فيه غاية [المنى] وكُنْهُ المشتهى ، ثم كفاه كثيراً من الجنود والأعوان والقواد والفُرسان ، ووقاه كثيراً من مغرّات^(٢) الأعداء ، ومكايد أهل البغضاء ، وكثر له من الأولياء ، وأطلق فيه وله ألسنة الشاء والدعاء المحرض^(٣) عليه والمرغوب فيه .

ثم جعل مملكته عامرة ، وأيامه غضة ناضرة ، وخواصه راضية ، ورعاياه متفاداة ساكنة ، وبلادها هادئة وسبلها آمنة ، وأمواله دارة ، وأعداءه مقهورة مقموعة ، وعزه في حياته نامياً ، وذكره بعده باقياً .

(١) ومن ذلك أن أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون فلم يقل اذهبوا إلى أهل مصر وإنما قال تعالى : « اذهبوا إلى فرعون إنه طغى » .

(٢) مغرّات : جمع مغرة من الغرور بمعنى الخديعة .

(٣) المحرض عليه : المدعو إليه من حرض على الشيء بمعنى حث عليه ودعا إليه .

ثم أزاح عنه فُصول الأشغال ، وطرح عنه فوادر الأثقال .

فإن أخطأه في دنياه حظَّ يتمنَّاه ، وفاته بعض ما يهواه عَوَّضه الله عنه ما هو أجلّ قدرًا وأعظم خطرًا ، وأوفى وأهنأ وأكثر وأسنى ، وعُدَّ أمين الله حقًا ، وقولًا صِدْقًا ، والله لا يخلف الميعاد .

على أنَّا لا ننفرد في كتابنا بآرائنا ، ولا نعتد في شيء نقوله على هوانا دون أن نحتج لما نقوله فيه ونذكره بقول الله - جل وعزَّ - المنزل في كتابه ، وأقاويل رسوله ﷺ - المروية في سنَّته وآثاره . ثم سير الملوك الأوَّلين والأئمة الماضين والخلفاء الراشدين ، والحكماء المتقدمين في الأمم الخالية والأيام الماضية .

إذ كان هؤلاء أوَّل بالتقليد فيما قالوا ، والاتِّباع فيما نسبوا ، والأقتداء بهم فيما مثلوا .

ورأينا أن نجمع ما قصَّدنا جمعه من ذلك في عشرة أبواب .

الباب الأول : في الحث على قبول النصائح .

الباب الثاني : في الابانة عن جلالة شأن المُلك والملوك وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من الخلال التي تشاكل منازلهم وتضاهي مراتبهم .

الباب الثالث : في الخلال التي من جهتها يعرض الفساد في الممالك والملك .

الباب الرابع : في فصول من المواعظ التي ينتفع بها ، ويعالج بها قساوة القلوب ، ويُتداوى بها من أمراض الأهواء وأسقام الشهوات .

الباب الخامس : في سياسة النفس ورياضتها .

الباب السادس : في سياسة الخاصة من الأهل والولد والقرابة والخدم والجند .

الباب السابع : في سياسة العامة وتدبير أهل المملكة .

الباب الثامن : في تدبير الأموال ، جمعها وتفريقها .

الباب التاسع : في تدبير الأعداء .

الباب العاشر : في تقديم النيات وطلب التأويلات لكثير مما يجري بيانه على

أيدي الملوك ، مما يكرهه كثير من العلماء والعقلاء .

البَابُ الْأَوَّلُ الحَثُّ عَلَى قَبُولِ النَّصَائِحِ

وإذ قد ذكرنا ما يجب على أهل العلم والعقل والديانة والفضل الذين يوجبون على أنفسهم أوامر الله وفرائضه ، وأحكامه ومواجهه من نصيحة الملوك والأئمة ، وبيننا أن ذلك مما يجمع نصيحة الكافة ، ويستصلح بها الخاصة والعامة ، وأوضحنا أن الله بعث أنبياءه ، وأمر بها أوليائه ، وحث عليه علماء بريته وحكماء خليقته فائتمروا به وانتهوا إليه ، وقدّمنا أن أحق من تهدي إليه النصائح ويخول بالمواعظ الملوك بان به أنهم أحق الناس بقبول النصيحة وسماح الموعظة ، لخلال عدة :

أولها - أن يترفّعوا به عن مشاكلة أهل الغباوة والجهالة وسوء النشوء والعادة ، الملوك الذين لا يميزون بين منافعهم ومضارهم ، ولا يفرّقون بين محامدهم ومذامهم ، وقبول النصيحة وعن مرتبة من تستحوذ عليه شهواته ويغلب عليه هواه ، حتى يرين^(١) على قلبه ويكون من الذين لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . وإن ذلك مما يجب على ذوي الهمم البعيدة والأنفس الأبية أن يترفّعوا ويسموا بهممهم عنه .

والثانية - أن يرغبوا في نتائج النصائح ، فإن النصيحة هداية إلى سبل الرشاد ، وتبلغ إلى نيل السداد ، وذلك مما تحمد عاجلته وآجلته وأولاه وآخرته .

(١) يرين على قلبه : يغلب عليه الخبث والفساد .

والثالثة - أنهم أكثر الناس أشغالاً ، وأعظمهم أثقالاً ، وأبعدهم من ممارسة أمورهم بأنفسهم ، ومشاهدة أقاصي أعمالهم بأعينهم وليس كل مستعان به يُعين ، ولا كل والٍ يستقلّ بما يلي .

والرابعة - أنهم أبعد الناس من مجالسة العلماء ، وحضور مجالس الزهاد والواعظين والفقهاء ، الذين بهم تُشحذ العقول ، وتبصر العيون ، ويذكر بالغيب ، فهم عنه محجوبون ، وعن مفاوضتهم ممنوعون مشغولون .

والخامسة - أنهم أبعد الناس من الاتعاط بالموعظة ، والانقياد للتذكرة ، والقبول للنصيحة إذا خالف [ذلك] أهواءهم ، لأنهم أو عامتهم يغذوهم العز والثروة والأمن والمقدرة والجرأة والمتعة والسرور واللذة . وهذه كلها خلال تؤدي إلى قساوة القلوب والأنفة من تعلّم العلوم وإن كان فيه نجاحهم ، والاستنكاف من الاتعاط وإن كان فيه صلاحهم .

والسادسة - أنهم أقلّ الناس حظاً من النصحاء المخلصين ، والأوداء المشفقين ، لأن أكثر من بجيوشهم من وزرائهم وأعوانهم وندمائهم لا يكلمونهم إلا بما يوافق أهواءهم ، ولا يستقبلونهم إلا بما يطابق آراءهم ، مخافة على مُهجههم وتحسينا لدمائهم ، واستدرااراً لمطامعهم ، وضناً بمراتبهم .

ولأن أكثر من يلزم سُدّهم ويحضر أبوابهم ، ويتصرف في خدمتهم طلاب الدنيا وبائعو حُطامها ، يميلون معها إذا مالت ، ويزلّون بها إذا زلت .

الهوى
عدو الشهوات ، وكيف يكون كذلك والله - جلّ وعز - يقول : ﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ النَّصِيحَةَ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾^(١) ويقول الرسول

(١) الآية ٧١ المؤمنون .

﴿١﴾ : « أخوفُ ما أخافُ على أمتي الهوى وطول الأمل »^(١) .

وكانوا يقولون : آفة الرأي الهوى . وقالوا : إنما سُمِّي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في المهالك .

وقال بعض العلماء المتقدمين : وعلى العاقل أن يعلم أن الرأي والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويق الرأي وإسعاف الهوى ، فليخالف ذلك ويلتمس ألا يزال هواه مُسوّفاً ، ورأيه مُسّعفاً .

ولهذه العلل لا تعدم الملوك من ينصحها ويستقصي لها أبواب الدخل والخروج والتفريق والجبايات والنفقات ، ومن يدها على عاجل مرافقها ، وينصح لها في مكايده أعدائها ومنايذه مخالفيها .

وقلّ من تجد من ينصحها في دينها ، ويبصرها مدامّ أمورها ومحامدها ، ويذكرها بعاقبتها ، وينهي إليها أخبار ضعاف الرعية وسوء أدب الخاصة والحاشية ، وظلم ذوي الجاه والمقدرة لذوي الخمول والضعة .

ولهذه العلة ما وضع كثير من الوزراء في أسس الملك أن الملك لا ينبغي أن يكون كاتباً ، لأن الكتابة صناعة ، ولا أن يكون حاسباً لأن الحساب مهنة . حتى قالوا لا يجب أن ينظر في العلم والفقه ويبحث عن اختلافات الناس ليعرف الخطأ من الصواب من مذاهب الملة ، فإن ذلك مما ينفر عنه العامة ويفرق عليه قلوب الرعية .

حتى قالوا لا يجب أن يكون الملك بطلاً مقاتلاً ، فإن ذلك من أعمال الأساورة ، وأن الملك إذا أُجىء إلى القتال بنفسه فقد هلك ، وأنه ما دام له جنده فليس له أن يخاطر بنفسه ، ولأنه ما دام باقياً لم يعوزه من يقاتل عنه ويبدل مهجته

(١) رواه أحمد في المسند ببعض اختلاف .

دونه ، وإذا ذهب نفسه لا يغني عنه جمعه لا ولا ينتفع بجيشه .

في أمور كثيرة من مثل هذا ، إذا فكّر فيها العاقل ، ونظر فيها المميز ، علّم أنها من وضع الغاشين من الوزراء والأعوان ، الذين لم يبالوا أن يخلو الملك من كل فضيلة ويعرى من كل منقبة ومعرفة ، حتى يكون كالأسير المكبول والدليل المقهور في أيديهم ، يفعلون بأملأكه وأملأك رعيته ما شاءوا ، ويدبرون في المملكة ما أرادوا ، ويبدعون في الملة من الأهواء المضلة والأحكام الجائرة ما رأوا .

ولو تتبعوا سير الملوك الخزّمة والسّاسة الكمّلة [الذين] كانوا على وجه الزمان ، ثم نظروا إلى من برز منهم بالفضل وحاز قصب السبق لعلموا أنهم لم يبلغوا غاياتهم ، ولم يدركوا نهاياتهم إلا بفضل العقل والتميز والحكمة والتدبير ، ثم باليقظة الدائمة والعناية الشديدة والرياضة الكثيرة ، حتى فاقوا أقرانهم ، وراقوا أكفأهم في الملّك ، ومضت أيامهم حميدة ، وبقيت آثارهم عتيقة .

وسنذكر في مواضعه من الكتاب ما يحضر من بالغ حكمهم ، ومحاسن آثارهم ، ونافع مواعظهم ، ما يكون على ما ذكرناه شاهداً ، وعلى ما سطرناه دليلاً ، بعون الله وحوله .

وقد كان من الملوك الخزّمة والخلفاء والأئمة كثير من خالف هذه السيرة ، وتنكّب هذه الطريقة ، فكان أحبّ الناس إليهم أصدّقهم عن عيوبهم ، وأقربهم منهم أنصحهم لهم ، وأجلّهم عندهم من نبّههم على عيوبهم ، وبصرهم بذنوبهم ، يتواصون باجتناء النصائح ، وقبول المواعظ ، ويشترطون في عهودهم معرفة النصيح من الغش ، والناصح من الغاش ، ومن يجب أن يقبل ، وكيف يجب فيها أن يعمل .

وقد كان من آثار ملوك العجم وما أحيى من آرائهم ، ووصفوه في كتب أدبهم أن قالوا : أخلق الناس بالتورط والندم أعصاهم للنصحاء ، وقالوا : اتخذ

من علمائك ونصحاتك مرآة لطباعك وفعالك، كما تتخذ لصورة وجهك الحديد المجلّو، فإنك إلى صلاح طباعك وأفعالك أحوج منك إلى تحسين صورتك، والعالم الناصح أصدق وأعوز من الحديد المجلّو.

وجمع ذلك النبي ﷺ في قوله : « المؤمن مرآة أخيه المؤمن »^(١).

وقد قال أردشير في عهده الجليل الخطر، العظيم القدر، الذي جعله دستور الملوك : وفي الرعية ضربٌ أتوا الملوك من أبواب النصائح لهم، والتمسوا إصلاح منازلهم بإفساد منازل الناس فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك، ومن عادى الملك وجميع الرعية فقد عادى نفسه.

وقال في فصل آخر : وفي الرعية ضربٌ آخر، تركوا الملوك من قِبل أبواب واتوهم من قِبل وزرائهم، فليعلم الملك أنه من أتاه من قِبل بابه فقد أثره بنصيحته إن كانت عنده، ومن أتاه من قِبل وزرائه فهو مؤثر للوزير على الملك، كل ذلك ضناً بالنصيحة وحثاً للناس عليها.

أبواب
الملوك
الخلفاء

وقال سابور بن أردشير في عهده لابنه : واحذر أن تكون معروفاً عند وزرائك بالسرور بالمتابعة لك على هواك، أو أن يظهر بك إثارة لمن فعل ذلك منهم، وتفضيل له على من سواه، فيلتمسوا الخطوة بموافقتك على ما فيه ضياع عملك وهلاك رعيّتك، فإن ذلك من أشدّ الأمور تخوفاً لنصائح الأعوان، وأكثرها ضرراً على الملوك.

وإنما جُلّ حاجة الملك إلى وزرائه ليبصروهم ما عسى أن يخفى عليهم، والاستمتاع بمشوراتهم وآرائهم، فإذا كان الرأي معطلاً مرفوضاً، وهوى الملك مقتدى به متبوعاً فأهون بمنفعتهم، وأقلل بغنائهم.

(١) رواه أبو داود في الأدب، والترمذي في البر.

قال : وقد كان بلغنا عمن مضى من الملوك أشدَّ التوقي لذلك ، وأبلغُ النهي عنه ، حتى لربما أظهر بعضهم لوزرائه الهوى في الأمر الذي يعرف خطأه وخوره إرادة امتحانهم وتكشيف نصائحهم ، فمن وافقه منهم اجتنى ذلك فيه وعاقبه عليه بالتهجم والجَبَّة^(١) ، ومن أبى إلا لزوم الصواب حَفِظَ ذلك له وأثابه عليه .

قال بعض الحكماء : لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء^(٢) ما رأيت من رأيه صواباً ، والأصطفاء لما رأيت من اخلاقه كريماً ، ولا تحقرن الرأي الجليل إن أتاك به الرجل الحقير ، فإن اللؤلؤة النفيسة لا يستهان بها لهوان غائصها الذي استخرجها .

وقال ارسطاطاليس : استغن بمن نصح لمن يُقدِّمك^(٣) .

وكان أمير المؤمنين عمر يقول : رحم الله امرأً أهدي إلينا مساوئنا .

وقال النبي - ﷺ - : « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا »^(٤) .

ولجلال شأن النصيحة ما كانت حكماء العرب تقول : أخوك مَنْ نَصَحَكَ . وقالوا انصح أخاك ، فإن قبل وإلا فغشته ، قيل وكيف أغشته ؟ قال : اسكت عن نصيحته . فجعلوا السكوت عن النصح عقوبة للمنصوح على تركه قبوله .

وكذلك ما قال الشاعر : -

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي والنصح أرخص ما يباع ويوهبُ
فهذا هذا .

(١) الجَبَّةُ : هو الاستقبال بالمكروه وبكلام فيه غلظة ، فَعَلَهُ جَبَّةً .

(٢) اجتناء : اختيار وتفضيل .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة في الأصل ، ولعل الصواب ، استعن بمن نصح ليقدِّمك ، أي أنه ينصحك من أجل أن يُقدِّمك .

(٤) رواه مسلم في الإيمان ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه في البيوع .

ثم إن كل ما نزل الله في كتابه ، وأجرى على لسان رسوله ، وأمر بأخذه
وإتباعه ، ثم ما تواصى به الحكماء ، [سلفهم^(١)] لخلفهم . وأولهم لآخرهم من
حكمة بالغة أو كلمة نافعة ، أو موعظة شافية ، أو هداية مرشدة ، فإنما هو
نصيحة ، ولذلك ما كانت الرسل عليهم السلام تقول لأقوامهم وتكرر عليهم :
نصحتُ لكم ، وانصح لكم ، وأنا لكم ناصح أمين ، ولا ينفعكم نصحي إن
أردتُ أن أنصح لكم .

وكان أهل الدين والعقل والعلم والفضل يقبلونها بالشكر بقلوبهم ،
ويجرونها على ألسنتهم ، ويخلّدون رسومها في دواوينهم وكتبهم ، ويمدحون قائل
النصيحة على مرّ الأيام .

وقد كان كثير من الخلفاء إذا أحسّوا من أنفسهم بعُجب أو فظاظة أو تيه أو
قساوة ، سألوا العلماء أن ينصحوهم ويعظوهم . فقد بلغنا عن أبي جعفر المنصور
أنه قال لسفيان الثوري عِظْني وأَوْجِزْ ، فقال : يا أمير المؤمنين أرايتَ إن احتبس
عليك بولك فلم يفتح دون أن تفتديه بجميع مُلكك ؟ قال : كنتُ أفتديه بجميع
مُلْكي . قال : فما تصنع بمُلْك هذا قدره ؟ ! .

ولقد دخل عمرو بن عبيد علي بن أبي جعفر ، فقال له عِظْني ، فوعظه وعاظ
بكلام طويل افتتحه بأن قال : إن هذا الأمر لو كان يدوم لمن كان قبلك لم يصلُ شجمان
إليك ، وإن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتري نفسك منه ببعضها ، واعلم أنه
واقفك وسائلك عن مثاقيل الذرّ من الخير والشر ، وأن أمة محمد خصاؤك يوم
القيامة ، وأن الله لا يرضى منك إلّا بما ترضى لنفسك ، وأنك لن ترضى لنفسك إلّا
بأن يُعدّل عليك ، وأنه لا يرضى منك إلّا بالعدل على الرعية . إن من وراء بابك
نيراناً تأجج من الجور . في كلام له طويل ، وعتاب بينهما كثير .

(١) في الأصل : شفاهم لخلفهم ، وهو تحريف .

وقال هارون الرشيد لأبن السماك : عِظْني ، فقال : اعلمْ أنك (لست)
أول خليفة يموت . فقال : زدْني ، فقال : لو لم يمتْ مَنْ كان قبْلَكَ لم يصلْ إليك
ما أنت فيه . فقال : زدْني ، فأنشأ يقول :

أَتَطْمَعُ أَنْ تُخْلَدَ لَا أَبَالِكَ أُمِنْتُ يَدَ الْمَنِيَّةِ أَنْ تَنَالَكَ
أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ هَا^(١) رَسُولًا بِهِ لَوْ قَدْ أَتَاكَ لَمَّا أَقَالَكَ
كَأَنِّي بِالتَّرَابِ عَلَيْكَ يُجَنِّئُ وَبِالْبَاكِينَ يَقْتَسِمُونَ مَالَكَ
أَلَا فَاخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا سَلِيمًا وَرَجْ مِنَ الْمَعَاشِ بِمَا رَجَالَكَ
فَلَسْتُ مَخْلُفًا فِي النَّاسِ شَيْئًا وَلَسْتُ مُزَوِّدًا إِلَّا فِعَالِكَ

وكذلك كان الملوك الأولون ، فكان الاسكندر كثيراً ما يسأل الحكماء أن
يزودوه في سفره ما يستعين به على مُلكه ، ودائماً ما يكتب إلى أرسطاطاليس
أستاذه ، فيكتب إليه بالمواعظ ، ويهدي إليه النصائح . وسنذكر في مواضعها من
كتابنا من مواعظه له ونصائحه إياه .

فكان مما كتب مما يقربه إلى خالقه وينفعه في معاده : يا اسكندر ، لا تملْ إلى
ما يبید ويكون بقاؤه قليلاً ، أطلبْ الغنى الذي لا يفنى والحياة التي لا تتغير والملك
الذي لا يزول والبقاء الذي لا يضمحل .

وقال : عجبت ممن استقر قلبه في الدنيا وهي دائمة التصرّم لا يعتبر بالملوك
الذين شرفوا وفازوا وتأكّد فخرهم ، وكم عساك تعيش يا اسكندر . وقال اجعل
العقاب بين ناظريك ، وفكّر فيما وهب الله لك من النعم ، لا فيما يزول ولا غنى
[فيه] بعد أن لا يلبث . اقنعْ تستغن . لا تظلم على الدنيا فإنك قليل البقاء فيها .

بما لو تتبعناه من أخبار الملوك والأئمة في هذا الباب ، لطال به الكتاب ،

(١) لها : أي للمنية . والمراد برسول المنية ملك الموت .

وإنما أوردنا بعضاً مما أوردناه .

إنه لما كان غرضنا في كتابنا هذا إمحاض النصيحة والصدق في الموعظة لم نأمن أن يكون فيه بعض ما يخالف رأي المائلين إلى الشهوات ، والمستهترين باللذات من ذوي الممالك والولايات ، فتمجّه أسماهم وتنبو عنه قلوبهم وليس يجوز لمن رغب في النصيحة أن يعرضها على هواه ، بل يجب أن يعرضها وهواه جميعاً على الحق وما يوجب العقل ، فما قبله قبله ، وما ردّاه ردّه ، فربما يكون الثقل على الطبع ، المكروه في القلب أحمد عاقبةً ، وأروح آخرةً ، وأوفر أجراً ، وأحسن ذكراً .

يقول الله جلّ ذكره - : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ^(١) ﴾ . ويقول : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ^(٢) ﴾ .

(١) آية ١٩ النساء .

(٢) آية ٢١٦ البقرة .

البَابُ الثَّانِي

فِي فَضَائِلِ الْمُلُوكِ فِي عُلُومِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ أَنْفُسِهِمْ
مِنْ اهْتِدَادِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الرِّذَائِلِ

أما تفضيل الله - عز وجل - الإنسان على سائر الحيوان ، وتفضيل الحيوان ، ولقد كرّمنا
على النواحي والجماد ، وتسخير الله - جل ذكره - للإنسان جميع ما في العالم من بني آدم
سماؤه وأرضه وما بينهما من عظام خليقته وأجناس بريته فشيء لا ينبغي أن يعرض فيه
بين أهل العقول شك ولا تنازع ولا مزية ولا تدافع ، لمشاهدة الجميع إياه ،
ومعينة الجمهور له ، واتفاق العقلاء عليه . يقول الله - جل ذكره - ﴿ وَسَخَّرْ
لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾^(١) . وقوله :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تَحْصُوهَا ﴾^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾^(٣) .

(١) آية ١٣ الجاثية .

(٢) آية ٣٣ إبراهيم .

(٣) آية ٧٠ الإسراء .

ثم فضل الله - جل ذكره - الملوك على طبقات البشر ، تفضيل البشر على سائر أنواع الخلق وأجناسه ، لجهات كثيرة ، ودلائل موجودة ، وشواهد في العقل والسمع جميعاً حاضرة معلومة .

مقام الملوك منها أن الله - جل وعز - أكرمهم بالصفة التي وصف بها نفسه ، فسمّاهم ملوكاً ، وسمّى نفسه ملكاً ، فقال : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ ^(٢) . وقال فيما وصف به ملوك البشر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً ﴾ ^(٤) وقال في أثناء المعنى الذي به يستحق الإنسان أن يسمى ملكاً إياهم ^(٥) ، واصطفائه لنفسه وامتداحه به : ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ^(٦) . وقال : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ ^(٧) وقال : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ^(٨) . وقال : ﴿ وَأَتَيْنَاهُم مَّلِكاً عَظِيماً ﴾ ^(٩) .

وامتدح به إلى خلقه ثم منّ عليهم به ، وأبان فضلهم فيه فقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُلْخِيّاً ﴾ ^(١٠) .

فليس أحد في حكم هذا اللفظ أولى بالفضل ، ولا أجزل قسماً ولا أرفع

(١) آية ٣ الفاتحة وهي على قراءة من قرأ - « ملك » بكسر اللام دون ألف .

(٢) آية ١١٦ المؤمنون .

(٣) آية ٢٤٧ البقرة .

(٤) آية ٢٠ المائدة .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة من الأصل .

(٦) آية ١٦ غافر .

(٧) آية ٢٦ آل عمران .

(٨) آية ٢٥١ البقرة .

(٩) آية ٥٤ النساء .

(١٠) آية ٣٢ الزخرف .

درجة من الملوك ، إذ كان البشر مسخرين لهم وممتننين لخدمتهم ، ومتصرفين في أمرهم ونهيهم .

ومنها أن الله جعل الملوك خلفاءه في بلاده ، وأمناءه على عباده ، ومُنفذي أحكامه في خليقته ، وحدوده في بريته .

وكذلك ما قيل : السلطان ظلُّ الله في الأرض ، لأنَّ من حقه أن يحتذى مثاله فيها ، ويحيي رسومه في سكَّانها .

هذا مع أنه جعلهم عُمار بلاده ، وسماهم رُعاة عباده ، تشبيها لهم بالرعاة الذين يرعون السوائم والبهائم ، وتمثيلاً لرعاياهم بالإضافة إليهم بها .

ولهذا المعنى سماهم الحكماء ساسةً ، إذ كان محلهم من سؤسيهم محل السائس مما يسوسه من البهائم والدواب الناقصة الحال من القيام بأُمور أنفُسها ، والعلم بمصالحها ومفاسدها . وسَمَّوا أفعالهم الخاصَّة بهم سياسة ، ولذلك ما كانت الأمم الماضية في الأيام الخالية ، والعرب خاصة ، تسمِّيهم أرباب الأرض ، والأرباب ، مطلقاً ومقيداً ، لأنهم كانوا يتوقعون منهم ويرجون من قِبلهم أن يقوموا لهم وفيهم من تنفيذ أحكام الله ، وإمضاء حدوده ، وإقامة فرائضة وسُنَّته ، وفي النظر في مصالحهم وحوائجهم ومضارهم ومنافعهم ، في الشاهد مقام الرب الذي لا سبيل إلى إدراكه ومشاهدته - تبارك وتعالى - وبهذا الاسم ما خاطب النابغة النعمان بن المنذر حيث يقول :

ستبلغ عُذراً أو نجاحاً من امرئ إلى ربه رب البرية راع
وقال عدي بن زيد :

وتفكَّر ربَّ الخوزنق إذ أشدَّ رف يوماً وللهُدى تفكيرُ

ولجلالة حال الملوك ما سَمَّى أهلُ اللغة الملكَ رأساً ، إذ جعلوا محله من رعيته محل الرأس من البدن ، وكل الأعضاء مُسَخَّرَةٌ له ومُهَيَّاة لحمله ، ولأنه لا بقاء

للجسد إلا به ، ولا قوام له إلا معه ، ولأنه العضو الذي فيه تجتمع الحواس ، والذي لا بقاء للحيوان إلا به ، ولا فرق بينه وبين الموات والجماد إلا من جهتها ، وهو معدن العقل والتميز الذي فضل الله الانسان به على جميع الحيوان . وقال فيه الشاعر وهو يمدح حميد بن عبد الحميد :

والناس جسمٌ وإمام الهدى رأس وأنت العين في الراس
وقال آخر :

لو صلح الراس واستقام إذن قام على العدل كل أساس
وقال بعض الفضلاء من ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : واعلم يا بني أن وصيتي هذه إياك ، وعهدي هذا إليك بمثل رجل حي قائم ، فرأسه أنت أيها الوالي ، وقلبه وزيرك ، ويده أعوانك ، ورجلاه رعيتك ، والروح الذي تقوم به عدالتك . فصن هذا الرجل صيانتك نفسك ، واستصلح أوصاله كاستصلاحك أعضاء جسديك .

ولجلالة شأن الملك ما سُمِّي في الدين واللغة سلطاناً ، والسلطان في اللغة هو الحجة ، قال الله عز وجل : ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ لَاُعَذِّبُهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَاذْبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾^(٢) .

فجعل الله العادلين من الملوك حُجَّةً على خلقه ، وكذلك ما صرفت الإمامية^(٣) ما روى عن النبي ﷺ أن الأرض لا تخلو من حجة إلى الإمام المعصوم الذي يدعونه ويلهجون بذكره .

(١) آية ١٥٦ - ١٥٧ الصافات .

(٢) آية ٢١ النمل .

(٣) الإمامية : طائفة من الشيعة يقولون بانني عشر إماماً آخرهم قائمهم .

ولجلالة حال الملوك ما سمي المسلمون السلطان الأجل في الإسلام إماما ،
لأنه ممن يجب ان يؤتم به ويُقتدى به في فعله ، ويؤتمرله بأمره . فهذه المعاني الجليلة
أئمة الملوك
هداية مما تدل عليه الأسماء الشريفة التي خُصت بها الملوك ، وإن كنا اخترنا أن نعبر في
كتابنا هذا عن هذه الأسماء كلها بالملك ، إذ هو الاسم الأشهر الأعم ، والأجزل
الأحفص .

ومِن جلالته شأن الملوك وفضائلهم على الرعايا وطبقات الناس أن كل من
تحت يدي الملك من رعاياه - وإن كانوا مُنَاوِعيه في الصورة ومشابهيه في الخلقة ،
ولم يتكلف هو اقتناءهم ولا شراءهم - فإن محلهم منه في كثير من الجهات محل
المملوكين . ولذلك ما قال الله - جلّ وعز - في قصة سبأ : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) . لأن « مَلِكٌ يَمْلِكُ »
في أصل اللغة من المَلِك لا من المُلْك ، ولأنهم بأجمعهم ينقسمون قسمين ، بين من
محلّه منه محل المادة ، وبين من محلّه منه محل الآلة فهو يستعملها في مادته على ما
يريد ويهواه ، ويحبه ويراه ، ثم يخرج له صورة عمله على مقدار حذقه بالصناعة ،
وإصابته في الغرض والنية .

هذا مع ما أخذ الله على كافة البشر من حُسْن الطاعة للإمام العادل والملك
طاعة الامام
الفاضل ، وصدق المؤازرة والتعظيم له وترك الخلاف عليه ما أطاع الله ولزم فرائضه
وحُدوده ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

وقال النبي ﷺ : « أَطِيعُوا الْإِمَامَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مَا أَطَاعَ اللَّهُ فِيكُمْ » (٣) .
وقال : من سعى إلى سلطانٍ لِيَذْلَهُ أَذْلَهُ اللَّهُ » .

(١) آية ٢٣ النمل .

(٢) آية ٥٩ النساء .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٩٣ / ٢ .

فهذا قليل من كثير مما أبان الله به من فضائل الملوك وعلو منازلهم ، وارتفاع مراتبهم ، وجلالة اقدارهم ، وبُعْد أخطارهم ، وجليل نعم الله عليهم ، وفنون أياديه لهم .

فالواجب في جميع أبواب القضايا ألا يكون أحد أشكر لله وأحسن قياماً بأداء فرائضه وأوامره ، ورعاية لما استرعى ، وحفظاً لما استحفظ ، منهم . إذ كان هذا واجب الشكر هو المعهود من أفعالهم بمن ملكهم الله أمورهم من عبيدهم وخدمتهم .

ولأنهم إذ ذكروا نعم الله - عز وجل - على أضعف خلقه ، وإحسانه على أقل عبيده حظاً من نعمه ، لم يجدوا لإحسان الخلق بعضهم إلى بعض في جنبه خطراً ، ولا بالاضافة إليه قدراً ، مع أنهم إذا أعطوهم أعطوهم مال غيرهم وديعة عندهم ، أو أشركوهم في سلطان من سواهم عارية في أيديهم ، بل أعطوهم سريع الزوال قريب الاضمحلال ، والذي ربما ضرهم ولم ينفعهم ، وربما يكون هلاكهم دنياً ودينياً ، وآخرة وأولى .

ثم لم يرضوا مع ذلك منهم إلا أن يكون كل ما كانت نعمهم عليه أكثر ، وأيادهم لديه أظهر ، لهم أشكر ، وإلى طاعتهم أسرع ، ثم يكون أعظم عندهم بلاء ، وأحسن بحقوقهم قياماً ، وعلى أوامرهم ونواهيهم محافظة . ورأوا مع ذلك ان من قصر في شيء منه أو غير أو بذلك ، أو كفر نعمة أو غمط صنعة كان قد استحق منهم المقت والحرمان والعقوبة والخذلان ، لا سيما من أصر على ذلك إصراراً ، وأتى المعصية جهاراً .

وهذا ميزان يجب على العاقل أن يزن كثيراً مما يقع بينه وبين خالقه به ، ومثال ينبغي له ان يحتذى عليه .

وإذا كان هذا في الشاهد على ما ذكرنا ، ومعاملتهم من تحت أيديهم على ما بيّننا ، وجب عليهم إذا ذكروا نعم الله عليهم وآلاءه لديهم في تفخيم شأنهم واعزاز

سلطانهم ، وتفويضه إليهم سياسة عبادته ، وعمارة بلاده ، وندبه إياهم الى ملك الأبد ، والنعيم السرمدي ، مع عامة نعيمه التي لا تحصى عدداً ، وخاصتها التي لا توصف عظمتها . أن يخافوا عاقبة الكفران وجزاء العصيان .

هذا ومن الواجب على مَنْ يرغب في الزيادة ويطمع في الإهمال والمدة ، ويتمنى حُسن التوفيق والمعونة في العاجل ، وحُسن المثوبة في الآجل ، أن يدأب ويجتهد في الشكر والطاعة ، ويجتنب الكفور والمعصية ، فإن جزاء الشكور الأحسان والمزيد ، وجزاء الكفور العقاب والتنكير والخذلان والتعير .

هذا الذي يلزم العارفين بالله ، ويجب على المقرين به والذاكرين لآلائه ، والمعترفين بحق كتابه وآياته ، فإن الله - عز وجل - يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾^(١) . ويقول : ﴿ إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم ﴾^(٢) . ويقول : ﴿ وبدلناهم بجنّتهم جنّتين ذواتي أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليل . ذلك جزّيناهم بما كفروا وهل نُجازي إلا الكفور ﴾^(٣) .

ثم ما يجب على المليك من غير هذا الطريق أن يكون أشدّ الناس ترفعا عن الدناءة ، وتنزها عن الخساسة وتعاليا عما يشين العرض ويفسد المروءة ، ويؤذن بخراب المملكة ويبقى قبح الأحداث ويخل بجلالة المكانة ورفع المنزلة . وأن يختار من السنن أشرفها وأعلاها ، ويرتاض من الأفعال بأرفعها وأسنها .

ثم يرتكب كثيراً من المؤلم المكروه ، ويجتنب كثيراً من الملذ المحبوب لينال السيرة التي تشاكل ربّته ، وتضاهي منزلته .

(١) آية ٧ ابراهيم .

(٢) آية ١١ الرعد .

(٣) آية ١٦ و ١٧ من سورة سبأ .

وقد قال أردشير : اعلّموا أن دولتكم تُؤتَى من مكانين - أحدهما غلبة بعض الأمم المخالفة لكم ، والآخر فساد أدبكم .

ثم من الواجب على الملك الفاضل والسائس العادل ألا يكون على أحد من رعيّته ولا آمن في ضمن مملكته وجملته حاشيته ، في تحسين أدبه وقمع شهواته المفسدة الضارة ، أقدر منه على نفسه . فإن عجز عن سياسة نفسه وتقويم أخلاقها ، كان خليقاً أن يكون عن تقويم غيره أعجز . ولا يكون الإنسان قادراً على نفسه ما لم يقدر على تغليب العقل على الطبع ، والرأي على الهوى ، بل يُحكم العقل على الطبع ليختار ما يدل عليه العقل على ما يميل إليه الطبع ، ويؤثر ما يشير إليه الرأي على ما يصبو إليه الهوى ، ثم يقابل بمحاسنه مساوئه ، وبمحامده مذامه ، حتى يعود نفسه الأمور الفاضلة ، ويروضها الرياضة المحمودة ، ويكتسب الخلال التي تشاكل حاله ، والأفعال التي تشاكيه مرتبته ^(١) .

رياضة النفس من تقديم الأجر وتخليد الذكر . فإن من المتقرر في العقول ، والتمكن من النفوس ألا ينال المعالي إلا بتجرع المكاره ، ولا يدرك أطراف الفضائل إلا بتحمل المشاق . قال الله - جلّ وعز - : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ^(٣) . وقال الرسول ﷺ : « حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » ^(٤) .

وقال عمرو بن عبّيد : لقد رُضْتُ نفسي رياضة لو أردتها على ترك الماء لتركته .

(١) تشاكيه : تشابه وتناسب

(٢) آية ٩٢ آل عمران .

(٣) آية ١١١ التوبة

(٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي واحمد في مسنده .

وقد كان غلب علي المأمون أمير المؤمنين شهوة الطين فكان يأكل منه الكثير ،
 واجتمع الأطباء يعالجونه بكل علاج ، ويحتالون له بكل حيلة ، فلم يصبر عنه ،
 فدخل عليه ثمامة بن الأشرس وراهم عنده يتشاورون في أمره ويتآمرون في
 علاجه ، فقال : يا أمير المؤمنين فأين عزمة من عزمات الخلافة ؟ فقال المأمون :
 قوموا فقد كفيتم العلاج ، ولم يعد إلى ذلك .

ولا شيء أغلب على قول ناقصي العقول والحزم من إفراط الحب عيشقاً ، وقد
 قال فيه أحد من جرّبه وأكثر القول فيه والوصف له :

الحب ظهر أنت راكبه فإذا صرّفت عينائه انصرفا

وقال آخر :

قد عذب الحب هذا القلب ما صلحا فلا تعدن ذنبا أن يقال صحا
بقية في تقوي الله باقية ولم أكن كحريص لم يدع مرحا

وقال آخر :

لعمري لقد أوفيت همّي من الهوى على الشيب إلا أن مركبه صعب
فقاربت حتى قيل لي هكذا الهوى وباعدت حتى قيل ما هكذا الصب
واني لسلم للهوى غير أنني لنفسي فيما لا يحل لها حرب

وقال آخر في المعنى الأول :

فإن عليّ الأمور مشوبة بمستودعات في بطون الأساود

وقال آخر :

لن يبلغ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا- وإن عزوا- لأقوام
ويُشتموا فترى الأكوان مُشرقة لا عفوذل ولكن عفواحلام

وقال أحد الملوك : طلابُ العُلا يركوب الغر .

وقال أبو تمام في المعتصم يذكر مساعيه في غزو الروم ، وتحمله ما تحمله من
المشاق في فتح عمورية :

خليفة الله كافا الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال إلا على جسر من التعب

فبان بهذه الأخبار الماثورة ، والآيات المسطورة ، والآيات السائرة
المشهورة ، أن الفضائل لا تدرك إلا بمجاهدة الطبع والحمل على البدن والنفس في
قمع الشهوات الموبقة ، والأهواء المخلقة للأعراض والأديان .

وإن أكثر ما يشق على الانسان تركه وفراقه من الأفعال المذمومة لحاجات
وشهوات منشؤها سوء العادات ، ومستولد من إمراج^(١) النفس وإهمال الطبع .

وإن من أراد الانتقال من مذمومها إلى محمودها ، ومن مُستقبحها إلى
مُستحسنها كان منه ممكناً وعليه قادراً . ومن تعود الخير سهل عليه إتيائه ، ومن
تعود الشر صعب عليه الانتزاع منه ، وما أحسن ما مدح به العطوي آل برمك حيث
يقول فيهم :

إن البرامكة الكرام تعودوا فعل الجميل فعودوه الناسا

(١) إمراج : مصدر إمرج ، أمرج الدابة تركها ترعى .

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا
وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى
لم يوهنوا لبنائهم أساسا
جعلوا لها طول البقاء لباسا
وقال آخر :

تعودت مسّ الضر حتى ألفت
ووسّع صدري للأذى كثرة الأذى
وأسلمني مرّ الليالي الى الصبر
وقد كنت أحيانا يضيق به صدري
وكانت العرب تقول : الخير عادة ، والشر لاجاة . وتقول : العادة أملك
بالأدب .

وقال كثير من الحكماء : العادة طبيعة خامسة .

وإذا كان هذا على ما بيننا فلا أحد أحق باختيار المحامد وتعوّدها من الملك ،
لأنه لا يكون مؤدياً حق جلالته ، وعارفاً بفضل منزلته ، حتى يترك كثيراً من
شهوات النفس ولذات البدن في جنب الفضائل التي يجب عليه حيازتها ، فيختار
الشكر على الكفر ، والتدين على التهلك ، والعلم على الجهل ، والعقل على
الحمق ، والشجاعة على الجبن ، والجود على البخل ، والصبر على الجزع ،
والحمد على الذم ، والحلم على الطيش ، والرزانة على الخفة ، والصدق على
الكذب ، والتواضع على التكبر ، والعدل على الجور ، والصواب على الخطأ ،
والحزم على التهور ، وأمثالها .

فإن لكل شيء من المذامّ ثمرة مذمومة ، ولكل شيء من المحامد عاقبة
محمودة ، فيجب على من أحب الخير ألا يفعل إلا الخير ، ومن كره الشر أن يتجنب
الشر . مع أن من ارتكب المخازي من الأمراء ، والمذام من الملوك كان في ملكه
كالزوّق المقتعل ، وكالمستعار المموّه ، وحق الملك الفاضل أن يترفع عن هذه

الدَّيَّةُ ، ويتنكب^(١) هذه الرذيلة ، ولا يرضى أن يكون حظه من جلالته أن يسمّى
بالاسم الحسن الشريف ، ويشتهر بالفعل السيء القبيح ، فإنه إذا فعل ذلك كان
كالمتشبّع بما لا يملك ، وكلابس ثوبي زور . فما أبلغ في هذا المعنى قول القائل
حيث يقول :

إذا ركبوا^(٢) الأعوادَ قالوا فأحسنوا وما خيرُ قولٍ لا يصدّقه فعلُ

ولقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان خطب يوماً بمكة ، فلما صار إلى موضع
العظة قام إليه رجل من الصوحان ، فقال : مهلاً مهلاً إنكم تأمرون ولا تأمرون ،
وتنهون ولا تنتهون ! أفنتدي بسيرتكم في أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألستكم ؟
فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فأين وكيف وما الحجة ؟ ومن النصير من الله في الاقتداء
بسيرة الظلمة الجورة الذين أكلوا أموال الناس دُولاً ، وجعلوا عباد الله خولاً .

موافقة
العمل
للقول

وإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح غيره من يغش
نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته ؟ .

وإن قلتم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن
سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ؟ وحكمناكم في دماننا وأموالنا ؟ أما
علمتهم أن فينا من هو أفصح بفنون العظاات ، وأعرف بوجوه اللغات منكم ؟
فتلحلحوا عنها لهم ، وإلاً فاطلقوا عقالها وخلّوا سبيلها ، يبتدر إليها الذين
شردتموهم في البلاد ونقلتموهم في كل واد .

أما لئن بقيت في أيديكم لانقضاء المدة وبلوغ الغاية ، فإن لكل قائم يوماً لا

(١) يتنكب : يمتنع .

(٢) ركبوا الأعواد : اعتلوا المنابر ليخطبوا في الناس .

يَعْدُوهُ ، وكتاباً بَعْدَهُ يَتْلُوهُ لا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

ومما وجد في كتاب شهامة الملوك : ليكون عملك أحسن من قولك ، فإن القدوة الحسنة

ولقد قرأنا في عهد لبعض ملوك الهند إلى ابن له : لا يريك رأيك أنك إذا أَحْسَنْتَ القول دون الفعل فقد أَبْلَغْتَ إلى السامعين منك دون أن يَصْدَقَ قولك فَعَلُّكَ ، وَيُحَقِّقَ سِرَّكَ عَلَانِيَتَكَ .

وقال زعيم الهند الذي يدعى « البُدَّ » ، : لن يبلغ ألف رجل من إصلاح رجل واحد - بحسن القول دون حسن الفعل - ما يبلغ رجل واحد من إصلاح ألف رجل بِحُسْنِ الْفِعْلِ .

وقد كان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه يتعوذ بالله من أَلْسِنَةٍ تَصِفُ ، وقلوب تعرف وأعمال تخالف .

ولقد افتتح بهذه المعاني أو عامتها سابور بن أردشير الملك عَهْدَهُ الجليل الخطير العظيم القدر في بابه إلى ابنه حيث قال : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرًا لَا يَفُوقُهُ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَبَلَغْتَ غَايَةَ لَيْسَ وَرَاءَهَا مَجَازٌ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَاسْمُ بِنَفْسِكَ إِلَى مَا يَلَاثِمُ الْخَطَرَ الَّذِي أَصْبَحْتَ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالِ الْفَضْلِ ، وَتَمَسَّكَ مِنَ الْعَدْلِ بِعَصْمَةٍ ، يَصِيلُ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَزَهْرَةِ النَّعِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِلَابَ ، وَيَبْقَى لَكَ حُسْنُ الْأَحْدُوثَةِ إِذَا وَدَّعْتَ مَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، فَإِنَّكَ مَوْرَثٌ مَا أَنْتَ فِيهِ وَمَسْلُوبُهُ ، وَخَارِجٌ مِنْهُ إِلَى ثَوَابٍ مَا تُقَدِّمُ لِنَفْسِكَ ، أَوْ عِقَابِهِ .

ووجدنا لبعض الحكماء من ملوك الهند في عهده إلى ابنه : يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ مِنَ الْأَمْرِ جَسِيًّا ، فَخُذْ لَهُ تَنَلَّهُ ، وَأَقْبِلْهُ بِقَبُولِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ مَسْرُورًا إِنْ كَانَ

منك لعاجل يقع ولا لنيل شهوة ، فإن ذلك أوخم ما أنت نائل منه ، وأذل ما أنت مصيب به ، فإن نازعتك شهوتك إلى هذه الأمور فاتهمها أشد الاتهام ، وغاليها أشد المغالبة ، فإن أظفرك الله بها رفع عنك شرها .

فليكن فرحك بذلك أشد من فرحك بمن ظفرت به من أعدائك ، فإن فضل ما أنت تاركة لله من هواك على ما أنت مصيب من لذة سروره كفضل ثواب الله لأهل الجنة على ما قسم للناس من معاشهم في الدنيا .

ولقد أوجز عمرو بن عبيد حيث قال لأبي جعفر المنصور : إن الله لم يرخص أن يكون أحد من الناس فوقك ، فلا ترخص أن يكون أحد أشكر له منك .

فضل الملك ومما يجب على الملك أن يكون ما فيه من الفضل والشرف في أفعاله وخصاله وعقله وكماله ، موازيا لكل نقصان في رعيته ، لأنه إنما استرعيها ليرعاها ، واستحفظها ليحفظها ، وليسد خلتها ، ويجبر فاقتها ، ويدفع نقصان منقوصها ، ويستر عيب معيها ، ويقيم متأودها^(١) ويذب عن حريمها ، وينصف مظلومها من ظالمها ، ويحملها على شرائع دينها وفرائض ملتها وحدودها وأحكامها .

وإذا كان هذا هكذا فكيف يكون سائسها الناقص الجاهل ، والظالم الغاشم ، أو المتهتك المضيع ، ومن يكون في رعيته من هو أجمع لخصال الخير واحرز لأسباب الفضل منه ؟ .

فكيف ينقاد له الفاضل المتدين ، والعدل المثبت إلا قسراً واضطهاداً ، أو جبراً واضطراباً ، يتوقع زوال المحنة عنه بزواله ودفع الظلم عنه بارتفاعه .

وإذا كان هذا هكذا كان ذوو الفضل من رعيته أعداءه ، وذوو الفضائل

(١) المتأود : المعوج .

من أهل ولايته أعواناً عليه . وأخْلِقْ بمثل هذا المُلْك أن يكون سريع الزوال وشيك
الاضمحلال .

وقد قال أردشير الملك في عهده : اعلّموا أنّ قتالكم الأعداء من الأمم قبل
قتالكم سوء الأدب من أنفس رعيّتكم - ليس بحفظ ولكنّه إضاعة ، وكيف يجاهدُ
العدوُّ بقلوب مختلفة وأيد متعادية .

وقال في فصل آخر : اعلّموا أنّه ليس للملِك أن يبخل ، لأنّه لا يُقدَّر على
استكراهه ، وليس له أن يغضب ، لأن الغضب والقدرة لقاح الشرّ والندامة ،
وليس له أن يلعب ولا يعبت لأن اللعب والعبث من عمل الفراغ ، وليس له أن
يفرغ ، لأن الفراغ من أمر السوقه ، وليس له أن يحسد إلّا ملوك الأمم على حُسن
التدبير ، وليس له أن يخاف ، لأن الخوف من المعوز وليس له أن يتسلط إن هو
أعوز .

وقال الاسكندر الحكيم : من عجز عن تقويم نفسه فلا يلومَنَّ [مَنْ^(١)] لا
يستقيم له .

قال ودخل أسقف نجران على مصعب بن الزبير فكلّمه بشيء بغضب ،
فضرب وجهه بالقضيب وأدماه ، فقال له الأسقف : إن شاء الأمير أخبرته بما أنزل
الله على لسان عيسى ، ولا يغضب ، فقال : قل . قال : نجد في التوراة « لا
ينبغي للأمام أن يكون سفيها ومنه يُلتمس الحكم ، ولا جائراً ومنه يُلتمس
العدل » .

وفيما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر : وقد يجب على الملِك أن يختصّ
بأحسن الخواص ، وذلك أنه علّم مشاراً إليه ، وغرض يُقصد نحوه ، والآفة

(١) مَنْ : ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

الصغرى في الملك مقدارها غير صغير ، وكذلك الفضيلة في الملك أضوا
وأطرى^(١) وأكثر مقداراً .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لا بُدَّ للشَّاةِ من راع يُدبِّرها فكيف بالناس إن كانوا بلا والي
وإن أضيف الى الأذئاب أمرهم دُونَ الرؤوس فهم في حال إهمال
وقال آخر^(٢) :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهَّاهم سادوا
وكذلك ما قال بعض الشعراء في بعض الملوك ورآه ركيكا متخلفاً :

خيارهم ناموا عن المكرمات فبههم قدر لم ينم
فيا قُبَّحهم في الذي خوكوا ويا حُسْنهم في زوال النعم
وقال آخر :

إذا لم يكن صدرَ المجالس سيدٌ فلا خير فيمن صدرَّته المجالسُ
وكم قائلٍ مالي رأيتك راجلاً فقلتُ له من أجل أنك فارسُ

وروى الأعمش عن شقيق بن سلمة أنه قال له : يا أبا سليمان والله ما عند
هؤلاء واحدة من ثنتين ، ما عندهم تقوى أهلِ الإسلام ، ولا احلام أهلِ

(١) أطرى : من الإطراء وهو المدح .

(٢) هو الأفوه الأودي ، واسمه صلاءة بن عمرو ، من مدحج ، وكنية أبو ربيعة ، له ترجمة في الأغاني
١١ / ٤١ و ٤٣ .

الجاهلية ، فكيف يُعظّم العلماء والحكماء من كان محلّه عندهم هذه المحال الموصوفة
إلا ضرورة واقتساراً .

وإذ قد وفّينا هذا الباب حقّه من الخطاب ، ودلّلنا عليه على ما ذكرناه وأخبرنا
به من كتاب الله وسنّة رسوله وشواهد العقول وآثار الحكماء ، فنحن خاتموها
وصائرون إلى الباب الذي يتلوّه في ترتيب أبواب الكتاب ، لنقول فيه ما يحضرنا ،
بعون الله وتوفيقه .

البَابُ الثَّالِثُ

الإدانة عن الأسباب التي من جبرتها يعرض الاختلال
والفساد في المالِك وفي أحوال الملوك

نقول إن أحوال الأمم المعروفة أخبارها ، والممالك المشهورة آثارها ، والملوك
المنقولة إلينا أوائل أيامها وأواخرها متقاربة متشابهة ، ولذلك ما روى عن نبينا -
ﷺ فيما وصف به حال أمته : « لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعْل ، حتى لو كان فيهم من دخل جُحر ضب لدخلتموه »^(١) . وإن كان الله قد أسس
لخص هذه الأمة بوجود الحق فيها إلى يوم القيامة ، وجعل إجماعها حجة على مواضع
اختلافها ما بقيت ، ووعدنا النصر والتأييد إلى آخر الزمان .

وكان مما جرت عليه أمور العالم واستمرت عليه أنه لم تكن مملكة إلا كان
أسسها ديانة ، ولم تكن ديانة قديمة ولا حديثة إلا كان [فيها دعوة إلى عبادة]^(٢)
الله - جلّ وعز - وتوحيده والترغيب فيما عنده للمطيعين المتدينين من جزيل
الثواب وكريم المآب ، والحث على التزود إلى دار القرار والبقاء ، والتزهّد في دار
النقل والفناء حتى إذا خرج الآتي بشريعتها ، والواضع لأركان ملّتها - حقاً كان
ذلك أم باطلاً - من بينها ، وقع الاختلاف فيما بين أمته ، والتنازع في أهل ملّته ،
فربما كان ذلك منافسة في الرياسة ، وربما كان مخالفة في الدين .

(١) رواه البخاري في الاعتصام ، ومسلم في العلم ، واحمد في المسند ٨٤ / ٣ .
(٢) توجد هنا بقعة خبر في المخطوطة غطت بضع كلمات . وما وضعناه مكانها يناسب السياق .

ثم لا يزال اختلافهم يحملهم على التعصب ، ويؤديهم الى التحزب ، ولا تزال الأيام تتابع والأمد يطول ، حتى تبعد بأصل الدين عهدهم ، وينسوا كثيراً مما ذكروا به .

زهرة الدنيا
وربما فتحت عليهم خزائن الدنيا فمالوا إليها ، حتى صارت مملكتهم على مر الأيام دنيا تيه تتداولها أيدي أبنائها ، وسياستهم شهوانية تشح عليها أنفس طلابها ، ويتعاضد عليها أربابها ، كما قد روي ذلك عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه لما أتى بغنائم القادسية جعل يتصفحها وينظر إليها ويبكي ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف : يا أمير المؤمنين هذا يوم فرح وسرور ، فقال : أجل ولكن ما أوتي هذا قوم قط إلا أورثهم العداوة والبغضاء .

ثم ربما جعل الملوك ممالكهم وراثه منهم يرثها الأخلاف الأسلاف ، والأبناء الآباء والأصاغر الأكابر ، يعهد بعضهم إلى ولده من غير امتحان له في عقله ، ولا معرفة منه بفضله ، ولا وقوف على علمه بأمور الديانة التي هي أصل المملكة واسمها ، ولا استقلال بأسباب الملك التي هي فروعها وحراسها .

فإذا وقع فيها الغير الممتحن بسكر الشباب والثروة ، وسكر العز والمملكة والفراغ والقدرة ، ورأى أن ليس فوقه يد قابضة ، ولا عين راقبة ، ولا قوة قاهرة - أمين حوادث الزمان واغتر بمساعدة الأيام ، ولم يذكره الأمن الخوف ، ولا العز الذل ، ولا الغنى الفقر ، ولا الظفر الخيبة ، فخال الدنيا كلها سروراً بحثاً ، ولذة صرفاً ، فاتبع فيها اللذات ، وأثر فيها الشهوات ، ونسي ما صنع الله بمن كان قبله من أمثاله ممن هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ، وعمي عما يشاهده في أيامه وساعاته من حوادث الزمان ونوائب الليالي والأيام ، ولم يذكر ما قاله الملوك الأولون « من تاه في ولايته ذل في عزه » .

عاقبة الترف
وإذا صار كذلك صارت همته من الملك التمتع حلالاً كان أو حراماً ، وبغيته

من المقدرة التطاول والتسلط حقاً أم باطلاً ، وأعرض عن أحكام الدنيا جانباً ،
وضرب عن حدود السياسة صفحاً ، وصارت سياسته عبثاً ، ورعايته لهواً ، ثم
خلف ذلك في عقبه ميراثاً ، وفي أتباعه سُنَّة .

وعند ذلك يكثر في رعيته الظالم والمظلوم والغاشم والمغشوم واقتدوا بملوكهم
في إمراج النفس^(١) في لذاتها ، وإتيانها هواها من الشهوات الحيوانية الصادة عن
مواجب العقول .

وتفرقت عنه الأهواء ، واختلقت فيه الآراء . فأما أبناء الدنيا والمؤثرون لها
والحرصاء عليها فتقربوا الى الملوك بالنصائح التي لهم شطرها والمشورات التي لهم
ثمرتها ، فكثرت عند ذلك وزراء السوء أعوان الظلّمة ، فجرعّوهم الغش في طعم
النصح ، وأروهم الضلال في صورة الهدى ، وعرضوا عليهم الغي في معارض
الرشد ، وحجّبوهم عن النصحاء الحكماء ، وحالوا بينهم وبين العلماء الفضلاء ،
فضلّوا وأضلّوا ، وهلكوا وأهلكوا .

وإذا كانوا كذلك صار الحكماء والعلماء والبُصراء بالعيوب في صُورها والمذام
بأعيانها ، بين ذليل مقموع ، ومطروود محجوب ، وبين متحرج تمنعه ديانته عن
إتيانه ، وحكيم يترفع عن صحبته ، وخائف يرى أنه إن واجهه فيما فيه صلاحه
ونصحه ، وقابله بما فيه نجاته ورشده ، عاقبه عليه أشدّ العقاب ، وعذّبه ألم
العذاب ، لأن الحق مُرٌّ ، ونصح من ينهى عن الهوى ثقيل إلّا على العاقل الكامل
والحازم الفاضل .

وكثير من هذه الأبواب قد نال ملوك زماننا هذا من أهل ملّتنا ، وولاة أهل
قِبَلتنا . فهذه كلها أبواب الفساد التي تعرض من جهة حب الرياسات والشهوات
والتشاح^(٢) عليها .

(١) إمراج النفس : تركها وتخلّيتها كالذابة تترك ترعى ما شاءت .

(٢) التشاح : الحرص الشديد .

العمل بالقرآن وأما الباب الذي طريقه طريق الدين خاصة ، فهو أن كلام كل كتاب وأخبار كل نبي لا تخلو من احتمال تأويلات مختلفة لأن ذلك موجود في الكلام بنفس طباعه . ومعلوم أن الكلام كلما كان أفصح وأعرب وأحسن نظماً وأبعد مخرجاً كان أشد احتمالاً لفنون التأويلات وضروب التفاسير . ولا كلام أولى بهذه الصفات من كلام الله - جل ذكره - إذ كان أفصح الكلام وأوجزه وأكثره رموزاً ، وأجمعه للمعاني الكثيرة والأحرف اليسيرة ، وكان كتابنا الذي هو القرآن أولى الكتب وأخصها بهذه المعاني إذ كانت اللغة التي أنزله الله بها أفصح اللغات ، وكان كتاباً جعل نظمه حجة على قومه ، وعلماً لنبيه ﷺ ولا بد في الدين من وقوع الحوادث التي يحتاج إلى النظر فيها ، والنوازل التي لا يستغني العلماء عن استخراجها ، وعن خبر يُشكل معناه ، وأثر تختلف التأويلات في فحواه على مر الأيام .

فاذا دفعوا إليه اختلفت الآراء في المسائل ، وتفرقت الأهواء في النوازل ، وصار لكل رأي تبع ومتشرعون وأئمة ومؤتمنون ، ثم مع طول الزمان ازداد لها أنصار ومتعصبون وأعوان ومحامون ، فكان سبباً لاختلاف الأمم وانشقاق عصاها .

ولا يخلو دين من الأديان ولا ملة من الملل من منافقين فيها ومعادين لها ، فإذا آفة النفاق وجدوها مختلفة متباينة متعادية أظهروا مكائدهم المضمرة ومطاعنهم المكنونة ، ففسدوها في مذاهبهم واخترعوا اختراعات كاذبة فوضعوها في أخبارهم ، فافتنت بذلك عوامهم ، وفسدت أغمارهم ، ثم قصدوا الملوك - وهم أخلى من علم الدنيا ، أعراض عن أصول الشريعة ، مترفون منعمون ، أهواؤهم التمتع باللذات ، وآمالهم مصروفة إلى نيل الشهوات ، وهمهم الحرية والخلاعة والمروق عن الطاعة - فزيتوا عندهم الملاهي والملاعب ، وحرصوهم على استعمال المزاهر والمعازف ؛ والقوا اليهم ما يشين العريض ويُخلق المروءة ويفسد المملكة ، وعميت الديانة ويخالف بين أهواء الرعية ويغير أمارات الشريعة ، فقبلوها منهم لما وافق أهواءهم من الاستخفاف بالدين وطرح ثقله .

فإذا صار أمر الملوك - وهم من يقتدى بأفعالهم ، وتقتفى آثارهم في سيرهم - كذلك جرى عليه خواصهم وخدمتهم ، ولكل خاص خاص ، ولكل مقتدى مقتدى به ، فعند ذلك تختلف السيوف لأن أهل الأديان يعتقدون الخروج على الملك وأتباعه والسلطان وأشباهه ، ويستحلون إزالة يده ، وأهل الدنيا لا يراعون له حقاً ولا يعرفون فيه منقبة لا يبلغونها بالتقدير في أنفسهم ، ولا يوجبون له طاعة تلزمهم ، بل يرون أن الملك صار من عزّ بزّ ، ومن غلب سلب ، فيكثر لذلك الخوارج وتخرب الممالك ، وتفسد الرعايا وتشيع المعاصي والفواحش وتكثر المؤن ، واحتاج الملك العدد الكثير والعدة الوفرة ، ثم ربما ضاقت أموال المملكة عن مؤن الأعوان والحاشية ، فأدى ذلك الى شغب الجند وتحزّب آراء الأعوان ، ولا يبالي الملك أن يححف بالرعية ، ولا تبالي الرعية أن تُعين عليه ، فإن أطاعت أطاعت مقسورة مقهورة ، وإن اضطربت وغلّت كانت عند الله وعند أهل الدين والعقل والرأي والفضل معذورة ، وعند أنفسها مشكورة مغفورة . وإذن زاد ما يُطمع في الملك أعداءه ويرغب في إبطال الدين مخالفوه .

وعلى هذا جرّت أحوال أمتنا مع نبينا ﷺ وبعده ، فإن خلفاءه الراشدين كانوا لا يرون الخلافة الا لإحياء الدين ، ولا الإمارة إلا لصالح المسلمين ، وكانوا أهل رافة بالمؤمنين ، سيرتهم العدل ، وقولهم الفصل ، وقضاؤهم الحق ، وكلامهم الصدق ، وقد لبسوا المسوح والصوف ، وجردوا السيوف يضربون بها وجوه الكفار ، وأخذوا السياط يقمحون بها رؤوس الفجّار ، حتى فتحوا الفتوح وهزموا الجيوش ، وقهروا الجبابرة وقتلوا الفراعنة ، وأظهروا نور الحق في المغرب والمشرق ، ظاهرهم الخشوع وباطنهم الخضوع لله ، وبُغيتهم الآخرة والاستخفاف بالدنيا ، جعلوها تحت أقدامهم إذ عرفوها حق معرفتها ، ووضعوها في منزلتها ، كقول النبي ﷺ « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما

سقى منها كافراً شربة»^(١) . وقوله حين مر بمزبلة « من سره ان ينظر إلى الدنيا بحذافيرها فليُنظر إلى هذه » .

ومر بشاة ميتة ملقاة في مزبلة فقال : ما ترون هذه هانت على أهلها حتى رموا بها ؟ للدنيا على الله أهونٌ من هذه على أهلها^(٢) .

وكان عمر بن الخطاب يقول لعماله ؛ إنا لا نوليكم على أشعار المسلمين ولا على ابشارهم ، وإنما نوليكم لتقيموا فيهم الصلاة وتعلموهم العلم والقرآن .

وقال النبي ﷺ لعامل وقد رجع من ولايته بشيء طفيف ، فقال : هذا أهدي إليّ : « ما بال^(٣) أحدكم إذا وليناه أمراً من أمور المسلمين أن يقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ ؟ ألا جلس في حفش^(٤) أمه فنظر هل يهدي إليه » .

حتى خلف من بعدهم خلف رغبوا في الدنيا وآثروها ، وسعوا لها وقدّموها ، وتنعموا فيها واتخذوا مال الله ذولاً ، وعباد الله خولاً ، وتركوا رعاياهم هملاً إلا من عصم الله منهم .

فهذه الخلال التي ذكرناها في هذا الباب هي التي تخرب الممالك وتُفسدُ الأديانَ ، وتطمع الأعداء في الملوك ، وتخالف بين السيوف ، قد عددناها وذكرناها ، ولكل داء من هذه الأدواء دواء يُستشفى به ، ولكل فساد وجه صلاح يُؤتى به وباب تحرّز لمن أراد التحرز والاحتياط لمن مال إلى التوفيق .

أما ما ذكرنا من بعد عهد النبي ﷺ وأصحابه الصالحين في صدر أمته ،

(١) رواه الترمذي في الزهد .

(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق . وأحمد في مسنده ٣٢٩ / ١ .

(٣) رواه مسلم في الإمارة .

(٤) حفش : الحفش بكسر الحاء وسكون الفاء : البيت الصغير من الشعر .

حتى تأدي ذلك الى قساوة القلوب والاغترار بالدنيا والانخداع بها ، فإن أخبارهم غضة طرية وإن بليت أجسادهم ، وآثارهم حاضرة عديدة وإن غابت أعيانهم .

فينبغي للملك الحازم والسائس الصارم أن يتعهد قلبه بسماع آثارهم وقراءة واجب سيرهم وأخبارهم وهديمهم ، ويتفكر فيما أقام الله - جل وعز - من دلائله الواعظة الحزم وأعلامه المشاهدة في أرضه وسماائه ، وفيمن كان قبله من الملوك الماضية ، ليعرف بذلك حاله ويرى نفسه ، فإنها قائمة نصب عينه تخاطبه وإن لم تنطق ، وتعظه وإن لم تُسمع .

وسنفرد للمواعظ باباً على اثر هذا ، ونذكر فيه ما نظنه نافعاً كافياً إن شاء الله .

وأما دفع مضرة أصحاب الأهواء والطاعنين في الدين ، والخادعين عنها مدافعة بالحيل الغارة والأباطيل الخادعة ، فإن التحرز منه يكون بالنظر في كلام المتكلمين ذوي الأهواء الذين عن أصول الدين ، المتدربين بمناظرة الملحددين والمخالفين ، والجمع بينهم والسماع منهم ، والاستماع لتأويل الآثار وتفسير الأخبار ومعاني الآي ، فإن من نظر في هذه المعاني عرف فضل علوم الإسلام على سائر العلوم ، وقوة هذا الدين على سائر الأديان ، وفضل هذه الشريعة في الحُسن والقوة على كل شريعة ومِلَّة أنتسبت إليها أمة ، واعتزَّت^(١) إليها فرقة .

فإن لم يحضر المتكلم الحاذق والعالم الصادق ، فليقرأ كتبهم المؤلفة في تأييد الدين وإظهار محاسنه والتأويلات وعلل الأخبار ، وليصرف بعض أوقات الفراغ في الخلوة إليها ، فإن ذلك لا يُعوِز الملك إن أراده ، ولا يفوته إذا طلبه .

وأما غلبة وزراء السوء وطلاب الدنيا على الملك ، ونفور الحكماء والعقلاء

(١) اعتزَّت : من الفعل اعتزى بمعنى انتسب ويكون ذكرها من باب الترادف للتوكيد .

منه فإن وجه التحرز منهم لإظهار الأمانة والعفة والعدل في الرعية والشفقة عليها والرافقة بها وفتح أبواب النصائح فيها ، فإنه إذا فعل ذلك أظهر كل منهم ما يوافق ميل ملكه ويقارب رأي رئيسه ، مؤمناً كان أو منافقاً ، مخلصاً كان أو مُرائياً . وأقبل عليه أهل الدين والحكمة والأمانة والخشية والصدق في النية إقبالاً ، فأتوه اجفالا^(١) ، وأشاروا عليه بالحق وهدوه الى الرشاد ، ونهوه عن الفساد ، وأهدوا إليه النصائح ، وثنوه عن القبائح ، فإن السلطان سوق وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيه .

وأما التحرز من اختلاف قلوب الرعية ، وتفرق أهواء العامة من جهة الدين ، فإن وجه التدبير فيه والترتيب على منازل مختلفة : منها - أن يحمل الناس على ترك الخوض فيما يؤديهم إلى التفرق ، ويدعوهم إلى التحزب ، فإن ذلك هو أمر الله الذي أمر به عباده ، وسنة رسوله التي أكدها عليهم ، وسياسة الملوك الحزمية من قبله . قال الله جل وعز : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾^(٤) .
في أي كثيرة ينهاهم فيها عن التفرق والتحزب .

(١) أتوه اجفالا : أي مسرعين .

(٢) آية ١٠٣ آل عمران .

(٣) آية ١٠٥ آل عمران .

(٤) آية ١٥٣ الأنعام .

وقال النبي ﷺ « رَحِمَ اللهُ مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا »^(١) وقال : « لا تختلفوا في الصفوف فتختلف قلوبكم »^(٢) .

وقال أبو بكر الصديق - رحمه الله عليه - لسلیمان الفارسي في كلام- وهو فيه محقٌ - دَعِ الْكَلَامَ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْتَلِفَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
في أمثال كثيرة من أمثال هذا .

والتدبيرُ المحكم في قطع سبب الاختلاف والحيلة فيه أولا - أن يتلو فيهم قطع الآيات والآثار التي أمر فيها بالائتلاف ونهي عن التفرق والاختلاف ثم يؤدب الاختلاف نفسه ، ويؤنب ويُعزِّر ويعاقب من أحدث بدعةً أو ألحد في سنة .

فإن لم يتهياً ذلك وكان الاختلاف والتفرق قد سبق عُمر بعض الملوك وتقدم أيامه ، فالوجه الا يدعُ مُحَدَّثَةٌ تَحْدُثُ في أيامه ، ولا سيما إذا كانت مخالفة لظاهر الشريعة وأصل الملة ، ويدبر فيه التدبير الأول .

فإن لم يتهياً ذلك إذ هو متعذر عسير قد تكلفه من كان قبلنا من الملوك الحزمة المعنيين بأمور الدين والملك ، واجتهدوا فيه فلم يتهياً لهم ما أرادوا ، وتعذر عليهم من ذلك ما راموا به ، فإن فيه وجهين : أحدهما - الرغبة في الآخرة محضاً ، وصرف الهمة إليه صرفاً ، وطلب ما عند الله للمخلصين في دينه ، والمجتهدين في إدراك حقه .

فإذا اختار ذلك بالنظر العدل وسماع الأقاويل حتى يصح عنده الحق فيما اختلفت فيه الأمة ، ثم دعوة الناس والتلطف لبثه ونشره بالتقريب على مذهب الحق واعانة الدعاء إليه والناظرين فيه ، والحسبة في كل ما يجري على يده من ذلك -

(١) رواه أبو داود في الأدب ٧ والترمذي في البر ٥٨ . وابن ماجه في المقدمة ٧ .

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والدارمي في الصلاة .

فإن فيه الأجر العظيم والثواب الجزيل الكريم ، وهو طريق الأنبياء عليهم السلام وسبيل الأولياء والصالحين والأئمة الراشدين من أهل دعوتنا ومن كان قبلنا .

ولا ييأسُ فاعلُ ذلك ومُقدِّمُ النية فيه من توفيق الله ومتابعة عِصْمَتِهِ إليه ونُصْرَتِهِ على مُحَالِفِيهِ ، فيجتمع له الدين والدنيا .

والثاني - أن يعتقد الحق ، ويظهر جملة ما اجتمع إليه أهل ملته ، واتفقت عليه ألسُنُ أهلِ دعوته ، ويجتهد في معرفة ذلك على اليقين والصحة ، ثم قام بالشرائع وانهض الأحكام ، وبَسَطَ العدل والإحسان ، ونفى الجور والعدوان .

ولا يتعرض لشيء مما اختلف الناس فيه بعد معرفة الجملة ، إذ لا مطمع في جمع أهواء الناس على رأي واحد ، سيما بعد تقدُّم المدد الطويلة ، وتتابع الأزمنة المتراخية ، وسبق وقوع الاختلاف .

وأما الحيلة في حُسْمِ أطماع العدو منه فمن جهات :

حسم
اطماع
العدو

أولها وأقربها - هو الذي قدَّمنا من إئتلاف قلوب الرعية وجمع كلمتهم بالعدل والإنصاف والفضل والإحسان ، وعمارة المملكة بهذه الأسباب ، واستيفاء الخراج والغلات من هذه الوجوه .

والثانية - التنظف عن المطامع الدنيئة والأخلاق الذميمة واتباع الشهوات والاستهتار باللذات ، ولا سيما مما حرَّم الله ونهى عنه . والسمو إلى نيل الفضائل ودرك المناقب من العلم والدين والعدل والرفق وسائر خصال الفضل ، فإن هذه مراتب من نظريتها وفكر في مغبتها ، ورأى نفسه عن سمئها غفلا ، وعن حليها عطلا ، لم تطمع نفسه ، وخاف الدنومنها .

ثم حُسِنَ التدبير في الأمور ، واستشارة ذوي الألباب والرأي والتجارب ، فقد قيل ، كأيّدُ عدوك بإصلاح عيوبك .

وبهذا كتب أرسطا طاليس إلى الإسكندر : أصلح من نفسك مَنْ يردُّ
الرعية إلى إيجاب الحق لك ، واطهر الفضائل والأدب في رعيته فإنها تنمي رعيته
وتذل أعداءك ومَنْ ناوأك .

وقال : أصلح نفسك بنفسك تكن الناس تبعاً لك .

تم جمع الجنود المختارين والحاشية المنتخبين المتدربين بالوقائع والحروب ،
والاحتياط لاستجماع آرائهم وقلوبهم بالعدل بينهم ، وإثابة المحسن على إحسانه ،
وجزاء المسيء على إساءته ، وإدراة أرزاقهم . على ما سنذكره في باب سياسة
الخدمة إن شاء الله .

فأما التحرز من الوقوع فيما يرى فيه ملوك زمانه عند ظهور الفساد وتغير
الأمور واستئثار الملوك بأموال الرعية وإظهار الخيف ، والميل إلى الدنيا ، وما في هذا
الباب ، فمن وجوه :

أولها - مراقبة الله - جل وعز - والعلم بأن الله أولى بأن يتبع ، والرسول أحق
من يقتدى بهم ، وأن يعلم أن الله عز وجل - يجزي كل نفس بما كسبت ﴿ ولا
تزِرُ وازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) .

ثم يسمو بهمته إلى أن يكون أفضل عند الله وعند العقلاء وأرفع منزلة لدى
الحكماء منهم . فإن أخص الناس بهذه الصفة وأولاهم بهذه المهمة - الملوك ، لأنهم
لم يرضوا إلا أن يكونوا فوق أشكالهم ونظرائهم من أهل نوعهم درجة ، وأعلى
منهم منقبة وأظهر منهم فضيلة .

فإن لم يكن كذلك فإن يلحق بالفضلاء من الملوك ، فإن الملوك يتفاضلون
فيما بينهم في الخصال الشريفة ، فيجب على الملك الفاضل أن يقتدي بأفاضلهم
دون أرادهم ، ويقتفي آثارهم في فضائلهم دون رذائلهم . فإنه لم تكن أمة من

الأمم إلاّ كان في ملوكها حَزَمَةٌ وساسة وحكماء ومتديّنون ، بل كانوا لا يرون من أهل الدين إلاّ من كانت هذه سبيله ، فمن خالفها أو عدل عنها أو تنكّب عنها كان مُلكُهُ مُلكُ المتغلب المُبتَزِّ والدخيل المحتلّ .

ثم قد يتفاوت اختلاف الملك الواحد في أفعاله ، في الحسن والقبح ، والفضائل والردائل ، فيجب على الملك البعيد الهمة الذي يريد الاقتداء أن يقتدي به ويتبع سُنَّتَه ، ويحتذى سيرته في محاسنها لا في مساوئها ، وفي أفاضلها لا في أراذلها .

فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تكونوا إمعةً تقولوا إن أحسنَ الناسُ أحسنًا ، وإن أساءوا أساءنا ، ولكن وُطِنوا أنفسكم إن أحسنَ الناسُ أنْ تُحْسِنُوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا^(١) . »

وقال بعض الحكماء : إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الهلكة فذرهم وما اختاروا لأنفسهم ، .

وقال الله جل ذكره - ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم ﴾^(٢) .

قالوا وشكا رجل إلى حكيم من الحكماء فسادَ الزمان ، فقال : أنت الزمان فإن صلحتَ صلح ، وإن فسدتَ فسَدَ .

ثم ليس شيء مما نودعه كتابنا هذا إلاّ لو أردنا أن نستشهد عليه بقول ملك من الملوك أو خليفة من الخلفاء أو أمير من الأمراء ، ونكثر من أقاويلهم ، لوجدناه مسطرًا لهم مكتوبًا ، ومدونًا عنهم محفوظًا ، ووجدنا من الملوك من كان إليه مائلاً وبه قائلاً ، وله مؤثرًا فاعلاً .

(١) رواه الترمذي في البر .

(٢) آية ١٠٥ المائدة .

ومهما شككنا في شيء ، فلا شك أنه كان لله أنبياء ومرسلون وأولياء ملكوا الدنيا وقادوا العساكر والجيوش ، ودوخوا البلدان بالجنود ، فما منعهم جلاله^١ حالهم وعظم ملكهم وكثرة جيوشهم وكثافة جنودهم وسواد جموعهم من إثارة طاعة الله والعدل في خليقته وبريته ، فعاشوا ملوكاً وماتوا ملوكاً ، ونعتت آثارهم ألسنة^٢ الصدق عنهم كأنهم أحياء وإن ماتوا ، وشهود وإن غابوا .

وقد كان منهم سليمان بن داود [عليهما السلام] الذي قصّ الله علينا نبأه^٣ وأخبر أنه ألان له^(١) الحديد وأذل له الشديد ، وسخر له الجن والانس والسباع والبهائم والوحوش وأنواع الحيوان والرياح تجري بأمره رُخاء حيث أصاب .
وكان من قبله أبوه داود عليه السلام ، جعله الله خليفة في الأرض ، وأميناً على الخلق .

وقد كان منهم يوسف النبي ﷺ . ومنهم ذو القرنين الذي أثنى الله عليه .

ثم موسى بن عمران [عليه السلام] ويوشع بن نون وذوهم .

ثم كان خاتم النبيين وسيد المرسلين نبينا ﷺ ملكه كثيراً من بلاده في أثناء حياته ، وقاد الجيوش وساق الخيول وفتح الفتوح ودبر الأمور ، فلم يمنعه ذلك من طاعة الله والائتمار بأمره ، والاجتناب عن نبيه ، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة .

الخلفاء

ثم كان خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون الذين فتحوا البلاد وقهروا أهل العناد ، وكان من سيرتهم ما قد ذكرنا .

بنو أمية

ثم كان من بعدهم عمر بن عبد العزيز وهو من بني مروان الذين عاشوا في

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في الأصل ، والمعروف أن النبي الآن الله له الحديد هو داود - عليه السلام - قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ . آية ١٠ سبأ

الأرض وغيروا السنن وأظهروا البدع ، فلم يكن قبله منهم مثله ، أمر ببيع الخزائن وردّ المظالم وأزال اللعن عن آل الرسول ، ورغب في العلم ونشر الفضل ، وقرب أهل العلم والزهد ، فلم يمنع فساد أهل زمانه وأقربائه ونظرائه من صلاحه وتدينه وتحريه الحق .

وكذلك كان يزيد بن الوليد ، فإنه أظهر الدين وتعصب له وبسط العدل ، وقتل ابن عمه على الظلم والجور والإلحاد والكفر ، ثم قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام ، ثم قال : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك ، وما بي إطرأ نفسي وإنني لظلوم لها ، ولكنني خرجت غضباً لله ولدينه ، وداعياً إلى كتاب الله وسنة رسوله لما هُدمت معالم الهدى واطفىء نور أهل التقى ، وظهر العنيد المستحل لكل حُرمة والراكب لكل بدعة ، والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في الحسب وكفوي في النسب ، فلما أن رأيت ذلك استخرتُ الله في أمري وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، واستعنتُ بمن أطاعني من أهل ولايتي ، إلى أن أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي .

أيها الناس إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا أجري نهراً ، ولا أكتنز مالاً ولا أعطيهِ زوجة ولا ولداً ، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضّلتُ فضلةً نقلتها إلى البلد الذي يليه ممن هم أحوج إليه منهم ، وعليّ ألا أجهدكم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهاليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قوريكم ضعيفكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم فينقطع نسلهم ولكن لكم أعطيائكم في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإن أنا وفيت لكم بهذا فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة ، وإن أنا لم أفِ لكم به فلكم أن تخلعونني ، إلا أن تستيوني ، فإن ثبتُ

قبلتم مني ، وإن رأيتم أحداً أو عرفتموه يُعرف بالفضل والصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته .

أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

فأما خلفاء بني العباس فقلّ من خلا منهم أو من أفاضلهم من خصال حميدة بنو العباس لو اقتدى به فيها وأخذت عنه لكان لذلك أهلاً فقد كان منهم أبو العباس أول الخلفاء ظاهر الزهد كثير الفضل والعلم وكان أبو جعفر المنصور أخوه كثير العلم شديد الاعتقاد في الدين ، وكان قد صحب عمرو بن عبيد قبل توليه الخلافة ، وأخذ عنه العلم والدين ، وكان أحرص الناس على الاستكثار منه في حال الخلافة ، وله معه آثار معروفة وأخبار مشهورة . ثم كان ابنه على مذهبه وكان هارون الرشيد متديناً شديد التعصب للإسلام والديانة ، ظاهر الشهامة جَلْداً في السياسة والحماية ، ذاباً عن أركان الملة كَمْشاً^(١) في الدعوة ، غزا الروم غير مرة بنفسه ، وكتب إلى عظماء الكفرة بتهديده ووعيده ، وحج إلى بيت الله ماشياً وراكباً ، وقلّ ما كان يخلو من غزوة أو حجة في كل عام ، ولذلك ما قال فيه مديحه :

في كل عام غزوة ووفادة ينبت^(٢) بين نواهما الاقران
غزوً وحجّ مات بينهما الكرى باليَعْمَلَاتِ^(٣) شِعَارُهَا الْوُخْدَانُ^(٤)
يصلُ الهجير بغُرّة مهديّة لو شاء صان أديمها الأكنانُ
لكنه في الله مُسْتَدِلُّ لها إنّ التقى مُسَدَّدٌ ومُعَانُ

وكان مولعاً بالفقهاء ، مقرباً للعلماء ، مهتماً بأمر دينه ، حتى كان يوصف

(١) الكَمْشُ : الرجل السريع الماضي الجادّ في أمره (اللسان - كمش) .

(٢) ينبت : ينقطع .

(٣) اليَعْمَلَاتُ : اليعملة من الأبل النجبية المعتملة المطبوعة على العمل .

(٤) الوخدان : الأسراع وتوسيع الخطو .

بالتقوى والخشية ، فقال فيه أبو نؤاس :

إمامٌ يخاف اللهَ حتى كأنه يراه من التقوى صباحَ مساء .

وفي كثرة غزوه وإخافته أهلَ الكفر والشرك يقول :

وأخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفَةُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ

ثم كان من بعده المأمون ، وهولو باهت به هذه الأمة سائر الأمم في ملوكها لكان لذلك أهلاً ، ولوجد لها عليهم به فضلاً ، علماً وعقلاً وأدباً وحزماً وأرباباً ورأياً وفهماً وشهامة وعزماً ونظراً في أبواب السياسة ، وجدلاً في العلم واجتهاداً في اختيار المذاهب ، وشغفاً بالعلم وأهله ، وتعصباً للتوحيد ، وتوفيراً على سائر أبواب الملك حقها ، واعطاءها قسطها .

وله آثار موجودة وأخبار ماثورة ، وفي الكتب مشهورة مسطورة .

وامعتصماه وكذلك المعتصم فإن أخباره في كثرة غزواته مذكورة ، ووقائع مشهورة ، وكان متديناً جليلاً بأسلاً شهماً ذاباً عن الدين ، محامياً عن عورة المسلمين .

قالوا وبلغ من حمايته لهم أنه ذكر بين يديه وفي مجلسه أن امرأة مسلمة أسرت في أيدي الروم في وقعة جرت بين المسلمين وبينهم ، فجعلت تنادي وتندب وتقول : وامعتصماه ! ، قال فقال على فوره : لبيك لبيك ، وتقدم إلى خاصته وحاشيته أن يلمّوا به ، وجعل الجيش والخدم يتلاحقون به أولاً فاولاً ، فما نزل إلا على مرحلة ، وما أقلع عن وجهه حتى دخل أرض الروم وتعرف أمر تلك المرأة فاستدلّ عليها فأنقذها وخلّصها ، وأنكى في الروم نكايه لم يكن بمثلها لهم عهد ، كل ذلك إظهاراً للحق واعتداداً لما يجب عليه ويلزمه من صيانة الدين وحماية أهله ، وفي

ذلك يقول أبو تمام فيه :

خليفة الله كافا لله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب

لو كان بين صروف الدهر من رجم موصولة أو ذمام غير مقتضب

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدرٍ أقربُ النسب

ثم كان الواثق مذكوراً بشدة رغبته في الدين ، وولوعه بالعلم وأهله وتعظيمهم ومجالستهم والاستكثار منهم ، وتجريده التوحيد والعدل ، وامتحانه المخالفين ومناظرتهم وحملهم على قبول الحق . ودونهم من خلفاء بني العباس .

ثم كان الأمراء من ولاية خراسان من الطاهرية ، لهم آثار عجيبة وسياسات أمراء سديدة من إعزاز الدين وحيطة الملك ، والرغبة في العلم والأدب وإجلال أهله ، خراسان وتجميل أثوابهم بهم ، وتتبع أفاضلهم في البلدان وحملهم من الآفاق ، وعنايتهم بكتابة الكتب وتصحيحها ، وصحبة أهل الآداب والفضل ، وهمة في اصطناع المعروف وبث الخير ونظر في أمور الرعية ، وحماية عن الحوزة ، حتى إذا فتر في هذه الأسباب آخرهم كان ذلك سبباً لزال مملكتهم وانقضاء دولتهم ، وتصرم مدتهم . وكذلك كانت أحوال ملوك [بني] سامان ، فكان نصر بن أحمد من عبّاد الأمراء وزهادهم ، بالاضافة إلى من كان قبله وبعده .

وكان الأمير الماضي أبو ابراهيم كثير الغزو حسن التواضع ، ثقیل المهمة ناصراً لظاهر الشريعة ، رحيماً بالرعية شديد الرغبة في الخشية وإظهار فرائض الملة ، يتحرى العدل ويُظهر الحق ، وإن كان من أبناء الدنيا .

وكان اسحاق بن أحمد مذكوراً بالعلم والأدب والمحبة لأهله وكثرة مجالستهم والاستئناس بهم .

وكان الشهيد موصوفاً بالعدل في الأحكام ، والتسوية بين القريب والبعيد ،
والشريف والوضيع فيها ، والنظر في أمور الرعية والرحمة بها ، وتحري التخفيف
عنها والرفق بها .

ملوك وكذلك كان حال أفاضل الملوك من آل ساسان من قبل ، على ما دلت عليه
الفرس آثارهم ، فقد قال أردشير في عهده الذي جعله دستوراً للملوك : واعلموا أن
الدين والملك أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه ، لأن الدين أسُّ
الملك ، ثم صار الملك بعده حارس الدين ، فلا بد للملك من أسه ، ولا بد للدين
من حارسه ، فإن ما لا حارس له ضائع ، وما لا أس له مهذوم .

وقال : اعلموا أنه لم يجتمع رئيس في الدين مُسرٌّ ، ورئيس في الملك معلن
في مملكة واحدة قط إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يدي الرئيس في الملك ، لأن
الدين أسُّ والملك عماده ، وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب
العمران .

وكذلك قرأنا في عهد أنوشروان وسابور من تعظيم الدين والذب عنه
والاجتهاد في حمايته وصيانته ، وروينا في آثارهم وأخبارهم .

نصائح
ارسطاطاليس
وقرأنا في رسالة أرسطاطاليس الى الاسكندر : أجعل الدين موضع ملكك ،
للاسكندر فمن خالفك فهو عدو ملكك .

وفيها : أي ملك أخدم ملكه^(١) دينه فهو مستحق للرياسة ، وأي ملك أخدم
دينه ملكه فالمملك له آفة .

وقال : من تمسك بالسنة^(٢) فحرام عليك دمه وإدخال المذلة [عليه] .

وقال : دافع عن دينك تصلح عاقبتك .

(١) أي جعل ملكه في خدمة الدين

(٢) المراد بالسنة هنا الطريقة الصحيحة .

وقال : صَيَّرَ دُنْيَاكَ وَقَايَةَ لِآخِرَتِكَ ، وَلَا تُصَيِّرَنَّ آخِرَتَكَ وَقَايَةً لِدُنْيَاكَ .

فِي أَمْثَالِهَا كَثِيرَةٌ ، وَأَشْبَاهُ عِدَّةٍ مِنْ أَخْبَارِ الْمُلُوكِ الْمَخْصُوصِينَ بِالْفَضَائِلِ ،
وَالْمُتَجَنِّبِينَ لِلرِّذَائِلِ . وَكَفَى بِمَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى مَا قَصَدْنَاهُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ عَلَى
تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ ، إِنَّهُ وَلِيُّهُ وَمُسْتَحَقُّهُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

البَابُ الرَّابِعُ

في المواعظ التي تبصر غرور الدنيا وتنفع مهتظر فيها
واستمع لها ، وتهديه الى العدل في ملكه

قال الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ ^{هــدي} ^{القرآن} ^{والسنة} الْمُؤْمِنِينَ ^(١) ۝ وَاقَالَ : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ^(٢) ۝ وَاقَالَ : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ^(٣) ۝ ، وَاقَالَ : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ^(٤) ۝ .

وكان النبي ﷺ يتخوّل أصحابه بالموعظة ، فالوعظ والتذكير فريضتان واجبتان ، وسنتان ماضيتان على أهلها بكتاب الله - جل وعز - وسنة رسول الله ﷺ وقد أمر الله الموعوظين بالاستماع لها والإصغاء إليها ، فليس أحد وإن جلّ خطره وعظم قدره ممن يجب أن يترفع عن استماع الموعظة وقبول النصيحة ، لأنه إذا فعل ذلك فاز بقسطه الأوفر وحظّة الأجل ؛ واستحق من الله البشري في العاجل ، والثواب في الآجل ، ومن عقلاء خلقه الثناء والمدح والإكرام والدعاء ، فإن الله - عز ذكره - يقول : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ^(٥) . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

(١) آية ٥٥ الذاريات .

(٢) آية ١٢٥ النحل .

(٣) آية د إبراهيم .

(٤) آية ١٧ النور .

(٥) آية ١٧ الزمر .

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١﴾ . ثم قال : ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم
أولو الألباب ﴾ (٢) .

فيجب على الملك الفاضل والسائس الكامل الذي ربما أنفق الأموال وعمل
الأعمال ليمدحه به مخلوق جاهل ، أو شاعر كاذب ، أو ماجن مترخص ، أن
يرغب في هذه المنزلة التي يمدحه بها رب العالمين ثم فضلاء المسلمين ، وإن الله -
جل ذكره - جعل الخير في الاعتبار والاعتبار بالتفكير ، وحث عليه في غير موضع
من كتابه فقال : ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات
والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ (٣) . وقال : ﴿ الذين
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق
السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فإنا عذاب
النار ﴾ (٤) .

عظة
بالغة
فمن قريب ما يجب أن يفكر فيه ويتدبره أن يتذكر أحوال القرون الماضية
والملوك الأوّلين الذين كانوا أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً ، وأبين آثاراً وأطول أعماراً ،
الذين بنوا المدائن وجمعوا الخزائن ، وحفروا الأنهار وعمروا الديار ، وشيدوا
القصور ودبروا الأمور ، وجمعوا الجموع وقادوا الجيوش وساقوا الخيول ، ودوّخوا
البلاد وأذلوا العباد ، ومشوا في الأرض مرحاً ، واختالوا بما أوتوا فرحاً ، فأخذهم
الله بما كانوا يكسبون ، فأصبحوا بعد العز والمنعة والمُلْك والرفعة والصوت
والسطوة والذكر والصولة عظاماً رمياً ورُفَاتاً هشياً ، وأصبحت منازلهم خاوية ،
وقصورهم خالية ، وأجسادهم بالية وأصواتهم هادئة ، تُنبئك آثارهم معاناة ،
وتقرّع أسماعك أخبارهم مجاهرة ، فلم يصحبهم من الدنيا ما جمعوا ولم يدفع
عنهم الردى ما كسبوا . ولعلهم ندموا حيث لم تنفعهم الندامة وتلهّفوا حيث لا

(١) آية ١٨ الزمر .

(٢) آية ٨ الروم .

(٣) آية ١٩١ آل عمران .

يُغْنِي عَنْهُمْ التَّلَهْفُ . وَإِنَّ الْبَاقِيَ عَمَّا قَلِيلٍ كَالْفَاني ، وَالْغَابِرُ عَنْ قَرِيبٍ كَالْمَاضِي ،
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنْفَاسٌ مَعْلُومَةٌ ، وَأَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ ، سَرِيعَةُ الْانْقِضَاءِ ، قَرِيبَةُ الْانْتِهَاءِ .

الحذر من سوء العاقبة
فليحذر المغتر بملكه والممتع بعزه هذه الصرعة ، وليستعد لهذه الوجبة ،
وليتنبه لهذه الموعظة فإن الله جعلها في أوائل مواعظه وكررها في مواضع من كتابه
حيث يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

وعَدَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فِي كِتَابِهِ وَوَصَّنَهُمْ وَسَيَّأَهُمْ فِي خُطَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ أَلَمْ
تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ
وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي
الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ
لِبِالْمُرْصَادِ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَعَادًا وَتُمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا
وَكَلَّا ضَهْرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَتَّبِعُوا ﴾ (٣) .

هذا خبر صدق وقول حق ، وقد جعل الله بكل ما [شوهد] في أيامه
[وعُوين] في زمانه ممن رفعهم الدهر ثم وضعهم ، وأعلاهم ثم صرعههم ،
ودارت عليهم دوائره ، ونابتهم نوائبه ما في بعضه مقنع لمعتبر ، وبلاغ لمذكر .

قالوا : وأشرف أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ على أهل حمص ،
فقال : يا أهل حمص أتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتجمعون ما

(١) آية ٩ الروم .

(٢) آية ٦ - ١٤ الفجر .

(٣) آية ٣٨ - ٣٩ الفرقان .

لا تأكلون . إن من كان قبلكم بنوا شديداً وأملوا بعيداً ، وجمعوا كثيراً فأصبحت اليوم مساكنهم قبوراً ، وأملهم غروراً وجمعهم بُوراً .

وقد قال بعض فصحاء الملوك في خطبته : ألم تروا مصارع من كان قبلكم كيف استدرجتهم بزخرفها ونفتهم ثم تركتهم وقد تخلت عنهم ، فهم في حيرة مطلخمة^(١) ، وظلمة مدلهمة ، تركوا الأهلين والأموال والأولاد والعيال ، فمساكنهم القبور وقد خلت منهم الدور ، وتقطعت منهم الأوصال والصدور ، وصاروا تراباً بالياً ، وكان الله لهم ناهياً ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ^(٢) ﴾ .

عظات
من
الشعر

ولقد أحسن في هذا المعنى لبيد في قصيدته الحكيمة حيث يقول :

فقلوا له إن كان يعقل أمره ألماً يعظك الدهر أمك هابل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقياً ودون معد فلتزعك العواذل

وقال في هذا المعنى الذي تضمنه هذا الباب صالح بن عبد القدوس :

كم رأينا من أبلج ذي عتو لم تهبه المنون وهو مهيب
بينما يتنى المدائن والأو طان إذ باكرته الخطوب
فتردي ولم تجبه جنود أحصروا حصراً لأمر ينوب
بل حكت فوقه التراب ولم تص رف رداه إذ يهيف المكروب
وينادونه وقد صم عنهم ثم قالوا وللنساء نحيب

(١) مطلخمة : اطلخم الليل والسحاب : اظلم وتراكم واشتد .

(٢) آية ٦ فاطر .

ما الذي عاق أن تحير جواباً
إن تكن لا تطيق رجّع جواب
أيها المَقُولُ الأديبُ الأريبُ
فلقدما تُرى وأنت خطيبُ
ذو عظاتٍ وما وعظت بقولٍ
مثل وعظ بالصمت إذ لا تحيبُ

وقال :

فإن أملت أن تبقى فسائلُ
وأين ذوو المعالي والمساعي
بما أفنى القرون الخالياتِ
بنو الأحرارِ أهل المآثراتِ
وأين ثوتُ ملوك الروم واسأل
بحمير في الدهور الماضيةِ
وأين ملوكنا من عبد شمسٍ
ولاءُ منابرٍ وبنو ولأه
وأين الراتقون لكل فتقٍ
وأين الموسعون ذوو الجِداتِ^(١) .

وكتب أرسطا طاليس إلى الاسكندر : اعتبر بمن مضى قبلك ، ولا تكن عبرة
لمن بعدك ، لا تمدّ أملك الى ما ينفد فذلك الطمع الكاذب ، وانظر إلى حال
نظرائك ممن سلف فيه ، واعلم أن حكمك فيه كحكمهم .

(١) الجِدات : جمع جِدة وهي الاستغناء بالمال ، فعلها وجد .

الفصل الأول

في المَوَاعِظِ

الله يهمل
ولا يهمل

ثم لا ينبغي للملك الممتّع بطول المدة في ملكه والمنفس له في عمره والسالم من نوائب زمانه ، والمظفر على أعدائه في أيامه ، والمدرك منها كثيراً من أمانيه وآماله ، أن يغترّ بمساعدة الدولة له ومواتاة الدهر إياه ، وينسى لطول الإهمال والإملاء حوادث الزمان ، وبَعَثَاتِ تَغْيِيرِ الأيام ، حتى يغمض عينه عن ملاحظة العير ، ويغفل عن مراقبة الغير . فإن ذلك ربما يكون من أعظم حجج الله عليه وأبلغ محنه له .

وقد ذكر الله ذلك كله في كتابه [إذ] يقول : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ ﴾^(١) .

ويقول في قوم من الكفار : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ ﴾^(٢) .

وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيثها الريح تصرعها مرة وتعدّلها أخرى حتى تهيج ومثل الكافر مثل الأرزة [المجذية على أصلها لا يفيثها شيء] حتى يكون انجعافها مرة واحدة »^(٣) .

(١) آية ٣٧ فاطر .

(٢) آية ١٧٨ آل عمران .

(٣) رواه مسلم ، انظر مختصر صحيح مسلم رقم ٢٨ .
ومعنى الخامة : القصبة اللينة . تفيثها : تقلبها يمينا ويساراً .
المجذية : المنتصبية . انجعافها : اقتلاعها .

وليعلم أن البقاء منها الى فناء ، والظعن منها إلى ارتحال ، والصحة الى سقم ، والسلامة والعافية إلى بلاء ومرض ، والسرور مشوبٌ بالحزن ، والصفو بمازج بالكدر ، وإن كان كثير من الناس - لعشقه لما يهواه وولوعه بما يتمناه منها - يرى صفوها ولا يرى كدرها ، ويبصر سرورها ويعمي عن شرورها ، ويجد طعم ملاذها ولا يحسُّ بآلامها كالمسموم الذي يجد حلاوة العسل ولا يشعر بمرارة السم فيكون من حلاوته هلاكه . وقدما ما قيل : حُبُّك الشيء يُعمي ويُصِمُّ .

ثم ليعلم أن بلوغ الأمانى وإدراك أطراف الآمال واستقامة الأحوال التي هي غاية طلبته ونهاية أمنيته ، سُمُّ قاتلٌ وسيفٌ مستأصل وإيدانٌ بالإدبار وقربُ البوار . وقد بينَّ الله ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ حتى إذا أخذت الأرضُ زُخْرُفَها وازْيَنْتَ وُظُنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادرونَ عليها أَتَها أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ^(١) ﴾ . وقال في قصة قارون : ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إنْ مَفاتِحَهِ لَتَنُوَّ بِالْعَصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قال لَهُ قومُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ^(٢) ﴾ .

ثم حكى عز وجل - أنه قال ﴿ إِنما أوتيته على عِلْمٍ عندي أو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ^(٣) ﴾ . ثم قال جل وعز - ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ^(٤) ﴾ . وقال : ﴿ حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أَخَذْناهم بَغْتَةً ^(٥) ﴾ .

(١) آية ٢٤ يونس .

(٢) آية ٧٦ - ٧٧ القصص .

(٣) آية ٧٨ القصص .

(٤) آية ٨١ القصص .

(٥) آية ٤٤ الأنعام .

وقال أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - : كم من مُستَدْرِجٍ بالاحسان ،
وكم من مغرور بالستر عليه ، وكم مفتون بحسن القول فيه ، ما ابتلى الله أحداً
بمثل الإملاء له لأنّ الله يقول : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ
خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ ﴾^(١) .

الأمير
ينقص
بتمامه
وقد عرف ذلك الحكماء وذكره الشعراء فقال بعضهم - وسئل عن حاله - :
كيف حال من يفنى ببقائه ويسقم بسلامته ويؤتى من مأمته ؟ ! . وقالت العرب :
مين مأمته يؤتى الخذر .

وقديماً ما قالوا : ما استجمع لأحدٍ أمله إلاّ أسرع في تفريقه أجله . وقيل :
يا ابن آدم لو رأيت الأجل ومسيره بغضت الأمل وغروره .

وقد ذكر كثيراً من هذه المعاني أردشير في أوّل فصل من عهده حيث قال : إنّ
صُنْعَ الملوك غير صُنْعِ الرعيّة ، فالملك بطبعه العز والامن والسرور والقدرة على
طبائع الأئمة ، والجرأة والبطر والعبث . ثم إنه كلما ازداد في العمر تنفّساً ، وفي
الملّك سلامة زاده في هذه الطبائع الأربع حتى يسلمه إلى سكر السلطان الذي هو
أشد من سكر الشراب ، فينسى النكبات والعثرات والغير والدوائر وفحش تسلّط
سلطان الأيام ، ولوم غلبة الدهر ، فيرسل يده ولسانه بالفعل والقول .

قال : وقد قال الأوّلون منا : عند حُسْنِ الظن بالأيام تحدث الغيّر . وقال :
وقد كان من أولئك القوم من يذكره عزّه الذلّ ، وأمنه الخوف ، وسروره الكآبة ،
وقدرته العجز ، فإذا هو جمع بهجة الملّك وفكرة السوقة ، ولا حزم إلاّ في جمعها .

وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

إذا تَمَّ أمرٌ بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تَمَّ

(١) آية ١٧٨ آل عمران .

حياتك بالهم ممزوجة فلا تقطع العيش إلا بهم
أطياب دُنياك مسمومة فلا تأكل الشهد إلا بسم

وقال آخر :

أرى بصري قد رابسي بعد كبرة وحسبك داء أن تصح وتسلم

وقال آخر :

أرى صاحب الدنيا وإن طال عُمره ونال من الدنيا سروراً وأنعمها
كبان بني بُنيانه فأتمه فلما استوى ما قد بناه تهدماً

قال : وكتب الأسكندر إلى أرسطاطاليس بعدما نفذت يده في المشرق
والمغرب ، وبلغ من الملك ما لم يبلغه قبله أحد : اكتب إلي بموعظة موجزة تردع
وتنفع ، فكتب إليه : إذا استوت بك السلامة فجدد ذكر العطب ، وإذا هنأتك
العافية فحدث نفسك بالبلاء ، وإذا اطمأن بك الأمر فاستشعر الخوف ، فإذا
بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها في الاساءة
نصيياً .

قال ووعظ بعض الحكماء ملكاً فقال : أيها الملك إن الدنيا دار عمل ،
والآخرة دار ثواب ، ومن لم يقدم لم يجد ، فمر نفسك حلاوة عيشها بترك الإشارة
إليها ، واعلم أن زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب ،
وباب الأمن مستور بالخوف ، فلا تكونن في حال من هذه النكت غير متوقع
لأضدادها ، ولا تجعل نفسك غرضاً لسهام الهلكة ، فإن الزمان عدو ابن آدم ،
فاحترز من عدوك بعناية الاستعداد ، فإذا فعلت ذلك استغنيت عن الوعظ .

قالوا : وكتب سليمان بن داود - عليها السلام - على كرسيه إذا صحت

السلامة نزل البلاء ، وإذا تَمَّت العافية نَجَمَ العطبُ ، وإذا ظهر الأمن علا
الخوف .

وقال بعض من عرف هذه الدار :

ما أعجبَ الدهرَ في تصرُّفه ونَقَلَ سلطانه ودولته
من كان يدري أن النعيم إلى بؤس رأى الهمَّ في مسرَّته
وقال آخر :

يريد الفتى طولَ السلامة جاهاً فكيف يرى طولَ السلامة يفعلُ
وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامرٍ فالأنها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربي بالسلامة جاهاً ليُصِحَّني فإذا السلامة داءُ

الفصل الثاني

وليُعلم المنهمكُ في لذائذه ، والحريص على نيل شهواته ، والمفتون بآماله ^{خسة} وأُمْنِيَّاته أنه لا ينال منها شيئاً إلاّ بثلاثة أشياء : ^{الشهرة}

الأول - أنه يَفْنَى فيه أيامه المحدودة التي هي أعظم الأشياء عنده خطراً ، وأجلّها لديه قدراً ، وأعزّها فقداً ، والذي كل فائت سواء مستخلف ، وكل ذاهب بعده مرجع .

والثاني - أنه يَقْرَب به من أجله ووقت وفاته ، [وهو] هادم لذاته ومنغص شهواته وقاطع أُمْنِيَّاته .

والثالث - أنه يُشْغِل ويعطل بطلبه إِيَّاه وسعْيَه له حظاً من الآخرة التي هي دار قزاره ومجْتَنِي ثمرات أعماله ، فإذا فَكَّر في قدر ما يناله من حيث ما يفوته لم يَزِدْه قدراً ، ولم يتبين له خطراً ، وعلى حسب ذلك يجب أن تكون رغبته فيه وميله إليه وَكَلْفُهُ به .

وفي بعض ذلك ما يقول الشاعر :

ما نِلْتُ شيئاً من الدنيا تُسَرُّ به إلاّ وأنت به تدنو من الأجل

وقال الحسن البصري : إنما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، يا ابن آدم ، إنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أُمِّك وقد قال رسول الله

« ما من ساعة تمر على ابن آدم لا يذكر الله فيها إلا كانت حسرة عليه يوم القيامة » .

واستحسن من الحجاج كلامه على المنبر « إن امرأ ذهب من عمره ساعة في غير ما خلق له لخلق أن تتناول عليه حسرته » .

وقال آخر في الضنّ بالأيام والساعات :

شاع فيّ الفناء سفلاً وعلواً وأراني أموتُ عُضواً فعُضوا
ليس من ساعة مضت بي إلا نقصتني برّها بي جزءاً
وقال آخر في هذا المعنى :

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومها وحولٌ إلى حولٍ وشهرٌ إلى شهرٍ
مطايا يُقرَّبُ الصّحيح من البلى ويُدْنى أشلاء الكريم من القبر
ويتركُن أزواج الغيور لغيره ويقسمُن ما يحوي الشحيح من الوفر

الفصل الثالث

وليعلم المتكبر المختال بما ينال فيها من الغرور والمقدرة والأموال والبسطة آفة الكبير والملك والرفعة ، المعجب بما أوتى من العدد والعدة والمتعة والقوة ، أنه وإن كان عزيزاً بالاضافة الى غيره ممن تحت يده ، وغنياً بعواري القيّات عند فقراء رعيته ، قادراً بالاضافة إلى ضعف حاشيته ، فإنه في نفسه وبلاضافة إلى القادر عليه ذليل فقير ضعيف مهين . وكيف لا يكون كذلك وهو ممن تؤذيه البراغيث والذباب والبعوض والديدان وكثير من الهوام ، فلا يمتنع بقوته منها ، ولا ينتصف من كثير منها .

ثم إنه إذا نظر إلى كبار خلق الله من سماواته وأرضيه وجباله وبحاره ومائه وناره ، لم ير لجسمه الصغير الضعيف في جنبه مقداراً ، ورأى صغره عنها عياناً جهاراً ، وإذا ذكر حالته في بدئه وانقضائه وأوله وآخره ، وجد أوله نطفة قدرة وآخره تربة ومدرة ، وهو فيما بين الحالتين وعاء لأنثن الأنتان وأقدر الأقدار .

ثم إن فكّر في عاقبة أمره ومرجع شأنه ، وجد جسمه الذي ربّه طعاماً لأضعف الحيوان وأوهن الدواب من الحشرات والديدان .

ثم إن فكّر في ضعف جسمه وقلّة حيلته وصغر قدره إذا أوجعه بعض في الموت واعظ أعضائه ، وضرب عليه بعض أجزائه الدالة بضعف تركيبها على سرعة الانحلال ، ورأى أنه لا يدفع عنه جنوده ، ولا تغني خيوله وحصونه ، فكيف إذا جاء ما لا بد منه وقد تفاقم داؤه ، وعزّ دواؤه واشتد قلقه وضاق نفسه وعرق جبينه واشتد أنينه ، وغارت عيناه وتقلّصت شفتاه وارتعدت فرائصه وكلّت جوارحه ، وعاین سكرات

الموت وحسرات الفؤت . وأيقن بترك ما جمع وأوعى ، والخروج مما شيد وبنى ، وبفراق من عشق وأحب ، وعاین آثار ما عجل واكتسب ، وودّ أنه كان أضعف خلق الله وأفقرهم وأقلهم وأخلمهم ، ثم عمل بطاعة الله واجتنب معصيته .

فمن لم يشاهد ذلك من نفسه فقد شاهدته من غيره ، وعلم أنه لا محالة إليه مصيره ومثقله ، وما بعده أمرٌ وأدهى وأشد وأبقى .

ثم ليذكر مقدار الأرض التي هو يملك بعضها في خلق الله من أفلاكه ونجومه وسماواته ، ثم مقدار مملكته ورعيته من الأرض ومن فيها ، ثم مقداره من رعيته ، فإنه إذا فكّر فيه بانّت له قِلته ، وعلم أنها من صغار الهمم والأقدار ، وأقل السلع ، حيث لم تسمُ هيّته إلا إلى إدراك مملكته القليلة المقدار ، الضيقة الرقعة في جنب الملك الكلي والعز الأبدي .

فإذا عرف ذلك من نفسه فعلى حسبه يكون تكبره وتجبّره وخيلاؤه .

وليعلم أنه لا يتكبر أحد ولا يختال لسلطان يناله إلا جاهل بمقداره ، قليل المعرفة بنفسه ، قصير المهمة صغيرها ، إذ كان يرى أن سلطانه فوق قدره ، ونفسه دون ملكه .

ثم لو بعدت هيّته وأيقنت معرفته لما رضي بالفاني عن الباقي بدلاً ، وبالدينا عن الآخرة عوضاً .

وقد قال بعض الحكماء : لم يتكبر أحد إلا لصغر قدره ، ودناءة نفسه . وقد قال ذلك عمرو بن عبّيد حين قيل له : أقنعت من الدنيا بخبز شعير ؟ فقال : أقنع مني من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة .

وقيل للعتابي : فلان بعيد المهمة ، قال إذاً لا غاية له إلا الجنة .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر : إياك والعجب فإنه يفسد كبير الفضل .

الفصل الرابع

وليدكر المليك الفاضل إذا انبسط أمله وازدحمت أمانيه أن عمرة في هذه الدار - كبح
وإن طالت أيامه وتتابع أعوامه - ثلاثة أيام : فيوم منقضى بما فيه لا يعود أبداً ، النفس
ويوم منتظر ليس في يده منه إلا آماله وأمانيه ، ويوم هو فيه قد آذنه بالرحيل عنه - الشهوات
سريعاً ، لا يبقى عليه بؤسه ، ولا يلبث له نعيمه حتى يصير يومه أمسه ، وغده
يومه . وإن شاء جعله ساعات فإنه يجتهد على هذه السبيل فلا يطولن عليه الأمد ،
ولا يهولته الصبر عن شهوة مخلقة للعرض مفسدة للمروءة مكسيه للمدمة ، موجبة
للعقوبة . فإنما هو صبر يوم واحد من عمره ، أو ساعة من يومه ، إن صبر فيها عن
شهوة فاحشة أصلح بها حياته الأبدية الدائمة ، وإن ارتكب فيها محرماً أفسدها .

فلينظر في مقدار يومه وساعته من مقدار الأبد والحياة السرمدة ، وفي الشهوة
المنقضية في نيل الشهوات الدائمة ، قرب شهوة ساعة قد أورثت حزناً طويلاً .

قال الله - جل وعز - في هذا المعنى : ﴿ وما أمروا الساعة إلا كلمح
البصر أو هو أقرب ﴾ (١) . وقال ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ (٢) .

وقال الرسول ﷺ : « إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب سار في يوم صائف
فقال تحت شجرة ساعة ثم سار وتركها » (٣) .

(١) آية ٧٧ النحل .

(٢) آية ٦ - ٧ المعارج .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه في الزهد .

وقال : « ما الدنيا في الآخرة إلا كرجل أدخل أصبعه في البحر^(١) فلينظر بماذا ترجع اليه » وقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك في أهل القبور » .

وقال فيه بعض الشعراء :

هو السبيل فمن يوم الى يوم كأنه ما تُريك العين في النوم
لا تعجلن رؤيها دُولاً دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وقال لبّيد :

فأضحى كأحلام النيام نعيمهم وأيّ نعيم خيلته لا يزایل
وفي التزهيد عن الشهوات ما قال بعض الحكماء . العبيد ثلاثة : عبد
الرّق ، عبد البدر^(٢) ، وعبد الشهوة وهو شرهم حالة وأذمّهم عاقبة .

وقد قال بعض حكماء الفرس لبعض ملوكها : أما استحسننت من العقل أن
تبدل اسم الكرم لؤماً ، واسم الحر عبداً ؟ ألسنت تعلم أن اسم العبودية واللؤم إنما
يقع على الشهوات لأن صاحبها مُستعبدٌ أبداً مجرور مسحوب ، والعقل كريم ؟ أو
ما رضيت حتى جعلت الكريم للثيم مركباً ، والحرّ للعبد عبداً ، وسميت حرّاً
كريمّاً ، وسميت عاقلاً ليبيّاً ، جعلت عقلك لشهواتك عبداً ، ورأيك لهواك
مركباً ؟

وقال بعض الزهاد : إن الصبر والتقوى صيراً العبيد ملوكاً ، والحرص
والشهوة صيراً الملوك عبيداً^(٣) .

(١) رواه مسلم في الجنة .

(٢) البدر : جمع بدرة وهي المبلغ العظيم من المال .

(٣) قيل إن زليخا امرأة العزيز قالت هذه العبارة عندما رأت يوسف عليه السلام وقد ارتفع شأنه وصار
على خزائن الأرض .

وقال بعض الشعراء :

هواك - فلا تكذبُ - عليك أميرُ وأنت رهينُ في يديه أسيرُ
يسومُك عِصيانا وأنت تطيعه وطاعته عارُ عليك كبيرُ

وقال آخر :

كم أسيرُ لشهوةٍ وقتيلُ أفُ للمشتهى خلاف الجميل
شهوات الإنسان تكسبه الذُّ لٌ وتُلقيه في البلاء الطويل

الفصل الخامس

وليدكر المنهمك في شهواته ، والمستهتر بلذاته أنه لا يعشق شيئاً من الدنيا اللذات ويهواه ، ويشتهيه ويتمناه ، إلا وهو إذا ناله وظفر به مَلَّه وسئمه وكره عن قريب زائلة قُربه ، حتى يلفظه لفظ المرار ، ويمجّه مجّ الأجاج ، ويمله ملال البغيض .

ثم إنه لا ينال شيئاً يشتهيه إلا بكثير مما لا يشتهيه ، فلا ينال الملك إلا بالخدمة الطويلة والرياضة الصعبة الشديدة ، والمخاطرة العظيمة والأشغال الكثيرة والآمال البعيدة التي ربما أتت دونها المنية .

وإذا كان هذا هكذا فترك الطلب لشهوات الدنيا بما يفوت به الدين أولى بالملك العاقل ، وأشبه بأفعال الخازم الكامل ، سيما إذا كان فيها مرتكباً إنما وعاراً يدحض الدين ويبقي قبح الأحداث ، أو راغباً في لذة حيوانية تشاركه فيها البهائم المبهمة والسباع الضارية والكلاب العاوية ، وضعاف الحيوان من الهوام والخرشة^(١) ، لأن الصبر عن المحبوب والنجاة من المكروه كالكفر بالمحبوب والوقوع في المكروه سواء لا تفاوت بينهما .

هذا وربما كانت المكارة فيما يظنه محاباً ، والفساد فيما يحسبه صلاحاً ، والهلاك فيما يتوهمه نجاة . فقد يجمع الملك الجنود ليكونوا له عُدّة على أعدائه ، وجنّة عند لقائه ، فيكون فيهم هلاكه ، ويكسب الحريص ما لا ليريجّه من تعب

(١) الخرشة : الذباب ، مفرد وجمع .

الفقر ونَصَب الحاجة فتكثر به حاجاته ويزداد تعبهُ ، ويربى الوالد الولد ليكون له عَصْداً وعلى أعدائه يداً ، وربما كان أعدى أعدائه وشرّ منابذيه عليه .

فحقيق بالملك إذا بَصُرَ بالدنيا على هذه الصورة ، وعلم أن داءه فيها من دوائه ، ومكروهه في محبوبه ، وعدوه من صديقه ، أن يجعل سعيه فيها تزوداً إلى غيرها ، وقصداً إلى سواها .

وقد عرف ذلك مَنْ قال فيها :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكشَّفَتْ له عن عدوٍّ في ثياب صديق
وقد قال الحسن البصري في صفة الدنيا : فاصبحت كالعروس المجلوة ،
فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب بها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهي لأزواجها
كلهم قاتلة .

وقد كتب الحكيم إلى الاسكندر : ما رغبْتُك في شيء لو كان محموداً لما كان في
الدواب منه أكثرُ مما فيك ، وهو أقوى عليك فما الفخر فيه والدوابُّ أكثر فيه منك ؟
وهو يهلك العمر وينقص البدن ويفسد السنّة . قال : وقد ينازع النفس منازع
شديد المؤنة وهو النهمة ، والنهمة تنتج الندامة ، والندامة تنتج الدناءة والدناءة تنتج
سقوط النفس ، وسقوط النفس ينتج الميل إلى المحقرات ، والميل إلى المحقرات يهلك
كل فضيلة ، ومن هذه الآفة تحدث الأوجاع العجيبة والأمور المفسدة والفجور ،
وما أشبه ذلك .

الفصل السادس

وليعلم الملوك المتدينين بدين الحق ، والمعتزُّ بملة الإسلام أن الله إنما استرعاه النعمة عبادَه ، واستعمره ببلاده ، ومن بأنواع نِعَمِهِ عليه وصنوف أياديه لديه ، محنة له ابتلاء . وقد بين الله ذلك في كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل حيث قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(١) ﴾ . وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ^(٢) ﴾ . وقال : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ^(٣) ﴾ .

وقال النبي ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فنأظر كيف تعملون ^(٤) » .

وأنه سائله عما استرعاه ، ومحاسبه فيما استحفظه وآتاه على مثاقيل الدر وموازن الخردل ، كما بين ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ^(٥) ﴾ . وقال : ﴿ وَلْتَسألُنَّ عَمَّا كَتَبْنَاهُمْ ^(٦) ﴾ . سؤال متفرد ومحاسبة مفرع ، لا سؤال مستفهم يحتمل التغير ، ولا محاسبة مستعلم يجوز عليه التلبس .

(١) آية ٢ الملوك

(٢) آية ٣١ محمد .

(٣) آية ٣٥ الأنبياء

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده

(٥) آية ٤٧ الأنبياء .

(٦) آية ٩٣ النحل .

ثم هو محتج عليه بما آتاه من صنوف نِعَمه ، وقسم له من جزيل قسمه ، وما سخر له من عباده ، ومهد له في بلاده ، وملّكه من أمواله وخزائنه .

كل مسئول
عن عمله
ثم هو محتج عليه بما أقام في خلقه من الدلائل على حكمته ، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى .

ثم هو محتج عليه بكتابه الذي أنزله وأمره باتباعه في فرائضه وأحكامه ، وبرسوله الذي أرسل وأمره بالاعتداء به في سيرته وآثاره .

ثم هو سائله عن كل ما أمره به من إصلاح نفسه وإقامتها على طاعته وأوامره وفرائضه .

ثم سائله عن خاصته الذين أمره بتأديبهم وتقويمهم والاستعانة بهم على تنفيذ أموره وإمضاء أحكامه وإقامة حدوده وأعلامه .

ثم عن عباده الذين استرعاه إياهم ، حتى عن آخر عبد وأمة في أقصى مملكته وأدناها ، وأسفلها وأعلاها ، وأنه لا ينجيه منها إلا الصدق ، ولا يرضيه إلا الحق .

ومن وراء الحساب والسؤال فوز عظيم ، أو عذاب أليم ، فوز لمن بطاعته عمل في نفسه والعدل في عباده ، والحق في بلاده ، وأداء الأمانة في أمواله ، وعذاب على من عمِل بمعاصيه وارتكب مناهيه .

خبر من الله - جلّ ذكره - حق ، وقول صدق ، حيث يقول : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ^(١) ﴾ . وقال : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ^(٢) ﴾ . وقال :

(١) آية ١١١ النحل .

(٢) آية ٨ التكاثر .

﴿ رُسُلًا مَبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ ﴾ . وقال : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويدها مغلولتان ، أنجاه عدله ، وأهلكه جوره .

ثم قال الله في تقسيم العاصين والمطيعين : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۚ ﴾ . وقال : ﴿ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ۚ ﴾ . فهم في عذاب دائم ، وألم غير منصرم ، إن بكوا لم يُرحموا ، وإن صبروا لم يُؤجروا ، وإن استغاثوا لم يغيثوا . ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ . إن سألوا الرجعة ليعملوا صالحاً قيل لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ۚ ﴾ .

ثم يقول الله محتجاً عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ۚ ﴾ .

وإن أفتدوا لم يقبل منهم ، يقول الله - عز وجل - : ﴿ يَوَدُّ الْمَجْرِمُ لو يفتلدي من عذاب يومئذٍ بئس به . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه .

(١) آية ١٦٥ النساء .

(٢) آية ١٤ القيامة .

(٣) آية ٣٧ - ٤١ النزاعات .

(٤) آية ١٠٥ - ١٠٧ هود .

(٥) آية ٣٦ فاطر .

(٦) آية ١٠٨ المؤمنون .

(٧) آية ٣٧ فاطر .

ومن في الأرض جميعاً ثم يُنْجِيهِ . كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى ^(١) .

ويقول : ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقْبَلْ مِنْهُمْ ولهم عذابٌ أليمٌ ^(٢) ﴾ . ويقول : ﴿ وأما الذين سُعِدُوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرضُ إلا ما شاء ربُّك عطاء غير مجدوذ ^(٣) ﴾ .

وقد وصف الله نعيمهم مجملًا فقال : ﴿ لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيدٌ ^(٤) ﴾ . وقال : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون ^(٥) ﴾ . وقال : ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ^(٦) ﴾ . وقال : ﴿ لا يروْنَ فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانيةٌ عليهم ظلالُها وذلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ^(٧) ﴾ . وقال : ﴿ وحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جزاءٌ بما كانوا يَعْمَلُونَ ^(٨) ﴾ . وقال : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ^(٩) ﴾ . وقال : ﴿ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين . لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وما هم منها بمُخْرَجِينَ ^(١٠) ﴾ . وقال : ﴿ لا يَمَسُّنا فِيهَا نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها الْغُوبُ ^(١١) ﴾ . وقال : ﴿ يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ^(١٢) ﴾ .

(١) آية ١١ - ١٥ المعارج .

(٢) آية ٣٦ المائدة .

(٣) آية ١٠٨ هود :

(٤) آية ٣٥ ق .

(٥) آية ٧١ الزخرف .

(٦) آية ٣١ النحل .

(٧) آية ١٣ - ١٤ الانسان .

(٨) آية ٢٢ - ٢٤ الواقعة .

(٩) آية ٢٤ الطور .

(١٠) آية ٤٧ - ٤٨ الحجر .

(١١) آية ٣٥ فاطر .

(١٢) آية ٦٨ الزخرف .

وقال الرسول ﷺ : قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا
أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر* . في آي وآثار من مثلها كثيرة .

الحكام قسان
ثم قسم الله الأئمة قسمين ، فقال في بعضهم : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينجسون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾^(١) . وقال في آخرين : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ .

فلينظر الملك المتدين إلى أي الإمامين هو؟ ومن أي الفريقين يعد نفسه ؟ فقد قال النبي ﷺ : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وقال : « الكيس من دان نفسه وعمل بما يرضي الله » .

فإن الله - جلّ وعز - أبى أن يجعل العاصين له كالمطيعين ، والمصلحين كالمفسدين ، عقلاً وخبراً ، فقال في محكم كتابه : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾^(٢) . وقال : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾^(٣) . ثم قال : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾^(٤) . وقال : ﴿ أفنجعل المسلمين

* رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه واحمد والدارمي .

(١) آية ٤١ - ٤٢ القصص .

(٢) آية ٢٤ السجدة .

(٣) آية ٢١ الجاثية .

(٤) آية ٢٨ ص

(٥) آية ٢٩ ص

كالمجرمين . مالكم كيف تحكُمون^(١) ﴿ . فليأتمر عبدُ بأمر الله في تدبُّر هذه الآيات وليصدِّق بها إذا عرف حقها ، ولا يقل العبد إنني أصر على المعاصي وأتمنى على الله الأمانى وأرجو رحمة الله ، فإن الله جعل رحمته للمؤمنين المحسنين ، فقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ^(٢) ﴾ .

وأعدَّ مغفرته للأوابين التوابين فقال حاكياً عن ملائكته وحمله عرشه ﴿ رَبُّنَا وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ^(٣) ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُوراً^(٤) ﴾ . وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ^(٥) ﴾ . وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَٰئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٦) ﴾ . وقال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(٧) ﴾ . ثم قال : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ^(٨) ﴾ .

أو يقول العبد أرجو الرحمة مع المعصية ، والمغفرة بلا توبة ، قال الله - جلَّ

(١) آية ٣٥ - ٣٦ القلم .

(٢) آية ٥٦ الأعراف .

(٣) آية ٧ غافر .

(٤) آية ٢٥ الأسراء .

(٥) آية ٢٥ الشوري .

(٦) آية ١٣٥ - ١٣٦ آل عمران .

(٧) آية ٥٣ الزمر .

(٨) آية ٥٤ الزمر .

وعز - ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(١) .

وقد شاهدَ الملكُ خلافَ ما أمله في سياسته ، وصدّه في معاملته من تحت
يده ، فإنّ الرجاء من توابع الاحسان ، والخوف من توابع الاساءة ، فمن أساء في
فِعْله كان الخوف أولى به من الرجاء ، فلا يطلبن شيئاً من غير وَجْهٍ فَيُحَرِّمَهُ ، ولا
يَضَعْنَهُ في غير موضعه فيضيع .

وليعلم الملك أنه لا بدّ له من المصير إلى حالة يتمنى - لوجازله التمني - أن
يعتاض يوماً واحداً يعمل فيه بطاعة الله - بجميع الدنيا ، ولو كانت بحذافيرها ،
وعسى أن يكون قريباً . فليغتنم من هبة الله الجلييلة في أيامه فإنما هي رأس ماله ،
وطلبُ الربح مع ضياع رأس المال متعذراً عسير .

فكفى بما قدّمناه من هذه المواعظ عظةً لمتّعظٍ ، وتذكرة لمن وفقه الله - تعالى -
بطاعته ، وعَصَمَهُ من معصيته .

(١) آية ٨٣ القصص .

البَابُ الْخَامِسُ

فِي سِيَاسَةِ النَّفْسِ وَرِيَاضَتِهَا

ومما يجب أن يُقدم في هذا الباب أننا لم نقصد في كتابنا هذا ما يعدّه كثير منهم أدباً في الجلسة واللبسة والركبة والطعمة والأثاث التي يتجمّلون بها فيما بينهم ، والزّي الذي يتزيّون به ، لأنهم بذلك أعلمُ منا ، وانهم قد أخذوا منها فوق ما يمكننا وصفه وشرّحه .

ثم قد ألّف لهم أتباعهم وأبناء الدنيا منهم كُتُباً كثيرة قديمة وحديثة في دونها كفاية عن هذه الأبواب ، ومندوحة عما يتكلّفه متكلّف من أهل هذا الزمان .

ولعل كثيراً مما فعلوه من ذلك ليست فيه فائدة في باب السياسة ، ولا جدوى على الراعي والرعية .

ولكننا أردنا أن نجعل كتابنا هذا كتاباً دينياً تُريهم فيه مصالح معادهم ومعاشهم ، ونظام ممالكهم وأحوالهم ، بكتاب الله رب العالمين ، وسنن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والملوك الأولين ، ونحذّرهم سوء المصراع ولؤم الميتة وقُبْح الأحداث ، واستحقاق العقوبة عاجلاً وآجلاً .

فنعول إنَّ أوّل ما يجب على الملك المعنيّ بأمور رعيّته المهتم بحماية حوزته ، وعمارّة بيضته تقوى الله ، فإنها أفضل ما تواصى به الفضلاء والعلماء ، وإنها عصمة لمن اعتصم بها ، وحِرْز لمن تمسك بها ، وملجأ لمن لجأ إليها ، وأمن لمن

المتقون
وجزاؤهم

استشعرها وجمال لمن لبسها ، وعز لمن اعتز بها ، ومهابة لمن استقبلها ، وسلاح لمن قاتل بها ، وذخر لمن اكتسبها ، وفضيلة لمن اقتناها .

وهي مع ذلك وصيته - جل وعز - إلى خلقه ، وأمره الملقى إليهم ، ووصيته إلى الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، والفضلاء من الملوك الماضين والحكام المتقدمين من أهل كل جيل وملة ، ودين ونحلة .

وقد تكفل الله لمتقيه بالفرج والخروج واليسر والنصر والرزق فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾^(١) . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾^(٢) . وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) . وقال : ﴿ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾^(٤) . وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾^(٥) .

وقد قال بعض شعراء الجاهلية في جاهليته وكفره :

يَسْرُ الْفَتَى مَا كَانَ قَدَمٌ مِنْ تُقَى إِذَا عَرَفَ الدَّاءَ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ
وقال الأعشى :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادَ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَلَّا تَكُونَ كَمِثْلِهِ وَأَنْتَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَا كَانَ أَرْصَدَا^(٦)

(١) آية ٢ - ٣ الطلاق .

(٢) آية ١٢٨ النحل .

(٣) آية ٣٦ التوبة .

(٤) آية ٧٢ مريم .

(٥) آية ٤ - ٥ الطلاق .

(٦) البيتان من قصيدته التي انشدها عندما قدم على النبي ﷺ فصدته قريش ، ومطلعها :
ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبست كما بات السليم مسهدا

وقال زهير بن أبي سلمى وهو جاهلي :

رأيتُ التَّقَى والبِرَّ خَيْرَ تجارةٍ وذُخْراً إذا ما المرءُ أصبحَ ناقلاً
وما هو إلا ما ابْتَنَى في حياته إذا قَدَمُوا يوماً عليه الجنادِلا
وقال آخر :

ألا كُلُّ مَنْ يَتَّقِي اللهَ مُعَوَّنٌ وإن الذي نال التَّقَى لسعيدٌ
وقال آخر :

ولستُ أرى السعادةَ جُمَعَ مالٌ ولكنَّ التَّقَى هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزادِ ذُخْراً وعند الله للأتقى مَزِيدُ
وما لا بُدَّ أن يأتي قريباً ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

قال أفلاطون : التَّقَى رأسُ النجاح ، وهو مفتاح الفضائل .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر : تأدبُ بأهل التَّقَى المشهورين بالزهد ، وقديما
ما قيل : الولد بوالده ، والمتأدب بمؤدبه ، والجند بقائدهم ، والناسك بالدين ،
والعامَّة بالملوك ، والملوك بالتقوى والعقل والتثبت .

وقد قال أردشير في عهده : سعادة الرعية في طاعة الملوك ، وسعادة الملوك في
طاعة الله المالك .

وقرأنا لحكيم من ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : وأعلمُ أنك لست بشيء إلا
بالله ، وأنه ليس لك شيء إلا ما نِلْتَ من رضوان الله ، وأنت إن تَتَّقِ في حقه عليك
يَقِيكَ شراً من ذلك ، وإن تتق في غيره لا تدفع عن نفسك ، ولا يدفع عنك دافعٌ .
ومعنى التقوى التي ذكرها الله وأثنى على عامليها ، هو إيثار طاعة الله ،

والانتهاء عن معصيته ، فالتقيُّ هو المطيع ، والمطيعُ هو المؤمن ، والمؤمن هو المسلم ، لأن هذه الأسماء كلها مدائح الله - جلّ وعزّ ذكره - لمن استحقها بالأفعال الصالحة والمساعي الفاضلة .

وتشتمل على أفعال كثيرة ، وهي تنقسم الى خمسة أقسام :

الإيمان بالله

أولها - معرفة الله - جلّ وعزّ - حق معرفة ، واحداً قديماً أحداً فرداً حكيماً جواداً رحيماً براً صادقاً قادراً علياً ، حتى لا يشك عارفه ثم يسميه بأسمائه الحسنى ، ويصفه بصفاته العلى ، فلا يضيف إليه شيئاً مما نفاه عن نفسه ، ولا ينفي عنه شيئاً من خلقه ، ولا يجعل معه في خلقه شريكاً ، ولا له منهم نديداً ولا شبيهاً بوجه من الوجوه أو معنى من المعاني . ويعلم أنه برّ بعباده رحيم بخلقهم ، لا يكلفهم إلا الوسع ، ولا يريد بهم إلا اليسر ، ولا يعذبهم إلا بذنب ، ولا يقضي عليهم إلا بحق ، ولا يقول ولا يرضى لهم إلا الصدق .

وأن قضاءه حق وقدره حتم ، وأن من رحمته بخلقهم وحسن نظره لهم أنه بعث أنبياء مبشرين ومنذرين ، وأنزل على من أنزل منهم الكتاب المبين الذي هداهم به إلى دار النعيم ، وحذّرهم به العذاب الأليم .

ثم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، وضمان أداء فرائضه وما جاء به النبي ﷺ ، والبعث والنشور والثواب والعقاب والوعد والوعيد ، وكل ما يجب على المؤمنين اعتقاده .

فإن هذا أساس الدين ، وأصل أفعال المؤمنين ، وإن الله لا يقبل عملاً مع الجهل به والشك فيه ، والخطأ في صفاته وأفعاله ، وإضافة السوء إليه وإشراكه فيه ، وإن طال وكثر .

أداء
الفرائض

ثم القيام بأداء الفرائض التي هي الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد

في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على شرائطها وأوقاتها
وصورها وتماها عند إمكانها ، واستفادة القدرة عليها وارتفاع المعاذير دونها .
واجتناب الكبائر التي أوعدها الله عليها بنار الأبد ، وأوجب فيها التكليف والحد ،
مثل الزنى والقذف وأكل الربا والرشا وأكل أموال اليتامى ظلماً والقتل والظلم
وشرب الخمر ولعب الميسر والفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ثم إقامة حدود الله وإمضاء أحكامه في عباده ، والقيام بالقسط في بلاده ،
والحكم بالحق في دماءهم وأموالهم وأشعارهم وأبشارهم وفروجهم وأعراضهم ،
وتجنب ظلمهم والتعدي عليهم والميل بينهم .

إقامة الحدود
والاقتداء
بالرسول
ﷺ

ثم الاقتداء برسول الله ﷺ في سننه الظاهرة وسيرته المستفيضة النافعة ،
التي جعلها الله شعاراً للأمة وأمارات للملة مما لم يوجد فرضها في كتاب الله نصاً ،
فإن كثيراً منها فرائض ، وكثيراً منها مواجب ، وبعضها أكد من بعض ، والله قد
أمر بأخذها عن الرسول ، وتلقيها عنه بالقبول بقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول
فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾^(١) . وقوله : ﴿ وأطيعوا الله
والرسول ﴾^(٢) .

ثم التأدب بآداب الله والاقتداء بنبية ﷺ فيها ، فإن الله لم يدع شيئاً فيه
صلاح لخلقه في بحياهم ومماتهم وحال معاشهم ومعادهم مما ينالون به فضيلة أو
ينتزهون به عن رذيلة إلا هداهم إليه وحثهم عليه ، وبصّرهم به في كتابه وسنن
الأنبياء من خلقه .

وليس شيء مما يقرب ويؤلف لديه في الآخرة إلا وهو فضيلة لفاعله ، وشرف
وزينة وميدحة في الدنيا .

ولا شيء مما نهى عنه وزهد فيه في الدنيا إلا وهو رذيلة ودناءة فيها .^(٣) فإن

(١) آية ٧ الحشر

(٢) آية ١٣٢ آل عمران

(٣) فيها : إى في الدنيا والآخرة

أسباب الدنيا موصولة بأسباب الآخرة ، وفي صلاح إحداها صلاح الأخرى ،
وفي فسادها فسادها .

وليس إقامة أمر الدين مما يجب على الملوك دون غيرهم ، إلا أن الملوك أولى به
وأحق باستعماله والأخذ بأدابه لخصاله كثيرة ، ومنها ما ذكرناه من أن نِعَمَ الله - عزَّ
ذكره - عليهم أظهر ، وأيديهم عندهم أكثر ، فالأولى بهم أن يكونوا لله أشكرَ
وأطوع ، وإلى أوامره ونواهيه أسرع .

ومنها أن مقامهم الذي أقامهم الله فيه مقام الذاب عن حوزة الدين ،
والقائم بأمر المسلمين ، فإذا ضيَّعَ الملكُ شيئاً مما هو مفوضٌ إليه ومعصوب به ،
لم يعتد به غيره من رعيته وضاع ، وإن ضيَّعه كثيرٌ من الرعية وقام به هولم يضيغ .

ومنها ما قدّمناه من أن يفعل الملك أفعالاً وقوله أقوالاً ، لأنه إذا فعل شيئاً
اقتدى به في فعله ، واثمير لأمره ، فتصير أقواله سنناً وأفعاله سيراً تبقى على مرَّ
الزمان وتتأبّع الأيام . فإن فعلَ حسناً جرى له أجره ، وإن فعلَ سيئاً جرى عليه
وزره ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : «مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً كَانَ^(١) له أجرُها
وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يوم القيامة» الحديث .

ومنها - أنه إذا عُرِفَ بالدين أحبته قلوب الرعية ، واتفقت عليه كلمة الخاصة
والعامة ، ورغب أهلُ الدين والمعنيون به في مجاورته وصحبته ، ووثقوا منه
بالعدل ، فلن رأوا منه محبواً شكروه عليه ، وإن رأوا مكروهاً عذروه فيه إذا كان
فعل من ذلك ما أوجبَه الدينُ وأمر به ربُّ العالمين .

ومنها أنه يزيده في قلوب الأعداء مهابةً ، لأن للدين والصلاح والهدى

(١) رواه مسلم والنسائي وأحمد : وتكملته : ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى
يوم القيامة .

والعفاف جلالة في النفوس ، ومهابة في القلوب والعيون ، وذلك مما يُعرَف
مشاهدة وتعلم معانيه .

وهذه الدلائل كلها تبين عما ذكرنا ، وتوضح ما قدّمنا ، مع ما ذكرنا أنّ ذلك
من رأى الملوك الفضلاء والأئمة العقلاء والأمراء الأمناء ، ففيهم قدوة ، وفي
أقوالهم ومذاهبهم حُجّة لمن أراد الاقتداء ومال إلى الاحتجاج فيما يراه
ويختاره .

فضل
العلم

ثم مما يجب على الملك أن يقتنيه من الفضائل والمآثر والمناقب والمفاخر التي لا
يستغني عنها ، ويحتاج إليها في الديانة والسياسة الحكمية المالية التي يكسب بها
الحمد ويستحق بها المدح ويستأهل بها الفضل - العلم ، فإن العلم من أجلّ
الفضائل شأنًا ، وأعلاها مرتبةً ، وأسانها منزلةً . وكيف لا يكون كذلك وقد رضى به
الله وصفًا لنفسه ، وجعله في أول عمارته التي امتدح بها إلى خلقه . فقال : ﴿ إِنَّ
اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(١) . وقال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾^(٢) .
وقال : ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٣) . وقال : ﴿ عَلَامُ الْغُيُوبِ ﴾^(٤) .
وقال في مدح العباد به : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ شَهِدَ
اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾^(٦) . وقال :
﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾^(٧) .

وقال رسول الله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء»^(٨) .

- (١) آية ٧٥ الأنفال . و ١١٥ التوبة . و ٦٢ العنكبوت .
(٢) آية ٩ الرعد . و ٩٢ المؤمنون . و ٦ السجدة . و ٢٢ الحشر . و ٨ الجمعة ، و ١٨ التغابن .
(٣) آية ١٧ النساء وغيرها .
(٤) آية ٧٨ التوبة وغيرها .
(٥) آية ٤٣ العنكبوت .
(٦) آية ١٨ آل عمران .
(٧) آية ٧ آل عمران .
(٨) رواه البخاري وأبو داود في العلم .

وقال : يسير العلم خيرٌ من كثير العبادة^(١) . وقال : « إن الملائكة تضعُ أجنتها لطالب العلم رضى بما يطلب^(٢) » . وقال : « الناس رجلان عالم ومتعلم ، وما سوى ذلك همجٌ لا خير فيه^(٣) » .

وقال الامام الفاضل علي رضي الله عنه : قيمة كل إنسان ما يُحسن . وقال - رحمة الله عليه - العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . وقال : مات خزانُ المال ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودةٌ وآثارهم في القلوب موجودة . وقال : الناس ثلاثة : عالم ربّاني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمجٌ راعٍ تباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور الحكمة ولم يلجؤا إلى ركن وثيق .

وقال رسول الله ﷺ : « ما عُبِدَ الله بمثل الفقه في الدين^(٤) » .

وروي عن بُزْجَهْر حَكِيم العجم : حَسْبُكَ من جلالَةِ العلم أنْ كُلاَّ يدْعِيه ، وإن لم يكنْ من أهْلِهِ ، وحَسْبُكَ من خِساسَةِ الجَهِل أنْ كُلاَّ يَنْتَفِي مِنْهُ وإنْ كان من أهْلِهِ .

وقال حَكِيم من حِكماء الفلاسِفَةِ : العمى خَيْرٌ من الجَهِل ، فأصعب ما يَخاف من العمى التردّي في هُوَّةٍ ، وأهون ما يَخاف من الجَهِل التردّي في هُوَّةٍ .

قالوا : ولما أراد الاسكندر الخروج إلى أقاصي الأرض قال لأرسطاطاليس : اخرج معي ، قال قد نحل جسمي وضعفتُ عن الحركة فلا تزعجني ، قال : فأوصني بشيء يرفع قدري ويجيبني إلى رعيّتي ، قال : تَعَلَّمْ

(١) روى الدارمي حديثاً بمعناه في المقدمة .

(٢) رواه أبو داود والترمذي في العلم

(٣) رواه الدارمي في المقدمة .

(٤) لم أجده بهذه الألفاظ .

العلم وبثه واستنبط منه ما يحلو بقلوب الرعية تنقذ لك الرعية من غير حرب .

وروى الواقدي قال : قيل لأردشير ما العلم والشرف في الأقدار ؟ قال :
علم تستنبطه فتعلمه من لا يعلم .

قال : وأوصى بُزُرْجَمَهْر ابنه فقال : يا بُنيّ عليك باستنباط العلم وبثه
تجد به العزّ في العاجلة والشرف في الآجلة ، ولا تكن كالبهائم إن جاءت
رَعَتْ ، وإن شبعَت نامت .

وقال عبد الله بن المعتز : ما مات من أحياء علما ، ولا أفقر من مَلَكَ فُهْمًا .

ثم لم يتفاضل الناسُ في شيء من الصناعات والسياسات والمراتب إلاّ
بالعلم والعقل الذي هو أمّ العلم وأصله ، وإن كان لا يُنتفع بالعقل إلاّ إذا كان
مُربّى مُقوّي بالعلم المستفاد .

هذا مع جلالة موقع العلماء من القلوب ، وفخامة اسمائهم في الصدور .
ثم إنه الشيء الذي لا يُستغنى عنه في ديانة ولا سياسة ولا صناعة . فالملك حقيق
بأن لا يرغب عن هذه الفضيلة الجليلة ، ولا يبغض لحظة منها ، ولا يدع نفسه عن
سمّتها عُقْلاً ، ولا من حليها عَطْلاً ، مع ما ذكرناه من حاجته الضرورية إليه .

ثم إنّ العلم المطلق جنس تحته أنواع كثيرة وصور مختلفة متباينة متفاضلة في
نفعها وجلالتها ، وعلى حسب ذلك يتفاضل بها عالموها ، فإنه ليس من صناعة -
صغر مقدارها أم جلّ - ، وكثر نفعها أم قلّ - إلاّ وفيها علم يعلمه أهلها . وليس في
القوة البشرية إدراك كل الفنون ولا نيل كل العلوم ، وإذا لم يكن في كل ذلك
مطمع فالأولى بالعاقل أن يختار منها أجلّها قدراً وأعظمها خطراً وأعمّها نفعاً في
الدين والدنيا . وليس فنٌّ من فنون العلم أولى بهذه الصفة من علم الدين الذي
يُتقرب به إلى الله - جلّ ذكره - وتُبْتَغى به الآخرة ، ويُقدّم إليها به الذخر ، ولا أشد

مشاكلة للملوك ومعونة لهم على سياسة المملكة وحماية الديانة - من العلوم الدينية التي ترجع بجملتها إلى خمسة أقسام :

أقسام العلوم
أولها - علمُ التوحيد الذي هو معرفة الله - جلّ ذكره - والعلوم الإلهية التي قدمنا ذكرها .

ثم رواية آثار رسول الله ﷺ ونقل أخباره التي هي أصول الأحكام ومباني الحلال والحرام ، وفيها سنن الرسول ﷺ ومغازيه ، ومعرفة أصول الديانة ومخارجها وإثباتها وبدء كونها وسنن خلفائها وسياسة أمرائها وأقاويل علمائها .

ثم عِلْمُ الفقه الذي هو معرفة الملة وسنن الشريعة .

ثم عِلْمُ المواعظ التي تذكر بالآخرة وتبعث على اكتساب الأجر وطلب الخير .

ثم عِلْمُ اللغة الذي لا تستغني عنه فرقة من هذه الفرق ، ولا صاحب رحلة من هذه النحل إذا أراد أن يكون كاملاً في صناعته وفاضلاً في ديانته ومذهبه ومقالاته ، إذ بها يُعرف نظم كلام الله وآثار رسوله ، ويوقف على مواقع خطابه ومعاني كتابه .

فهذه جملة أقسام العلوم الدينية .

والترتيب في العلم أن يبتدأ بتعليم اللغة وحفظها عند الحداثة وعنفوان الشباب والشرة ، وعند غلبة الحفظ وفراغ القلب عما يدفع إليه الملك في حال تملكه والأشتغال بسياسة مملكته ورعاية رعيته . ثم إذا بلغ وعقل ولزمته حجة الله ابتداءً في علم الدين الذي طريقه علم الكلام ، حتى يعلم من ذلك ما يجب عليه علمه ولا يسعه جهله ولا يجوز للعاقل إغفاله ، إذ هو أولى العلوم بالتقديم لأن الإصابة فيه إيمان وسعادة ، والخطأ فيه كفر وشقاوة . فالواجب على الإنسان أن يبادر بالشيء الذي يعظم ضرره ونفعه .

ولعلة ثانية وهي أنه أجل العلوم في ذاته ، وأفضل الفنون في ميزاته لأنه البحث عن الله وعن آياته ، ومعلومه هو الله جلّ وتعالى .

وكل ما كان من العلوم أجلّ معلوماً وأعلى وأفضل وأسنى ، كان العلم به أجلّ وأفضل ، ولا معلوم أجلّ مما يبحث بهذا العلم ويستدل به عليه .

وثالثة - أنه بحثٌ عن الديانة ، وذبحٌ عن المِلَّة التي بيَّنا أنها أصل المملكة وأسّ العمارة ، وقطب السياسة ، وصلاح الدنيا والآخرة .

[ورابعة^(١)] - أنّ الملك يحتاج إليه ويستعين به في المجالس الحافلة والعساكر الكثيفة الجامعة عند قتال أهل الملل المخالفة مرةً وأهل البغي والعصيان أخرى ، فيجب عليه أن يعرف هل يحل له قتالهم أو يجوز له اغتيالهم ، لأنه إن ظفر بظلم وجور فقد خسر ، وإن غلب بهما فقد غلب ، وإن خصم بهما فقد خُصِم . ثم يحتاج إلى محاجتهم ومناظرتهم ودعوتهم إلى الإيمان والطاعة ، وقد جرت السنة بتقديم الدعوة وإقامة الحُجَّة عند القتال ، فإذا لم يكن عند الملك عِلْمٌ دينه ومذهبه كان مغلوباً محجوجاً وربما صارت حُجُجُ عدوه عليه تفريقاً لجمعه وتشتيتاً لجيشه وإفساداً لقلوب أوليائه عليه ، وهذه إحدى الحيل التي لم يزل الملوك يبحثون بها ويلتجئون إليها عند التقاء الجيشين وموازة الفتنين ، وفي الخطب والرسائل المذكورة والمحافل المشهورة .

فبالحجاج فرّق عليّ - رضي الله عنه - بين طلحة والزبير ، ثم بين الخوارج . وبالحجاج من قبلُ استحلّ أبو بكر - رضي الله عنه - قتال أهل الردّة .

وبالشبهة المخرجة في صورة الحُجَّة غلبَ معاويةً عليّاً وفرّق بين بصائر أصحابه ونِيّات أوليائه بصفّين .

(١) في الأصل وخامسة مع أنه ذكر عللاً ثلاثاً قبل هذه ، وسيذكر الخامسة فيما يأتي .

وكذلك ما كتب أرسطاطاليس الى الاسكندر : وإذا كتبت كتبك فاقرأها على العامة واذكر احتجاجك عليهم من كتبك وأذع من كتبهم ما [لا] يجب ستره من العامة .

وحاجة الملوك إلى المعرفة بالحجاج أشهر من أن يحتاج معه إلى احتجاج واستشهاد واستدلال .

وقد يجوز أن يحضر الملك في كل وقت من يسد مسدّه ، ويجوز أن لا يحضر الملك في كل وقت ، ولكن الملك في نفسه إذا لم يكن عالماً مُقْتَصِراً غير موفور ، ومتخلفاً غير مبرز .

ثم خامسة - أن يتحرز به عن حيل الموهين المخرقين وأعداء الملك والدين من الزنادقة والملحدّين الذين ذكرنا أن بُغيتهم قصدُ الملوك وإفسادهم واغتيالهم واصطيادهم ثم الاستعانة بهم على إفساد الرعية مرة ، وقصد الرعية وإفسادها على الملك وتفريق كلمتها وشق عصاها وارتفاع الخلاف بينهما أخرى ، وفي كل منهما هدمُ أركان المِلَّة ، واستئصال الديانة والمملكة .

وفي أحكام علم الدين تحرز من هذا الفساد ، وتحصن من هذا العارض المجتاح .

فحين أقبح الأشياء بالملك أن يقصده عدو من أعداء دينه ومُلكه وهو هارب من حجة العالم الخاصي وسطوة الجاهل العامي ، فيصطاده اصطياد الوحش والطير حتى يخرج من دينه ويفسد عليه آخرته ويهدم به مملكته ، فيسلم له ذلك جهلاً بأصل دينه وعجزاً عن نُصرة مذهبه .

وسادسة - أن عِلْمَ الدين أصله وطريقه الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وبالتثقق عليه على المختلف فيه ، وَجْههُ استخراج الرأي ، وهذا هو علم السياسة

على الحقيقة ، وطريق النظر في العواقب ومناظرة العمال والكتاب والوزراء .

فهذه الوجوه كلها توجب أن يكون الملكُ أولى الناس بتقديم علم الدين على سائر فنون العلم ، ثم إنَّ أحبَّ الأزدِياد من العلم والاستكثار منه طلبه واستفادته على الترتيب الذي ذكرناه والتنزيل الذي نزلناه .

وقد قدّمنا أنَّ أولى الأشياء به تقديمُ رواية الآثار وعلم أخبار الرسول ﷺ وأهل القدوة من أصحابه والخلفاء الراشدين من بعده ، وأخبار السيرة والمغازي فإن في ذلك ما يؤكد الفن الأول والعلم الأجل ، لأنه يقف به على معرفة أصول الملة وبذورها وفضائل بنيتها وآياته ومعجزاته ومحاسن شريعته ودينه وميلته وتفسير كتابه ومُشكِله ومعاني آثاره ، فلا يمكن لمزورٍ تزوير حديثٍ عليه ، ولا لأهل ملةٍ ادعاء فضيلةٍ لمذهبهم ، ومنقبةٍ لخلقتهم لا يكون عنده أحسنُ منها في دينه وشريعته ولا سيرة حسنة للملوك الأمم إلا وجد في سير خلفائه مثله ، فلا يخدع من عرف من سير الخلفاء وأخبار الوزراء وآثار الأمراء الاسلاميين بأخبار الأمم المتقدمة وآثار الملوك الماضين ، إلا أن يكون الإنسان ممن يؤثّر الكذب على الصدق عمداً ، والمزورُّ على المحقِّق قصداً ، ويميل من الرشاد إلى الضلال عناداً وبهتاناً . وهذا داءٌ يُعيبُ الطبيب دواؤه ، وجنونٌ يؤسُّ الحكماء علاجه .

ثم في معرفة الأخبار وسماها أنسٌ يُربي على كل أنسٍ ، وأدبٌ يفوق كل أدبٍ ، وسببٌ يبين الأخلاق الحمودة والمذمومة ، وعلمٌ بالسياسات العادلة والجارئة ، واستفادة علمٍ بمكايد الرجال وآداب الملوك وفنون المذاهب ، ومعرفة بالرجال واعتبار بالزمان وفقه في الاحكام ، وعلمٌ بالحلال والحرام .

ثم إن أراد الازدِياد من العلم فليتعلم الفقه الذي هو علمُ الشرائع والاحكام ، فإنه فرض على كل مسلم ، وجمال لكل أحد ، ولا غُنية بالملوك والأئمة - خصوصاً - عنه ، لأنه لا بد لهم من النظر في مظالم الرعية والبرية ،

وسماع دعاويهم وبيناتهم وأيمانهم وشهاداتهم والأمر بها ، وربما أمر الأمير بالصلاة وكتب إليه بأحد الزكوات والصدقات ورُفِع إليه في المناكح والتزاويج والبيوع والمواريث وسائر فنون الأحكام . وربما رفع إليه في شيء من قسمة المغنم والفبيء ووضع أموال المملكة مواضعها .

فالمملكُ أحقُّ الناس باقتناء هذه الفضيلة لثلا يحل محل الجاهل المحتاج إلى فقيه وقاضٍ في العلم الذي هو خاص به وعام لجميع رعيته ، وفيه قوام سياسته ، ولا يتكل على قاضٍ أو مُقْتٍ في كل نازلة وحادثة .

ثم لا يجوز أن يُحْلِي نفسه من فضيلة يجدُ إلى إدراكها سبيلاً اعتماداً على كافيٍ يكفيه ونائب ينوب عنه ، لأنه إن فعل ذلك كان قد فاز بالفضيلة غيره وسبق إلى المنقبة سواه .

على أنه إن بلغ من الفقه مبلغاً مرضياً أمكنه الاجتهادُ والنظرُ لنفسه ، وطلب الحجج لها والتأويل لآرائه ، فلا يعمل إلا ما يجوز له في التأويل . ويتهيأ له بالحيل الفقهية الهربُ من كثير من الحرام إلى الحلال ، ومن الباطل إلى الحق ، فيكون له فيه حجة في ديانتته ، وزينة في مملكته ، وإزالة للتهم والريب عن نفسه ، ونجاة في آخرته .

ثم علم المواعظ والتذكير ، فقد بيّن أن الملك من أحوج الناس إليه وأحراهم بالنظر فيه ، للخلال التي ذكرناها آنفاً وحكيانها عن غيرنا بدءاً .

ثم ليس شيء من فنون العلم بعدُ إلا وفيه مستمتعٌ ظاهر ، وبه منتفع ، من الطب والحساب والهندسة والنجوم ، ولكن علم الدين أولى وأفضل وأرفع وأجل وأخصُّ بالملك الفاضل والسائس الكامل ، لامتناس الحاجة إليه وتعويل الجماعة عليه ، ولأنَّ الملك قد يجد من يحسب له ويمسح^(١) ، ويتطبب له ويكتب ، ولا يجد

(١) يمسح : من المساحة .

من يعتقد عنه الصواب ويعبد عنه الرب ويرغب عنه في الآخرة ويذب عنه في
الديانة . وللخصال الأخر التي ذكرنا ، والعلل التي سطرنا .

ولا يمكن استفادة هذه العلوم إلا بمعونه أمرين : أحدهما - مجالسة العلماء
والحكماء من أهل كل طبقة . والثاني - النظر في كتب الديانة والعناية بتعلمها
ودراستها .

فيجب على الملك الفاضل أن يستكثر من مجالسة العلماء والفقهاء من كل
طبقة من هذه الطبقات ، ولا يخلو مجلسه في أوقات فراغه من كتب ينظر فيها
ويستأنس بها ، وليعلم أن الأنس بالعلماء إذا حضروا مجلسه ليس بأقل من الأنس
بالمطرب والمغني والمسخرة والملهي ، بل ذلك أوفر وأفضل وأحسن وأنبل وأزین
وأجمل ، على ما فيه من اكتساب الأجر وجميل الذخر وحسن الأحداث على مر
الزمان ، ومن عمالة الخاصة والتحبب إلى العامة ، واستئالة العلماء الذين هم أشرف
طبقات الرعية مرتبة وأرفعهم درجة .

ولقد قرأنا لسابترم ملك الهند في عهد له إلى ابنه : فإن كنت شاغلاً نفسك
بلذة فلتكن لذلك في محادثة العلماء ودراسة كتبهم ، فإنه ليس سرورك بالشهوات
ببالغ منك مبلغاً إلا واكبابك على ذلك يندرك فيه بالغي ، غير أن ذلك يجمع إلى
عاجل الغي وخامة العاقبة .

وفي مشورات أفلاطون : اعرف الله وحقه ، وأدم عنايتك بالتعلم والأدب
الصالح أكثر من عنايتك بغذائك يوماً بيوم ، واعلم أن التواني في العناية بالخيرات
شر كثير .

وفي حكم الأولين : جالس الكبراء وسائل العلماء فإن مجالستهم غنيمة
ومعيتهم سليمة ومؤنتهم خفيفة ومشاهدتهم زين .

وقال عمر بن الخطاب : لا تصحب الفاجر فتتعلّم من فجوره ، واستشر في أمرِكَ الذين يخافون الله .

وقال الحكيم لاسكندر : واعلم أن العلم زينُ الملوك .

وفيا كتب إليه : قد وجب عليك حق الحكمة فكافئ من رَغَبِكَ فيها بإفائها ، وأجرِ على المعلمين والمتعلمين ، وصيِّر من نال المرتبة فيها من خاصّتك ، واعلم أن سبيل الحكمة أكرمُ السبيل ، وحديثها أهنأ الحديث ، والبحث عنها أفضل الفوائد ، لا تُغفل ذلك فإنك لا تعتاض منها ولا تنال من غير أهلها ما يُنال منها .

وقال عبدالله بن المعتز : عِلْمُ الإنسان وَلَدُهُ التجلّد . وقال : الجاهل صغير وإن كان شيخاً ، والعالم كبير وإن كان حدثاً .

صحبة العلماء
ومكتوب في أميرنامه : صحبة العلماء أزينُ بالملوك من شريف اللباس وبهيّ الحلى ، وهم عنهم أعظمُ غناءً من عتيد المالِ وعزيز الجند . وفيه : كن آمناً من غشِّ العلماء فإنّ العالمَ قد عرف عاقبة الغش وأوجبَ على نفسه اجتنابه .

ثم إنّ في تمكّن العلماء وأهل الدين من مجلس السلطان قطعاً لأطباع الغواية من أهل الأهواء الفاسدة والبدع المهلكة التي ذكرنا أنها إحدى أسباب فساد الديانة والمملكة ، وتداعي أركان المِلّة .

فيجب على الملك الفاضل والسائس العاقل أن لا يغفل عن هذه الخلّة ، بل يستبدل بالطبقة^(١) الفاسدة من المخانيث والمغتنين وأشباههم هذه الطبقة ، فإنّ الملكَ الفاضل والسائس العاقل لا يغفل أحد عن أن يدنس عِرْضه ومُلْكُه وعقله بالفواحش وذكرِ عورات الناس والتواجد على الغلمان والنسوان والعشوق والمعشوق ، فإنّ هذا كله سخف وركاكة يجب على البعيد الهمة أن يترفع منها ويربأ

(١) الباء تدخل على المتروك ، ومنه قوله تعالى : استبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير آية ٦١ البقرة .

بهمة عنها ، ولا سيما ما أحدث شعراء هذا الزمان فإنهم يُودِعون أشعارهم الفحش والكفر ، ويدسّون فيها من مذاهبهم الفاسدة ويُغرون فيها بطلب اللذات واتباع الشهوات على سبيل الأمن والطمأنينة والجسارة والجرأة والاستخفاف بالدين وشرائعه والمِلَّة ووظائفها ، فإن ذلك كله مضرٌّ بأصل الاعتقاد وأمرٍ الديانة .

ثم إنَّ مجالسة أمثالهم من الناس والاستكثار من أشباههم من الأندال قصورٌ همّةٌ وسوءٌ عادةٌ وتشبهٌ بهم ، ولم يزل العلماء والحكماء وأهلُ الدين يتحاذرون مجالستهم وينادون بمخالفتهم ، ويتواصون بمجالسة أشرافِ الناس وجلَّتْهم ، ويشبهون القرين بالقرين ، ويستدلون بالخدين على الخدين .

وقد قال الله - جلّ وعز - لرسوله ﷺ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ وَإِمَّا يَنْشِئَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) .

ولما أراد الله ذمَّ الدنيا والتزهيدَ فيها وصفَها بأنها لعبٌ وهْوٌ ليرغب عنها العقلاء ، ويزهد فيها الفضلاء ، فقال : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾^(٤) . ونفى عن نفسه اللعب واللهو بقوله : - عز وجل - ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾^(٥) .

(١) آية ٦٨ الأنعام

(٢) آية ٧٠ الأنعام

(٣) آية ٦٨ الأنعام

(٤) آية ٣٦ محمد

(٥) آية ١١٥ المؤمنون

وقال أردشير في عهده بما أخبر أن اللعب واللهو ليسا من أخلاق الملوك ،
وأنها مُضِرَّانِ بِأسبابِ المملكة مؤذِنانِ بخرابها ، مؤديانِ إلى تداعيتها . واعلموا أنَّ
منكم مَنْ يستريح الى اللهو والدَّعة ثم يديم من ذلك ما يورثه خُلُقاً وعادةً فيكون
ذلك لقاح جدِّ لا هوفيه ونَصَبٍ لا خَفَضٍ فيه مع الهُجْنة في الرأْي والفضيحة في
الذكر .

وقال رسول الله ﷺ « المرءُ على دين خليله فيلنظرُ امرؤُ من يُخالِلُ »^(١) .
وقال : « المرءُ مع من أحب »^(٢) .

قالوا : وكان أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - يقول : لا يُؤاخِرُ المرءُ المسلمُ
الماجنَ ولا الأحمقَ ولا الكذابَ ، أمّا الماجنُ فيزيّنُ لك فعله ، ويود أنك مثله ،
ويحسنُ لك أسوأ الخصال ولا يُعيّنُك في أمرٍ معادٍك ، فمقارنتُك إيّاه جناية وقسوة ،
ومَدْخَلُهُ إليك ومُخْرَجُهُ من عندك شينٌ وعارٌ عليك .

وأما الأحمق فلا يشيرُ عليك بسدادٍ وإن أحبَّك ، ولا يهتدي لصرف السوءِ
عنك وإن أجهد نفسه لك ، وربما أراد نفعك فيضرك ، فسكوته خيرٌ من منطِقِهِ ،
وبُعْدُهُ خيرٌ من قُرْبِهِ ، وموْتُهُ خيرٌ من حياته .

وأما الكذابُ فإنه لا ينفعك معه عيشٌ ، يثقلُ حديثك وينقلُ الأحاديثَ
إليك ، كلما نَفِدَتْ أحاديثه مطَّهاً بآخرى ، حتى إنه ليخبر بالصدق فما يُصدِّق .

وقد قال بعض الأدباء : على العاقل ألاّ يخادِن ولا يصاحب ولا يجاور من
الناس ما استطاع إلّا الأفضل في الدين وفي العلم وفي الأخلاق فيأخذ عنه ، أو
موافقاً على إصلاح ذلك فيؤيدها عنده وإن لم يكن له عليه فضل ، فإنَّ الخصال

(١) رواه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الزهد .

(٢) رواه البخاري في الأدب ، ومسلم في البر ، والترمذي في الزهد ، والدارمي في الرقاق .

الصالحة من المرء لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين ، وليس لذي العقل قريب ولا حميم هو أقرب منه وأحب إليه من موافقيه على صالح الخصال ، ولذلك زعم بعض الأولين أن صُحبة بليدٍ نشأ مع الحكماء أحب إليه من صُحبة لبيب نشأ مع الجهّال .

قالوا : وكان أردشير الملك يقول : ما شيءٌ أضرَّ عليَّ من معاشرة سخيِّف أو مخاطبة وضيع ، لأنه كما أن النفس تصلح على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب كذلك تفسدُ بمعاشرة السخيِّف حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها، وكما أن الريح إذا مرَّت بالطيب حملت طيباً تحيا به النفوس وتقوى به جوارحُها ، كذلك إذا مرَّت بالثَّنِّ فحملته تأملت له النفوس وأضرَّ باخلاقها .

وقد قال في ذلك بعض الشعراء المصبيين :

وصاحبُ كلِّ ذي حَسَبٍ ودينٍ فإنَّ المرءَ يُعرَفُ بالقرين

وقال طرفة بن العبد :

عن المرءِ لا تسألُ وسلِّ عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي^(١)

تمحيص
الرأي

فيجب على الملك وغيره ممن يجب تعلُّم العلوم ، ولا سيما علم الديانة والاعتقاد ، ألا يقلد أحداً في دينه ، ولا يقبل منه مذهبه إلا بعد تدبُّرٍ وتفكُّرٍ وحُجَّةٍ ومناظرةٍ وتبينٍ ومُباحثَةٍ ، ولا يجعل بينه وبين شيءٍ من المذاهب عداوةً ولا ولايةً إلا بعد شهود الشواهد وقيام الدلائل على صحته أو فساده . وإذا كان على مذهب قد نشأ عليه وقبَّله واختاره واعتقده فلا ينتقل عنه إلى غيره إلا بعد تبين المنتقل عنه وصحة المنتقل إليه ، فإذا تبين عنده فسادُ مذهبٍ فلا يجب أن يعاند فيه ويتعصب

(١) ليس في معلقة طرفة كما رواها ابن الأنباري في شرح القصائد السبع ونسب بعضهم هذا البيت إلى عدي بن زيد .

له ، ولا ينظر فيه إلى كثرة أهلٍ وعدةٍ وعزةٍ أصحابٍ ودولٍ ، فإن هذه أسبابٌ كثيراً ما تغرُّ الأغمارَ والجهالَ ، وتخدع العوامَّ والأغفالَ ، وهي كلها قد تنفق في الباطل كما تنفق في الحق ، ولكن الواجب أن ينظر إلى صحة المذاهب بدلائلها ويحكم لها بشواهدا التي جملتها الكتابُ المأمورُ بتصديقه ، والسنةُ المندوبُ إلى اتباعها ، والعقلُ المجمعُ على تصديقه ، وإجماعُ الأمةِ المشهودُ لها بالعدالة ، لأن التماذي في الباطل مذمومٌ عند الجميع ، واللجاجُ عند ظهور الحق سفةٌ عند الجمهور ، ولا معنى فيهما يعقل ، ولا فائدة وراءها تؤملُ ، لأن المراد من العلم والنظر والتبين والفكر إصابةُ الحق ، والبُغيةُ منه الظفرُ بالصواب ، فإذا أصابه فلا معنى للعناد والجحدِ وتضييعِ المبتغى والمطلوب .

ولا يجوز للملك أن يُشعر قلبه الاستنكافَ والأنفةَ والثَّيَّةَ من الانقيادِ لخصمه والرجوع عن مذهبه على يده ، إذا تبين خطؤه وظهر فساده ، فإن من نظر أو ناظرًا أو فكرًا أو دبرًا فاستبان له خطأ مذهبه وبطلانُ مقالته كان أحسنَ ظفرًا وأجزَلَ حظًا وأوفرَ قسطًا ، بل كان الحظُّ كله له ، والفائدةُ بأسرها عنده .

وقد قال أرسطاطاليس : أيُّ ملكٍ تمادى في رأيه بعدَ ظهور الخطأ له فهو مُعين على نفسه سارًّا لأعدائه . أيُّ ملكٍ عملَ باللجاجة فهو منفردٌ بغرته وهو من العطب قريب .

وقد احتال قومٌ من أعداء الدين ومُخالفِي الملل على ما تقدّم في كتابنا فقالوا في كتبٍ قد ألفوها ومخاريقٍ قد صنّفوها : إنَّ الملكَ السائس لا ينبغي له أن يشتغل بالنظر في المذاهب ، ولا ينسب إلى أحدها دون الآخر ، ولا ينصر أقواها دلالةً وأثبتها شهادةً ، واعتلّوا بأن ذلك مما يفرّق عليه الجماعة وينفرّ عنه قلوب أكثر الرعية ويشتت عليه آراء العامة .

وقد بيّنا أنها حيلةٌ ضعيفةٌ ومكيدةٌ واهيةٌ سخيّةٌ ، وكشفنا عن وجوه ما في

علم الدين من الفضائل التي تعود بصلاح المملكة والمملك ، وفيما وصفوه تصريحاً بأن الملك يجب أن يكون كافراً جاهلاً وعُفلاً غافلاً عن مصالح معاده ومعاشه ومحاسن دينه ودنياه .

وعلى خلاف هذا جرت العادة ووردت الآثار المشاهدة عن الأنبياء والخلفاء والملوك الفضلاء على مرّ الأيام وتتابع الأزمان والأعوام ، بل كان الذين ذكرناهم من الملوك ذائبين عن أديانهم ، ناصرين لملكهم ، مقاتلين عن أخلاقها ومجاهدين في سبيلها ، داعين إليها ، مستخفين مُنكّلين بمن أطلعوا منه على ابتداع مذهب فاسد ومقالة ضالة .

وقد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا أنّ عامّة الخلفاء كانوا يذهبون مذاهب ويقولون أقاويل ، عليها يوادّون ويؤالون ويناضون حتى لا يرى منهم من خالف هذا المذهب إلا قليلاً .

ومما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر: تمسك بإثبات^(١) السنّة فإن فيها كمال التقى ولا تصارم من كان على الحق ولا تحارب المتمسك بالدين . دافع عن دينك تصلح عاقبتك .

وقال: اي ملك يعصي سنّة وضعها من تقدّمه بلا حُجة تصحّ له من بطلان السنّة الأولى فهو معاند .

وقد قال أردشير في هذا المعنى كلاماً جامعاً لعامة ما ذكرنا وهو أنه لا ينبغي للملك أن يعترف للنسّاك والمتنبّئين أن يكونوا أوّل بالدين ولا أحدب عليه ولا أغضب له منه ، ولا ينبغي للملك أن يدعّ النسّاك بغير الأمر والنهي لهم في نسكهم

(١) المراد بالسنّة هنا الطريقة المثلّي المتبعة

ودينهم ، فإن خروج النَّسَاكِ أو غير النَّسَاكِ من الأمر والنهي عيبٌ على الملوك وعيبٌ للمملكة ، وتُلَمَّةٌ تستبينها الناسُ بيَّنةُ الضرر للملِك ولبن بعده . وقال : واعلموا أن العاقل المحروم سأل لسانه عليكم وهو أقطعُ سيفيه ، وإن أشد ما يضركم به من لسانه ما صرف الحيلة فيه إلى الدين ، فكان بالدين يحتج ، وللدين فيما يظهر يغضب ، ويكون للدين نكاؤه وإليه دعاؤه . ثم إنه أوجَدُ للتابعين والمصدقين والمناصحين والمؤازرين منكم ، لأن بغضة الناس موَكَّلةٌ بالملوك ، ومحبتهم ورحمتهم موَكَّلةٌ بالضعفاء والمغلوبين .

وقد قرأنا لبعض ملوك الهند في عهد له إلى ابنه : فإذا أشكلتُ عليك الأمور فليكن مَفْزَعُكَ فيها إلى العلماء ، فإن أدنى غايات العقل التي يصلح عليها أمر الوالي أن يكون عنده من الرأي ما يعرف به فضل الخطئة المصيبة على الخطئة المردية إذا وردت عليه . قال : ولعل رأيك يُريك أن أَخَذَكَ عن الناس واقتباسك منهم مُزِرٌ بك عندهم أو مسخفٌ لأمرِك في أنفسهم ، فإن عَرَضَ ذلك فاطْرَحْهُ أشد الاطراح ، فإن الذي تسعد به من فائدة العلم أو تشقى به من مخالفة الجهل أعظم خطراً في النفع لك والضرر عليك من أن يعدله شيءٌ سواه .

فهذه آراء الفضلاء من الملوك والحكماء من ذوي العقول في طلب العلم وتبيين الصواب ، وابتغاء الحق ، والتدبُّن بالصدق . وهم أوَّلُ بالاعتناء بهم وأحقُّ وأجدرُ وأخلقُ .

ومما يجب على الملِك إذا علم ما ذكرناه من فنون العِلْم ، وصح له اعتقاده في أصول الدين ، وقويت بالله معرفته ، وتحقَّق عنده معدلته وحِكْمَتُهُ ، وانتهى إلى ما أشرنا عليه به من التمسك بالتقوى وإصابة طريق الهدى أن تكون مساعيه وأفعاله وسيره وأقواله وآدابه التي يتأدبُ بها وسياساته التي يجري عليها وعاداته التي يختار اعتيادها واقتناءها مأخوذةً من جهتين :

إحداها هي الاقتداء بالله - جل وعز - في أفعاله وما أظهر من دلائل حكيمته

وأثار صنعتته من صواب القول وصالح العمل فيما يجوز له إدراكه ويحسن به طلبه
 وابتغاؤه ، وتحويه قدرته ويبلغ طاقته ، فإن ذلك أرفع ما تسمو إليه الهمم وينتهي
 إليه بُعد الأمل ، وهو مع ذلك حد من حدود الفلسفة ومعنى من معاني الحكمة .
 والثانية - أن ياتمر له بما أمر به ، شكرآله - جلّ وعز - على آلائه ، واعترافآله
 بحسن بلائه ، لما ذكرناه متقدماً أن ذلك أولى به وأشبهُ بعلو منزلته وشرف رتبته .
 فإذا علم وعرف وصحّ عنده ووقف على أن الله قد وصّف نفسه بالحكمة ،
 ودلت الدلائل من شواهد في خلقه على أنه حكيم - اجتهد في استحقاق هذا
 الاسم واستفادة هذه الصفة ، على مقدار الطاقة ومبلغ المعونة من خالقه وبارئه
 ومبدعه ومُنشئه .

ومعنى «حكيم» يوجد في اللغة العربية على وجهين :
 أحدهما - على معنى العالم ، والعليم هو الذي لا تخفى عليه الأشياء .
 والآخر - أنه مُحكم لأفعاله وأقواله ، ولا تفاوت في فعله ، ولا تناقض في
 خلقه ، ولا عيب ولا فساد ولا لعب ولا خطأ في حكمه .
 فاما معنى العليم فقد ذكرنا وبينّا ما يجب على الملك من اقتنائيه وإشاره
 واستفادته واختياره والاختصاص بأجل فنونه شأناً ، وأعظمها نفعاً ، وإبينها حُجةً
 وأعمّها صلاحاً .
 وأما المعنى الآخر فإننا نقول : إن من الواجب على الملك في جلالة شأنه وعلوّ
 مكانه أن يجتهد أن تكون أفعاله كلها جداً لا هزل فيها ، وحكمة لا عبث فيها .
 ولقد قرأنا لبعض الحكماء من ملوك الهند في عهده أن الله لم يرّض لنفسه من
 عباده إلا بمثل ما رضي لهم به منه ، فإنه رحيم وأمرهم بالتراحم ، وصدّقهم وأمرهم
 بالصدق ، وجاد عليهم وأمرهم بالجود ، وعفا عنهم ورضي لهم بالعفو ، فليس

قابلاً منهم إلا مثل الذي أعطاهم ، ولا آذنا لهم في غير ما آتاهم .

فاعط من وليت من عباد الله من رأفتك ورحمتك وجُودك ما ترغب في مثله
لنفسك من ربك ، موقناً بأنك إذا أعطيت ذلك من أمرت أن تعطيه أعطاكه الله ،
وأنت إن منعت منعتك الله .

الجسد قال : وقيل للإسكندر ما علامة دوام الملك؟ قال : الجِدُّ في كل الأمور .
والهزل قيل : فما علامة زواله؟ قال : الهزل . وقديماً ما قيل : إن الجِدَّ لقاح الشرف .

قالوا وكان أنوشروان الملك وجّه رسولاً إلى بعض أعدائه من الملوك ، فأمره
أن يتعرف سيرته في نفسه ورعيته ، فرجع إليه فقال : أيها الملك وجدتُ الهزل عنده
أقوى من الجِدِّ ، والكذب عنده أكثر من الصدق ، والجور أوقع من العدل . فقال
أنوشروان : رُزِقْتُ الظفرَ به . ثم دعا بعض قواده فقال له : سرّ إليه وليكن عملك
في محاربتك بما هو عنده أضعف وأقلّ وأوضع ، فإنك منصور وهو مخدول ، فسار
إليه فقتله وغلبه واستولى على مملكته .

قال : وكان أنوشروان يقول : الهزلُ آفة الجِدِّ ، والكذبُ عدوُّ الصدق ،
والجورُ مفسدة العدل ، فإذا استعمل الملكُ الهزلَ ذهبَت هيئته ، وإذا استصحب
الكذبُ استُخِفَّ به ، وإذا أظهر الجورُ فسد سلطانه .

قالوا : وكان نقش خاتم رستم : الهزل منقصةٌ ، والكذب منغصةٌ ،
والجور مفسدة .

الجود وإذا علم الملكُ خيراً أو دلالة أن الله - جلّ وعزّ - جواد لتفضله على خلقه
والشجاعة بالنعم الجسام والآلاء العظام - اجتهد في السعي لاستحقاق هذا الاسم وإدراك هذا
المعنى بغاية وسعه ومبلغ جهده ، فلا يضمن على أحد من خلق الله بموجود يجوز
الجود عليه به .

هذا على ما عرف من مدح الناس الجواد وذمهم البخيل على وجه الدهر ومر الأيام ، وفي كل جيل وطبقة ، وأهل دين ونحلة ، وبكل لسان ولغة .

وإذا عرف أن الله - جلّ ذكره - قد وصف نفسه بالقدرة ، وامتدح إلى خلقه بصفة القوة ، ودلّ على ذلك بشواهد الظاهرة ، ودلائله القاهرة ، وعلم مع ذلك أن الله قد قلّده الانتقام من أعدائه وعصاة خلقه ، والحكم بينهم وإنصافَ مظلومهم من ظالمهم - اجتهد في إدراك هذه الصفة الفاضلة على مقدار طاقته ومنتهى قدرته . وسبيله إلى ذلك بأن يرتاض باستعمال آلات الشجاعة ، وتعلّم أبواب المحاربة والمواقعة ، حتى يصير بحيث ينال هذه الفضيلة ، ويستحق هذه المنقبة ويستأهل هذه الصفة من المواقعة والموائبة والفروسية والمراكضة والسباق والرماية وتمرين النفس على الصبر الشديد وحمل السلاح الثقيل وكل ما يُعين على ذلك ، فإن الإنسان يزداد بمثل هذه الأمور قوة إلى قوته ويضيف قدرة إلى قدرته ، كما أنه يتعلم العلم والاستفادة من أهل العقول والأفعال فيزيد عقلاً إلى عقله وعلماً إلى علمه .

وإن الله - عز وجل - قد أمر الملوك بقتال الكفار والبغاة والفجّار من كل طبقة من أعداء الدين ، وأخبر أن فيه صلاحاً للخلقة وتحصيناً للرعية وإعزازاً للديانة ، فقال - جل وعز - : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾^(١) . ولا يتهيأ استعمال الحديد عند المناجزة والمقارعة لمن لم يتدرب به ولم يعتدّه . وحاجة الملوك إلى القتال والمحاربة واستعمال السلاح عند الملاقاة والمواقعة أشهر من أن يحتاج معه إلى استدلال ، وعليه إلى استشهاد .

ثم إذا علم أن الله - تبارك وتعالى - مع قدرته على معالجة العاصين من الخلق ، وقوته على مؤاخضة الغواة من بريته - وصَف نفسه بالحلم ، ودلّ عليه خبراً وعقلاً ، إذ كان ولم يزل عالماً بمعاصي عباده له وكفرهم به وجحدهم لئيمه

(١) آية ٢٥ الحديد

وافترائهم عليه ، وهو يحلم عنهم ولا يعجل بعقوبته ، ثم وصف نفسه بهذه الصفة حيث يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾^(١) . ويقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾^(٢) . ومدح به نبيه إبراهيم ﷺ حيث يقول : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾^(٣) . وجب^(٤) عليه أن يقتدي به وبنيته ﷺ ولا يعجل بعقوبة المذنب ، ولا يُسرع إلى الانتقام من المجرم حتى تحق الكلمة وتقطع المذرة وينقطع الطمع من التوبة والإنابة ولا تحمله قدرته الجبروتية ومملكته الأمدية على لؤم الانتقام وسرعة الانتصار وترك الاستثناء بالعاقبة . وليذكر قُدْرَةَ الله عليه وكثرة آياده لديه وإحسانه إليه ، ثم كثرة عصيانه له وحلمه عنه ، فلا يعامل من تحت يده إلا بما يحبه من فعل الله - جل وعز - ، على ما يعلم من مدح الناس الحليم وتعظيمهم له ، وذمهم من على خلافه واستخفافهم بصاحبه .

وكذلك إذا وجد الله - جل ذكره - قد وصف نفسه بالعفو عن المذنب ، والصفح عن المجرم ، وغفران الذنوب ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾^(٦) . مع ما ذكرنا من كثرة معاصي العباد وأنواع عنودهم^(٧) ، وأصناف كنودهم ومخالفتهم لأوامره وارتكابهم لوزاجره - وجب^(٨) أن يقتدي به في هذا الفعل فيعود نفسه العفو عن كثير من المذنبين ، والنظر في معاذير المجرمين فيطلب لهم مخارجهم ويقبل توبتهم ويُقبل عثراتهم ما لم يرتكبوا حداً يجب إقامته أو عزيمة تعود نقصاً بالشرعية ، وتنقص سنن الملة ، وتقذح في انتظام أمور العامة وعمارة أسباب المملكة ، فإن ذلك أبلغ في المكرومة وأولى بذى

(١) آية ١٥٥ آل عمران

(٢) آية ٥١ الأحزاب

(٣) آية ١١٤ التوبة

(٤) جواب الشرط لقوله «ثم إذا علم» . في الصفحة السابقة .

(٥) آية ٢١٨ البقرة ، وغيرها .

(٦) آية ٩٦ النساء ، وغيرها .

(٧) عنود مصدر عنيد بمعنى العناد

(٨) جواب الشرط لقوله «إذا وجد الله»

الرفعة والمقدرة ، وأقربُ من إستيفاء الصنيعة واستعطاف ذوي الحرمة . ثم لم يزل الملوك والحكام والعظماء والفضلاء يمدحون ويمتدحون به ، فروي عن أمير المؤمنين عمر - رحمه الله - أنه كان يقول : متى أشفي غيظي حين أقدر فيقال لي : لو عَفَوْتَ ، أو حين أعجز فيقال لي : لو صَبَرْتَ ؟

وقال معاوية : إني لأستحي من عقلي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو يكون جهلٌ أكثر من حلمي ، أو تكون عورة لا أوارئها بستري .

قالوا : وكتب المهلبُ إلى الحجاج في أمر العُصاة الذين تركوا عسكره ورجعوا إلى الكوفة : أما بعد فإنه لن يفارقني من رَجَعَ إليّ ، وإنه لا مُلْكَ أبْقَى من مُلْكٍ فيه عفو ، وإن الناس إذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب وراجعوا التوبة .

وقال في فصل آخر : ما شيءٌ أنهى من العفو ، وإن الرعية إذا وثقت بالعفو لم توحشها الذنوبُ وإن عَظُمَتْ ، وإن خافتُ شدة العقوبة أوحشها الذنبُ وإن صَغُرَ قَدْرُهُ حتى يضطرها إلى المعصية .

قالوا : ومن كَرَمَ العفو أن الله قدَّم العفو لنبيه قبل العقاب فقال : ﴿ عفا الله عنك لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾^(١) .

قالوا : وكان الحجاج يقول : العفو عن المقيِّر لا عن المَصِرِّ .

قالوا : وأسمَعَ رجلٌ عمرَ بن عبد العزيز كلاماً قبيحاً ، فقال : أَرَدْتُ أَنْ يستزلني الشيطانُ بعزة السلطان فأنال منك مثل ما تنال مني غداً^(٢)؟ والله لأعفوَنَّ عنك فاذهب راشداً .

وإذا وجد الله - تبارك اسمه - مُطْلِعاً على سرائر عباده ، وعلى ما أظهرُوا وأضَمُّروا ، وأعلنُوا وأسرُّوا من معاصيهم وفسوقهم وذنوبهم ومروقهم وفجورهم

(١) آية ٤٣ التوبة

(٢) غداً : إشارة إلى القصاص يوم القيامة

وكفورهم ، فلم يفضح كثيراً منهم ولو بهتك أستارهم ، ولم يُظهر أسرارهم ، وقد وصف بذلك نفسه حيث قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾^(١) وقال حكاية عن نبيه يعقوب - عليه السلام - انه قال ليوسف : ﴿ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾^(٢) .

على أنه قد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قوله : استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسودٌ .

وأنه كان إذا أراد سفراً ورى بغيره - وجب^(٣) عليه في جلالة مرتبته ورفعة منزلته أن يعود نفسه كتمان السر فلا يطلع عليه أحداً .

وقد حكى أردشير ذلك عن نفسه في عهده حيث قال : اتقوا باباً واحداً طالما أميئته فضرتني ، وحذرته فنفعني ، احذروا إفشاء السر عند الصغار من أهليكم وخدمكم فإنه لا يصغر أحدٌ عن حمل السر كاملاً لا يضيع منه شيئاً حتى يصفه ، إما سقطاً وإما غشياً ، والسقط أكثرُ .

وفي رسالة ارسطاطاليس إلى الاسكندر : أي ملك جاوز سره وزيه فهو في حد ضعيفي السوقه .

على أن الناس كافة لم يزالوا يمدحون ويمتدحون بكتمان السر وطيه ، ويلذمون ويتذامنون على إذاعته ونشره ، وقال فيه بعض الشعراء :

ما يكتُمُ السرَّ إلا كلُّ ذي خَطَرٍ
والسرُّ عند خيارِ الناسِ مكتومٌ

(١) آية ٢٦ و ٢٧ الجن

(٢) آية ٥ يوسف

(٣) جواب الشرط لقوله « وإذا وجد الله » .

والسرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ
قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالْبَابُ مَخْتُومٌ

وقال آخر:

إِذَا جَاوَزَ الْاِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنِّي
رَبَّثْتُ وَتَكَثَّرَ الْحَدِيثُ ضَمِينٌ
وعندي له يوماً إذا ما ائْتُمْتُهُ
مكان سويداء الفؤاد دفينٌ

فإن لم يكن من افشاء السرِّ في بعض الأحوال بُدُّ ، ولم يجد العاقلُ منه
حيلةً ، اختار لسرِّه أهل الخبرة والعقل والدين والفضل والأمانة والنصيحة ومَنْ
يَهْمُهُ مِنْ إِذَاعَةِ سِرِّهِ مَا يَهْمُهُ ، ويعنيه من كتابه ما يعنيه .

وكذلك إذا وجد الله - جلَّ ذكره - قد وصَفَ نَفْسَهُ بالصدق وأمر به فقال : الصدق
﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(٣) . وقال :
﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ ^(٤) .

ونهى عن الكذب وذمَّ عليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنَّ
الصدقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ . وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ
وإنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ» .

في أشباه كثيرة لهذه الآيات والآثار - وجب ^(٥) عليه أن يقتدي بالله وبرسله
فيهذب كلامه وحديثه عن الكذب ، ويحْتَنِبُهُ وَلَا يَتَدَنَسُ بِهِ .

(١) آية ١٢٢ النساء

(٢) آية ١١٩ التوبة

(٣) آية ٥٢ يس

(٤) آية ١١٩ المائدة

(٥) جواب الشرط لقوله «وكذلك إذا وجد الله» .

وكذلك إذا وجد الله - جلّ ذكره - قد هذب كلامه عن الخنا والفحشاء الذي تشمئز منه النفوس وتقشعر منه الجلود استقذاراً له ، حتى عبّر عن بعض الألفاظ بالغائط ، والغائط هو الأرض المطمئنة من السهل ، وعن معنى آخر هو الجامعة ، والنبى عليه السلام كنى عن ذلك بالبعال والمضاجعة والمباضعة والإفضاء - وجب^(١) على الملك أن يتأدب بأدب الله - جل وعز - في تهذيب ألفاظه عن ارتفاع الخنا والقذع والبذاء والشتم والمهجر والفحش الذي يوجب الحد ويسقط العدالة ، ويدل على سوء العادة ولؤم المخرج والمنشأ ويوجب عذاب النار في الآخرة ، ويبقى قبج الأحداث والقالة .

وكذلك إذا رأى الله قد وصف نفسه بإنجاز الوعد والوفاء بالعهد فقال : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾**^(٢) . وقال : **﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾**^(٣) . وقال : **﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾**^(٤) .

وأمر عباده أن يئنوا عليه ويدعوا به فقال : **﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾**^(٥) . وقال فيما يأمر به عباده : **﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾**^(٦) . وقال : **﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾**^(٧) . وقال : **﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾**^(٨) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ . » وقال : **﴿ إِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ لِمَنْ الْإِيمَانُ »** .

(١) جواب الشرط لقوله : « وكذلك إذا وجد الله » .

(٢) آية ٩ آل عمران

(٣) آية ٥٥ النور

(٤) آية ٦ الروم

(٥) آية ٢٠ الزمر

(٦) آية ٩١ النحل

(٧) آية ١٥٢ الأنعام

(٨) آية ٣٤ الإسراء

وروى عن نبي الله داود - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لا يَعِدَنَّ أَحَدُكُمْ أخاه عِدَّةً ثُمَّ لا يَنْجِزُهَا^(١) له فإن ذلك يورث بينهما العداوة .

هذا بعد أن أخبر الله أن خُلِفَ الوعد من كبائر الذنوب حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٢) .

مع أن الناس لم يزلوا يمدحون ويمتدحون بالوفاء بالعهد وإنجاز الوعد ، ويذمون ويتذامون بخلافهما ، فروى عن جليل من حكماء العرب أنه قال : لأن أموت عطشاً أحب إليّ من أن أكون مخلف الوعد .
وقد روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أوصى بإنجاز المواعيد وقال فيه بعض الشعراء :

إِذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ نَعَمْ فَأَتَمَّهُ
فَإِنَّ نَعَمْ دَيْنٌ عَلَى الْحَرِّ وَاجِبٌ

ومن ذلك شكرُ النعمة ومعرفة الصنعة ، والمكافأة على الحسنة ، فإن الله - عز وجل - قد وصف نفسه وأمر به عباده حيث يقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾^(٣) ويقول : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾^(٤) .

ويقول لعباده : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾^(٥) . ويقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾^(٦) . فيجب على الملك أن يتمثل هذا المثال الذي وصف الله به نفسه وحثَّ عليه خلقه .

(١) رواه الدارمي في الرقاق .

(٢) آية ٢ و ٣ الصف

(٣) آية ١٤٧ النساء

(٤) آية ١٧ التغابن

(٥) آية ١٥٢ البقرة

(٦) آية ٧ إبراهيم

قالوا : ومعنى الشكر لله ولن فوقك بالطاعة ، وللنظير بالمكافأة ، ولن دونك بالإفضال عليه والإحسان إليه ومعرفة ما يتقرب به إليك .

وكذلك إذا وجد الله - جل وعز - متنزهاً عن الفواحش ، متعالياً عن المحارم ، متقدساً عن المظالم - اجتهد في إدراك هذه الصفة ببلغ طاقته وكُنْه مقدرته ، فيعف عن المطامع الدنية والشهوات المحرمة المخلقة للعرض والمروءة ، المنهي عنها في الملة والشرعة ، فإنها عار وشنار وطريق إلى عذاب النار . والله جل ذكره - نفاها عن نفسه ونهى عنها عباده بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ^(٢) . وقد بينا أن الواجب في جلالة أقدار الملوك وارتفاع شئونهم وعلو مراتبهم الترفع عنها وصيانة الأعراض عن التدنس بها .

وفيما كتب به ارسطاطاليس إلى الاسكندر : إياك والطمع فإن فيه فساد الملك ، وقديماً ما قالوا : الطمع ذلٌّ . وقالوا : الطمع الكاذب فقرٌ حاضر .

وحكي عن أفلاطون : أنكروا الفجور فإن فُشَوْه يهلك الأمة وهو من خواص الدواب الدنيئة . قال : واعلم أنك فائر إن لم يصرعك المال والشهوات .

ومما أمر الله به مخالفة الهوى ، ومتابعة الحق ، فإن الله - عز وجل - يقول : **مخالفة الهوى** ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ^(٤) .

(١) آية ٩٠ النحل

(٢) آية ٣٣ الأعراف

(٣) آية ٤١ النازعات

(٤) آية ٧١ المؤمنون

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - « أخوف ما أخافُ على أمتي الهوى وطول الأمل فإن الهوى يصدُّ عن الحق ، وإنَّ طول الأمل يُنسي الآخرة » .

وقال أمير المؤمنين عليٌّ : أخشى عليكم اثنين طول الأمل والهوى .

ولقد قرأنا لسابترم ملك الهند في عهد له إلى ابنه : واعلم أنك قد بُليت من طبائعك ومكابدة أهوائك بحرب لا حرب أنفع لك من النصر فيها ، وأضر شيء عليك الهزيمة فيها ، ولا حرب إلا سيحتاج صاحبها إلى المادة ، فاستمِدَّ لِحلمك من أحلام العلماء ، ولعلمك من علمهم ، ولعقلك من عقلهم ، فإنَّ العقل الفرد لا يقوى على أمر العامة ، ولا يكتفي به في أمر الخاصة .

وما أمر الله به التواضع وتركُ التكبر ، فإنَّ الله جل ذكره قد نهى عنه وأخبر أنه لا يحبه من عباده ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ ^(١) . وقال حكاية عن لقمان الحكيم : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ ^(٢) .

وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله يقول : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ » ^(٣) .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ »

على ما في هذه الخصلة من استعطاف الخاصَّة والعامة ، واستئالة قلوب الكافة ، وازدراع المحبة في الرعية ، وإتباع سنن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في السيرة .

وما زال العقلاء يقولون : التواضعُ من فعل الكرام .

(١) آية ٣٦ النساء

(٢) آية ٣٧ الإسراء

(٣) رواه مسلم رقم ٢٦٢٠ في البر والصلة ، وأبو داود رقم ٤٠٩٠ في اللباس وقد جاء في المخطوطة محرفاً فصوبناه من هذين الكتابين .

وقال أرسطاطاليس : البذخ رأس الفشل .

وقد أشبعنا هذا الباب في باب المواعظ بما فيه كفاية عن غيره ومندوحة عما

سواه .

الرضا
بالمقسوم
ومن ذلك استقامة الطريقة حتى لا يبطر بالنعمة الاستفادة فرحاً ، ولا يأسى
على ما يفوته منها جزعاً ، فإن ذلك مما حث الله عليه ومدح به في قوله : ﴿ لَكِي لَا
تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(١) . على أنه من الأخلاق التي
مدح بها الحكماء الرجال فاطنبوا ، ووصفوه في المفاخر فأكثرُوا ، فروي عن ابن
عباس - رحمه الله - أنه قال : ما انتفعتُ بكلام أحدٍ بعد رسول الله ﷺ . كانتفاعي
بكلام كتب به إليّ عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو : أما بعد فإن المرء ليسرّه
درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه فليكن سرورك بما نلتَ
من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها ، وما نلتَ من دنياك فلا تكثر به
فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأسَ عليه جزعاً ، وليكن همك فيما بعد الموت .

وروي عن عثمان بن عفان هذان البيتان :

وإذا غَنِيْتَ فلا تكن بَطِيراً وإذا افْتَقَرْتَ فَيَسْ عَلَى الدَّهْرِ
وَاصْبِرْ فَلَسْتَ بِوَاجِدٍ خُلُقاً أَدْنَى إِلَى فَرْجٍ مِنَ الصَّبْرِ
وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : لا تُفْرِطْ فِي الْجَزَعِ عَلَى مَا فَاتَكَ فَإِنَّ
ذَلِكَ مِنْ خَوَاصِ النِّسَاءِ وَالضَّعْفَى .

وقد قال في الجاهلية لبيد :

وَلَا أَنَا إِنْ تَأْتِي طَرِيفٌ بِفَرَحَةٍ وَلَا أَنَا مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ جَاوِزُ

وقال النابغة في مدح بني غسان :

وَلَا يَحْسَبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زَبْ

(١) آية ٢٣ الحديد

وهذا باب جليل لا يفي به إلا الشهمُ الحَوْلُ^(١) من الرجال :

وأحدُ قسمي هذه الفضيلة الصبرُ على الشدائد والمكاره ، وقد أثنى الله - جل وعز - على الصابرين وأمر بالصبر حيث يقول : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٢) . ويقول : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾^(٣) . ثم أثنى عليهم فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾^(٤) . وقال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾^(٥) .

وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لا أحد أصبر على الأذى من الله .

وأطبقَ أصنافُ الناس على اختلاف مذاهبهم وتفاوت طبقاتهم وطبائعهم وتباين أحوالهم على تفضيل هذه الخلقة وعدّها في الفضائل الجليلة والمناقب الشريفة . وقد قال بعض الشعراء المجيدين :

الحرصُ عونٌ للزمان على الفتى والصبرُ نعمُ القرنُ للإنسانِ
لا تخضعنَّ فإنَّ دهرَكَ إنْ رَأَى منك الخضوعَ أمدَّهُ بهوانِ
وإذا رَأَى وقد قصَدْتَ لصرفِهِ بالصبرِ لاقى الصبرَ بالإذعانِ

وقال آخر^(٥) :

أخلِّقْ بذِي الصبرِ أن يحظى بحاجته

ومُدْمِنِ القرعِ للأبواب أن يلجأ

(١) الحَوْلُ : ذو الحيلة وحسن التصرف في الأمور ، يقال : رجل حَوْلٌ قَلْبٌ إذا كان حسن التصرف ذا

تجربة ودراية (اللسان - حال)

(٢) آية ١٧ لقمان

(٣) آية ١٧٧ البقرة

(٤) آية ١٥٦ - ١٥٧ البقرة

(٥) هو محمد بن بشير

لا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةُ
إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجًا

وقال آخر^(١):

صَبَّرَ النَّفْسَ عِنْدَ كُلِّ مُلِمٍّ إِنَّ فِي الصَّبْرِ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
لَا تُضِيقَنَّ فِي الْأُمُورِ فَقْدَ تَكْشِفُ غَمَاؤُهَا بَغِيرَ احْتِيَالِ
رَبِّهَا تَكْرَهُ النَّفْسُ مِنَ الْأَمِّ سِرٌّ لَهُ فَرْجَةٌ كَحُلِّ الْعِقَالِ

وقال آخر:

الصَّبْرُ أَوَّلُهُ مُرٌّ مَذَاقُهُ لَكِنَّ آخِرَهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

ومن ذلك الأخذ بالحزم ، وتقوية العزم ، وحذر الإقدام على الأمور من غير
تبين الفرصة ، وقلة الاغترار بمن يدعو إلى التوكل وهو واجد إلى الاحتياط سبيلاً
أخذ الحيلة وعلى وجه الرأي دليلاً ، فإن ذلك مما يؤدي إلى الهلاك ، والله عز وجل يقول :
﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(٢) .

وقد أمر الله - جل وعز - بتغيير شكل الصلاة وهي عماد الدين عند ملاقة
العدو وخافة القتل والدنو فقال : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ
فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ
وَرَائِكُمْ ﴾^(٣) . إلى آخر الآية .

وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : [أنه قال] : « إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » .
وكان إذا مرَّ بهدف مائل أسرع المشي . على ما فيه^(٤) من عادة التفكير والتدبر ومجانبة
التغافل والتهور [في الأمور] واستخراج تأويل أواخرها ومعرفة عواقبها بمبادئها ،

(١) هو عبيد بن الأبرص

(٢) آية ١٩٥ البقرة

(٣) آية ١٠٢ النساء

(٤) الضمير يعود على الأخذ بالحزم وما بعده

وأفولها بطلوعها وما فيها من سرور ذوي الرأي بالإصابة ومخايل السلامة وإبلاء
المعدرة عند النفس .

على أن الناس لم يزالوا يذمون المتهور المقدام على غير بصيرة ورؤية .
وأحدُ قسمي الخزم سوء الظن ، وتوهُّمُ الأمور على أشدِّ ما تسبق إليه
النفوس ويجوز كونه في العقول ، ولذلك ما جعل في أخلاق الملوك أن لا يُعرف لهم
مبيت ولا مقيل .

وحكي في سير ملوك آل ساسان من أردشير وسابور وبهرام جور ويزدجرد
وأبرويز وأنوشروان أنه كان يفرش للملك منهم أربعون فراشاً ليس منها واحد إلا
وإن تأمله متأملٌ ونظر إليه من البعد ناظرٌ ظنَّه فراش الملك خاصة ، ولعله أن لا
يكون على واحد منها ، بل ربما توسد ذراعه ونام في ناحية لا يوقف عليه ولا يسبق
الوهمُ إليه .

وقد أمر اللهُ نبيّه - عليه السلام - بهذا الباب حيث غاب عن فراشه عند نزول
الوحي بما همُّ به المشركون ودبروه عليه وأرادوا به .

والثاني - مشاورة أهل الرأي والفضل والعلم والعقل والدين والأمانة والعفة
والتجربة ومن يخصّه من الأمر المستشار فيه ما يخص المستشار ، ديناً كان أو دنياً .
وقد أمر الله نبيّه - صلى الله عليه وسلم - بعدما قدم إليه من التوفيق والتأييد والتقوية
والتسديد ، وضمّن له من الإظهار والنصرة وإعلاء الكلمة والعصمة بقوله :
﴿ وَاللّٰهُ يَعْصِيْكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) . - بالمشاورة فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي
الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ ﴾ ^(٢) .

(١) آية ٦٧ المائدة

(٢) آية ١٥٩ آل عمران

ومدح أقواماً بذلك فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ﴾ ^(١) . وكانت هذه سيرة النبي ﷺ في عامة أيامه ، ولذلك ما قال فيما روي عنه : لي وزيران في السماء ووزيران في الأرض . وقال : لو كنت مستخلفاً أحداً من غير مشورة لاستخلفت ابن أم عبد ^(٢) .

ثم لم يزل أهل العقول يفزعون إلى الشورى في كل ما يقع بينهم ويمدحون فاعله ويذمون المستبد برأيه والمرتكب لأهوائه ، وقد قال فيه أحد الشعراء :

خليلي ليس الرأي في صدر واحد
أشيرا عليّ اليوم ما تريان
وكان عبدالله بن المعتز يقول : المشورة راحة لك وتعب على غيرك .

وفي بعض كتب الهند : مَنْ وَصَلَ عقول العقلاء بعقله استبان بها من الأمور مثل الذي يستبين في الظلمة نور المصابيح .

ولا يجوز للملك أن يُغفل هذه الخلة ويضرب عنها صفحاً مع جلالة موقعه وعلو مرتبته وعظم الخطر في كثير من أموره ، على ما فيه من الاثثار بأمر الله والافتداء بنبية ﷺ .

ومن هذا الباب العدل في السيرة وسلوك الوسطة وتجنب أطراف الفضائل والعدل والتوسط في الأمور ومجاورة الحدود ، والميل إلى ترك الإفراط والتفريط فإن الطريقة المحمودة [هي] بينهما ، والشجاعة بين التهور والتحرز ، والعبادة بين التهلك والتبطل ، والحزم بين الاستقصاء والإهمال ، والجود بين التقير والتبذير ، والحلم بين الطيش والتدلل ، والتواضع بين التملق والتكبر ، والغنى بين الإكثار والإقتار .

وقد بين الله ذلك في كتابه فقال لنبيه ﷺ : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً ﴾ ^(٣) . وقال :

(١) آية ٣٨ الشورى

(٢) رواه ابن ماجه ١١ المقدمة

(٣) آية ٢٩ الأبراء

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾^(١).
 وقال فيما نقل عن لقمان في مواظبه لابنه : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس ولا
 تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾^(٢). ولَقِّنْ الله عباده الدعاء بالجمع بين حُسْنِي
 الآخرة والأولى فقال : ﴿ ومنهم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾^(٣). وقال الله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾^(٤).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن عمرو بن العاص حين
 بَلَغَهُ أَنَّهُ يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ . «إِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمْتَ عَيْنَكَ وَنَهَكَتْ
 نَفْسُكَ وَلَكِنْ قُمْ وَتَمِّمْ وَصُِّمْ وَافْطِرْ»^(٥). وقال : «خير الناس النمط الأوسط الذي
 يرجع إليه الغالي»^(٦) ويلحق به التالي . وقال «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» .

وفي كتاب أمير نامه : لا تعظم صغيراً ولا تُصَغِّرَنَّ عَظِيماً ، ولا تَنَسَّ القصد
 والقدر في أموركَ كلها فَإِنَّ مَنْ جَاوَزَ القدر مذموم وإن كان أوله محموداً .

وكانت العرب تقول : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضًا يَوْمًا
 ما ، وابغضُ بَغِيضِكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبًا يَوْمًا ما . والآثار في هذا الباب
 كثيرة ، وتفسير الضرر العارض في كل باب منه في المملكة والعمارة والسياسة
 والديانة - عسيرٌ ، ومن رام النظر فيه أَمَكَنَهُ الوقوف عليه ، ومُتَّبِعُ العدل فيه
 غريبٌ ، والأخذُ بنفسه بالمذهب المرصّي فيه عزيز . والمَلِكُ الفاضل أولى الناس
 وأحرهم باقتناء هذه الفضيلة واجتناب هذه الرذيلة .

ومن هذا الجنس الحسدُ ، فَإِنَّ الله - جل وعز - ذَمَّ الحسدَ في غير موضع من

(١) آية ٦٧ الفرقان

(٢) آية ٣٧ لقمان

(٣) آية ٢٠١ البقرة

(٤) آية ١٦ التغابن

(٥) رواه البخاري ومسلم والنسائي في الصوم

(٦) الغالي : أي المتجاوز للحد . ومضارعه يغلو (يختار الصحاح)

وأعظم الله المنّة على نبيّه - عليه السلام - حين رفع ذكره فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾^(١).

ولم يزل العقلاء من ملوك العالمين والفضلاء من المؤمنين يسعون لهذه الخلة ويجهدون في نيلها ويشترونها بالأبدان والأموال والأرواح والأملّك ، ورأوا أنّ بقاء الذكر بقاءً للمذكور حتى احتال لذلك كثير من الملوك والحكماء بأنواع الحيل ، فمنهم من طلبه بابتناء الأبنية العجيبة الوثيقة ، والتصاوير الأنيقة المنقورة في الجبال والصخور ، والمنقوشة في الأبنية والدور ، الباقية على مر الدهور . ومنهم من طلبه بتأليف الكتب وتصنيف العلوم التي يبقى له نفعها ويحيّا به ذكرها على وجه الزمان ومر السنين والأعوام . ومنهم من طلبه بإظهار السياسات العادلة وبناء المحامد الفاضلة ، ومنهم من طلبه بالعبادة والتدبر والدعوة إليه فنال به الدنيا والآخرة .

وهذه الخصلة من أجلّ الخصال الدالّة على بُعد الهمة من طلب البقاء لأن صاحبها يسمو بهمة إلى بقاء الأبد والنعيم السرمدي . فإذا لم يجد ذلك في هذه الدار الفانية والحياة المنقضية الماضية احتال القوي العزم لنيله ذلك في دار القرار .

وذكر الناس جميعاً إبراهيم - عليه السلام - إذ قال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾^(٢) .

ولقد ذكر ذلك اردشير في عهده ، وجعله من خاص فضائل الملوك حيث قال « واعلموا أنّ لباس الملك ومطعمه مقارب للباس السوق ، والأحرى أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً وإنما فضل الملك على السوق لقدرته على ابتناء المحامد ، وقوّته على استفادة المكارم ، وأن الملك إذا شاء أحسن ، وليس للسوق ذلك .

(١) آية ٢ الانشراح
(٢) آية ٨٤ - ٨٥ الشعراء

أنه قال : إذا أردتَ أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضيه وإن كان غياً فائته .

وحكى عن قثم بن جعفر بن سليمان قال : حدثني حسن الخادم قال : أشهد بالله لكنتُ من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمسُّ ثوبي ثوبه ويدي يده وهو يقول في مناجاته ربه اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى ، ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ست .

فالواجب على الملِك الفاضل أن لا يخرج له فعلٌ إلا بعد التدبر والتفكر في رشده وغيه ، وخيره وشره فيجتنى خيره ويدع شره ، فإن عزم على فعل الشر لا محالة أخره ، وإن عزم على فعل الخير عجله ، لأن الشر إذا فاته لا يضره وربما نفعه ، والخير إن فاته ضره ولم ينفعه ، بل ربما عظمت عليه ندامته وكثرت حسرته . ثم إن واقعَ خيراً وعَمِلَ حسنةً حمد الله على حُسن توفيقه له ومعونته عليه وهدايته إليه ، وإن واقعَ سيئةً وفعلَ شراً ندمَ عليه واستغفر الله - تبارك وتعالى - وتاب إليه منه فإن الله لم يعد لأحد من عباده المغفرة إلا بالاستغفار وترك الإصرار ، ولا المثوبة والرحمة إلا بعد توبته من المعصية له . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . »

الأعمال

المخلدة

للذكر

ثم إذا سنحت الآراء المختلفة وتزاحمت عليه الأمور المتائلة فالواجب أن يبدأ بالذي يتقدم له أجره ويبقى له دُخره ، ثم يشني بالمكارم التي يبقى له ذكرها ويطيب له نشرها ، ولا ينبغي أن يرغب عما يُبقي له الذكر الحسن والثناء الجميل ، فإن الله - جل وعز - مع علوه عن أن تلحقه المنافع والمضار والآلام والملاذ رغبت في الشكر من خلقه واستدعاه منهم وأوجبَ عليهم فقال : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾^(١) . وقال لنبية ﷺ : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾^(٢) .

(١) آية ١٥٢ البقرة

(٢) آية ١١ الضحى

وأعظم الله المنّة على نبيّه - عليه السلام - حين رفع ذكره فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾^(١).

ولم يزل العقلاء من ملوك العالمين والفضلاء من المؤمنين يسعون لهذه الخلة ويجتهدون في نيلها ويشترونها بالأبدان والأموال والأرواح والأملّك ، ورأوا أنّ بقاء الذكر بقاءً للمذكور حتى احتال لذلك كثير من الملوك والحكماء بأنواع الحيل ، فمنهم من طلبه بابتناء الأبنية العجيبة الوثيقة ، والتصاوير الأنيقة المنقورة في الجبال والصخور ، والمنقوشة في الأبنية والدور ، الباقية على مر الدهور . ومنهم من طلبه بتأليف الكتب وتصنيف العلوم التي يبقى له نفعها ويحيا به ذكرها على وجه الزمان ومر السنين والأعوام . ومنهم من طلبه بإظهار السياسات العادلة وبناء المحامد الفاضلة ، ومنهم من طلبه بالعبادة والتدبر والدعوة إليه فنال به الدنيا والآخرة .

وهذه الخصلة من أجلّ الخصال الدالة على بُعد الهمة من طلب البقاء لأن صاحبها يسمو بهمة إلى بقاء الأبد والنعيم السرمدي . فإذا لم يجد ذلك في هذه الدار الفانية والحياة المنقضية الماضية احتال القوي العزم لنيله ذلك في دار القرار .

وذكر الناس جميعاً إبراهيم - عليه السلام - إذ قال : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾^(٢) .

ولقد ذكر ذلك اردشير في عهده ، وجعله من خاص فضائل الملوك حيث قال « واعلموا أنّ لياس الملك ومطعمه مقارب للباس السوقة ، والأحرى أن يكون فرحها بما نالا من ذلك واحداً وإنما فضل الملك على السوقة لقدرته على ابتناء المحامد ، وقوّته على استفادة المكارم ، وأن الملك إذا شاء أحسن ؛ وليس للسوقة ذلك .

(١) آية ٢ الانشراح
(٢) آية ٨٤ - ٨٥ الشعراء

وقال ارسطاطاليس للاسكندر : واعملْ على [أن يكون مديحهم] في عقبك ، وإن مديحهم أطول عمراً منك .

فلا ينبغي للملك الفاضل أن يرغب عن هذه الخصلة الشريفة والمنقبة الجليلة ، ولكنه يجب أن يرغب منها في أفضلها وأعلاها وأجلّها وأبقاها ، ويجتهد في أن يجري له الذكر الحسن على ألسنة الصادقين الذين لا يظن بهم الكذب ، والفضلاء الذين يسمون بأنفسهم ولا يعرفون باللعب ، ولا يجعلون المدح والثناء أسواقاً يطلبون منها الأرباح ، ويبغون بها قضاء الحاجات كالمخائث والمساخر والمهين ، فإن مدائح أمثالهم على الحقيقة مذام ، وممدحهم ملاوم لأنهم يمدحون المذموم إذا أعطاهم ، ويذمّون الممدوح إذا حرّمهم ، ثم لا يقبلون معذرة ولا يُقبلون عثرة ، ولا يغفرون زلة ، ثم ليس لهم في كتاب الله قسط ولا في مال الله سهم ، فإذا أعطاهم الملك ما أرضاهم به أسخط الله - جل ذكره - ، واستذمّ الفضلاء وأهل الدين .

وقد قال النبي ﷺ « إذا رأيتم المدّاحين فاحشوا في وجوههم التراب^(١) » .

ولقد أحسن عمرو بن بحر^(٢) - رحمه الله - في فصل من كتابه حيث قال :
واعلم أن نشر المحاسن لا يليق فيك إلا إذا كان القول على ألسنة أهل الدرايات وذوي الصدق والوفاء ، ومن ينجع قوله في القلوب ، ومن يشتاق إلى قوله ويصدق خبره ، ومن إذا قال صدق ، أو مدح اقتصد بأن يثني بقدر البلاء ، فإن إسراف الثناء على قدر النعمة يولد في القلوب التكذيب ، ويدل على طلب الزائد .

فأما ثناء المدّاحين لك في وجهك فإنما تلك أسواق أقاموها ، فإن ساهلوك في المبايعة ولم يكن عليهم في الثناء كلفة لكساد أقاويلهم عند الناس فأولئك الصادقون

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه في الزهد والأدب
(٢) هو الجاحظ ، وكنيته أبو عثمان ، نشأ بالبصرة وتوفي سنة ٢٥٥ هـ وألف نحواً من مائتي كتاب منها البيان والتبيين والحيوان والبخلاء .

عن طرق المكارم والمثبطون عن ابتغاء المعالي ، فارتدّ لنفسك مغرساً تنمو فيه فروعها وتزكو ثمرتها ، ولا تذهب نفقتك ضياعاً إلا لأجل تقدّمه ، أو لعاجل من ثناء يُنتفع به .

ثم إذا قابلت الأمور وازدحمت واستوت في هذه الأبواب فالواجب أن تشتغل بأعظمها خطراً وأجلّها قدراً ، وأكثرها إن فأت ضرراً ، فإن الاشتغال بصغار الأمور على كبارها إضراراً بالكبار والصغار جميعاً ، وإضاعة وإهمال . فإن استوت في هذا الباب فبأقربها متناولاً وأرجأها دركاً ، فإن مزاوله تبعيد القريب وتقريب البعيد صعبٌ شديد ، وخرق عتيد ، وتضييع وإهمال .

وهذه جملة كافية في باب المساعي والأفعال وموازنة الأعمال ، وملازمة الأشغال ، وفيها تمام أبواب الفضائل النفسانية وأصولها ، وعوام ما لا بد منه من فروعها ، قد ذكرناها ودللنا عليها وحررنا ما يعرض للملوك وغيرهم في هذا الوقت ، إذ لا نهاية لها ولا يمكن حصرها .

وليس شيء يحتاج إليه الملوك والرعايا والرؤساء والمرؤوسون في دين أو دنيا إلا وجدت له في كتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ وسيره وأخباره أصلاً محكماً ، وأثراً بيّناً إما نصّاً لا يخالف له ولا شبهة فيه ، وإما دلالة يسهل استخراجها أو مجملها يمكن شرحه وتفسيره . وكيف لا يكون كذلك والله - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾^(١) .

الكتاب
والسنة
ملاذ

ويقول : ﴿ وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾^(٢) .

فكل من ادّعى حكمة أو علماً يخالف ما في كتاب الله أو يضاده أو ينافيه ويدافعه - فهو جهل محض ، وعيب بحث لا حكمة معه .

(١) آية ٣٨ الأنعام

(٢) آية ٨٩ النحل

وقد أمر الله خلقه بكل خير وبرٍ وفضيلة ، ونهى عن كل شر وإثم ورذيلة ، فقال - جل وعز - : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾^(١) . وقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾^(٢) . وقال : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾^(٣) . وقال : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعته ﴾^(٤) . وقال : ﴿ ومن يعمل سوءاً يُعْزَبْهُ ﴾^(٥) . فحثَّ جل ذكره على كل خير ، ودل مجملًا على كل فضل ، ثم نثر كثيرًا منها على لسان رسوله ﷺ ، وكل ما صح عن النبي ﷺ من أخباره ، وثبت على السنة الرواة من آثاره . فإنما هو مما نصَّ الله عليه على هذا الترتيب ، لأنه قال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾^(٦) . وقال : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾^(٧) .

فإذا تتبّعنا بأمر الله آثار نبيه ﷺ وسيره ومغازيه - وجدنا فيها كل حكمة بالغة ، ومنقبة جليلة ، وشرف وفضيلة ، وأدب حسن وقول متقن وأصل من أصول الدين قوي ، وعلم بين .

ثم دل النبي ﷺ على طلب الحق في إجماع أمته ، وعند علماء صحابته فقال : لا تجتمع أمتي على ضلالة^(٨) . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »^(٩) . وقال : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم^(١٠) . وفضل كلا من

(١) آية ٧٧ الحج

(٢) آية ٩٠ النحل

(٣) آية ١٥١ الأنعام

(٤) آية ٩٤ الأنبياء

(٥) آية ١٢٣ النساء

(٦) آية ٧ الحشر

(٧) آية ٥٩ النساء

(٨) رواه ابن ماجه في الفتن

(٩) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد

(١٠) رواه ابن عبد البر عن جابر بإسناد ضعيف .

أصحابه بما خصّه الله به من الفضيلة ، وآتاه من المآثر الجليّة ، فدُلّنا النبي ﷺ على أخذ العلم من بعده - منهم ، والاقتداء فيما أصابوا بهم .

وإذا تتبّعنا أخبارهم واقتفينا آثارهم وجدنا فيها كل حكمة وزهد وعبادة وسيرة فاضلة ، ومنقبة شريفة .

ثم لم يزل في ملة الإسلام - والله الحمد - علماء يعلمون كتابها ويفسرون مُشكِلاتها ، ويفرّعون أصولها ، ويستخرجون حوادثها ، ويحأمون عنها بالحجج الظاهرة والدلائل القاهرة .

والمملوك - وإن كان فيهم من مال إلى الدنيا واغترّ بزبرجها وزخرفها - لم يدعوا الذبّ عن أثلتها^(١) ، والدفاع عن بيضتها ، والحمل على ظواهر شريعتها ، ولهم سيرٌ عجيبة وآثار غريبة ، فإذا تتبّعها المليك المعنيُّ بصلاح مملكته ، وعرفها الداعي المهتم بأمور رعيته - وجد في كل باب من هذه الأبواب ما يحتاج إليه من أحكام سياسته ، ورياضة نفسه وإصلاح مملكته . ويجمع له مع ذلك تقوى ربه والفوز في عاقبته وحُسن الأحداث في حياته وبعد وفاته بعون الله ومشيتته وحولهِ وقوّته .

(١) أثلتها : أثلة كل شيء : أصله . وتأثيل المجد : بناؤه (اللسان - أثل)

البَابُ السَّادِسُ فِي سِيَاسَةِ الْخَاصَّةِ

وإذ قد ذكرنا ما يجب على الملك الفاضل من سياسة نفسه ورياضتها على تقوى الله - جل ذكره - ، والاقتداء به في أفعاله ، والائثار بأوامره ، والانتهاز عن زواجه ، والتأديب بآدابه التي يستجمع بها الخصال الفاضلة الشريفة ، والحلال المستحسنة الجيدة - فإن أولى الأشياء بنا أن نصف له سياسة خاصته وخدمه وحاشيته .

فنبول إن مما يجب على الملك الفاضل أن تكون عنايته بأمر خاصته أقدم وأكثر وأعم وأوفر حتى يروضهم رياضة لا يكون في أهل مملكته وضمن ولايته من هو أسرع إلى طاعته وأبعد من معصيته وأقوى عزماً في نصرته وأحسن أدباً في خدمته منهم اقتداءً بالله - جل وعز - واحتذاءً على مثاله في خلقه .

وذلك أن الله - عز وجل - لما خلق خلقه وأوجب في حكمته أمرهم وزجرهم ، وتعبدتهم بما هو أصلح لهم وأنظم لأمرهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم وأولاهم - اصطفي منهم ملائكة جعلهم جنوداً على خليقته موكلين بأمر برئته ، وأعواناً لأهل دعوته ، وجعلهم أقرب الخلق إليه منزلة ، وأدناهم من كرامته مرتبة ، واجتباهم ممن علم أنهم لا يعصونه ما أمرهم ، بل يسبحون له الليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يفترون ، وجعلهم مع ذلك أطولهم بقاءً ، وأقوامهم على طاعته قوة ، وأوسعهم على تنفيذ أوامره وتبليغ رسالاته في أرضيه وسماواته - قدرة .

اصطفاء
الملائكة
والرسل

ثم اصطفى من الناس رسلاً صيرهم أمناء على خلقه ، فجعلهم من عليم أنهم أقوى الخلق عزيمة ، وأبعدهم بصيرة ، وأكثرهم له طاعة ، وأقلهم له بعد الملائكة معصية ، وأنهم لا تكون منهم كبيرة يخرجون بها من ولايته ، ويؤثرون بعداوته ، أو يتهمون بها في أداء رسالته وتأسيس ملته وديانته وشريعته ومنعته ، بل جعلهم أمناء نجباء حكماء علماء فضلاء أبراراً أتقياء كراماً أقوياء ، على ما بين من ذلك في كتابه ، وأوضحه من خطابه حيث قال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .^(١) ويقول : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً وممن الناس ﴾^(٢) . ويقول : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾^(٣) . ويقول : ﴿ كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾^(٤) . وقال : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(٥) . وقال : ﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾^(٦) . وقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾ . وقال في صفة أنبيائه من البشر : ﴿ -- وإبراهيم الذي وفى ﴾^(٨) . وقال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾^(٩) . وقال في صفة موسى : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يؤوحى ﴾^(١٠) . وقال : ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾^(١١) .

(١) آية ١٢٤ الأنعام .

(٢) آية ٧٥ الحج .

(٣) آية ١٧٢ النساء .

(٤) آية ١١ - ١٢ الانفطار .

(٥) آية ٢٠ الأنبياء .

(٦) آية ١٥ - ١٦ عبس .

(٧) آية ١٩ - ٢١ التكوين .

(٨) آية ٣٧ النجم .

(٩) آية ١٢٥ النساء .

(١٠) آية ١٣ طه .

(١١) آية ٢٦ القصص .

وقال في يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) .
 وقال في صفة عيسى : ﴿ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا . وَجَعَلْنِي مَبَارَكًا أَيَّمَا كُنْتُ
 وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
 جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ ^(٢) .

وقال لمحمد ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٣) . وقال :
 ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(٤) .
 ثم أمدَّهم جميعاً بتوفيقيهم وعَصَمَهُم بِتَسْذِيقِهِ ، وَقَوَّاهُمْ بِأَسْرِهِ ، وَأَعَزَّهُمْ
 بِنَصْرِهِ ، وَأَيَّدَ بِصَانِهِمْ بِفَضْلِهِ وَطَوْلِهِ .

فكذلك يجب على الملك أن يروض عليه ويُسَوِّسَ به خاصَّته على مقدار طاقته
 ومنتهى قوته ، ثم أن يُجِلَّ خاصَّته على مقدار طاقته ومنتهى قوته - محل الآلة من
 الصنائع التي لا يجوز له تنفيذ شيء من صناعاته وإراداته إلَّا بها ، لأن الآلة إذا
 فسدت فسدت العقل وتعذر إنفاذه وإبرامه وإتقائه وإحكامه . ثم لأن جُلَّ أموره
 مفوضه إليهم ومعصوبة بهم ، وهم منسوبون إليه ومشبهون به ، يُستدل بآدابهم
 على أدبه وبأخلاقهم على خلقه وبدينهم على دينه ، ويُحكم له أو عليه بما يُشاهد
 منهم .

وليس ذلك كذلك في أمر العامة لأن لكل واحد منهم راباً ^(٥) والداد ومؤدباً
 ومعلماً ومثقفاً يكفي أمره ويخدمه على ما يحتمله حاله وتبلغه طاقته واختياره وهمته
 وإيثاره وتدبيره في الرياضة والسياسة .

وقد أمر الله - جل ذكره - بتأديب الخاصة نصّاً في كتابه ، فقال : - جل وعز -

(١) آية ٥٥ يوسف .

(٢) آية ٣٠ - ٣٢ مريم .

(٣) آية ٤ القلم .

(٤) آية ٤١ النساء .

(٥) السرايب: المرئي

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾^(١) . وقال : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾^(٢) . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾^(٣) . وقال لنبیه فی أول ما أمره بالإنذار : ﴿ وَاذْهَبْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٤) فجمع النبي ﷺ عموته وبني عمومته من عبد مناف فقال « يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فإنني لا أغني عنكم من الله شيئاً » .

وأثنى الله على نبیه إسماعیل - عليه السلام - بذلك فقال : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾^(٥) .

وقال النبي ﷺ : لا ترفع عصاك^(٦) عن أهلك .

وقال : عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الصَّلَاةَ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا^(٧) . وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ تَأْدِيبَ الصَّبِيِّ وَتَقْوِيمَهُ بِالْحَتَّانِ وَتَعْلِيمَ الْقُرْآنِ .

ورخص العلماء في ضرب الصبي على البطالة والغرامة قبل وجوب الأحكام عليه ولزوم وظائف الدين له .

وروي أن آخر ما أوصى به النبي ﷺ أن قال : الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . وأمر بإخراج زكاة الفطر عن الصبي . ورخص العلماء في إخراجها من مال اليتيم تأديباً له وتقويماً على الخير والدين .

(١) آية ١٣٢ طه .

(٢) آية ١٤٥ الأعراف .

(٣) آية ٦ التحريم .

(٤) آية ٢١٤ الشعراء .

(٥) آية ٥٥ مريم .

(٦) لم أجله لكن الأمر بتأديب الأهل وارد قال تعالى فيمن يخاف منهن النشوز : . . . واضربوهن

(٧) رواه الترمذي في المواقيت .

واختار الله لصحبة نبيه ﷺ أقواماً وجعلهم له أنصاراً وأعواناً فأمره بتأديبهم وتقويمهم وتعليمهم وترغيبهم وتخويلهم بالموعظة وتعهدهم بالتذكرة حتى كانوا أفضل أمته فضيلة ، وأبعدهم في الفضل غاية وأرفعهم درجة ، فصاروا أمناء أتقياء علماء حكماء أبراراً عبّاداً أخياراً ، أمارين بالمعروف زجّارين عن المنكر ، مجاهدين في الله ، مقتدين بأنبياء الله ، رحمة الله عليهم ، كما قال الله : ﴿ محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدُّاءُ على الكفارِ رُحَمَاءُ بينهم تراهم ركُوعاً سَجُوداً يُبْتَغُونَ فَضْلاً منَ الله ورِضْواناً سِيمَاهُمْ في وجوههم من أثر السجود ﴾ (١) . وقال : ﴿ لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحتَ الشجرة فعَليم ما في قلوبهم فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فَتْحاً قريباً ﴾ (٢) .

وقد دلّ على جهة الصلاح في ذلك أردشير الملك في عهده حيث قال : إنّ لكل ملك بطانة ، (٣) ولكل رجل من بطانته بطانة حتى يجتمع في ذلك جميع أهل المملكة ، فإذا أقام بطانته على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على ذلك عامة الرعية .

وقال أرسطاطاليس للاسكندر: ألزِم خدَمَكَ الذي ترضاه لنفسك . وقال : زَيْنُ أَمْرِكَ في العامة ، وتفَقَدُ جُنْدَكَ واعمل على أنهم أعضاءك والباب الذي تنال منه مذلة عدوك وتحترس من مَضَرَّتِهِ ، أصلحهم لأنفسهم فإن في صلاحهم صلاحاً للرعية ودركاً للغلبة ، قَوِّ ضعيفهم يَقْوِ أَمْرَكَ ، واجبُر فقيرهم يَشُدِّ سَاعِدَكَ .

فالواجب على الملك الفاضل الائتمارُ بأمر الله في سياسة خاصته وأهله وحاشيته وجنوده وأعيانه ، والاقتداءُ بنبِيِّهِ ﷺ .

(١) آية ٢٩ الفتح .

(٢) آية ١٨ الفتح .

(٣) بطانة : خاصة وحاشية مقربون مأخوذ من بطانة الثوب لأنها تلتصق به .

طبقات وخاصة الملك الذين عنيانهم في هذا الموضع - على طبقات رُتبت ، بعضهم الخاصة آخض من بعض ، فأخصهم به ولده وخدمه من قرابته وخاصته ، ثم عبيده وماليكه وخاص فتيانه وغلما نه ، ثم وزراؤه وكتابه وكُفأة أشغال حضرته، ثم جنده وقواده واساورته ومقاتلته، ثم عماله الذين يستعين بهم في إصلاح مملكته النائية عن بابه وداره ، والخارجة عن مركزه وقراره .

اختيار الزوجة الشريفة الدينة العفيفة العاقلة لأموها ، المرضية في أخلاقها ، المجربة بحسن العقل وكماله ، المواتية لزوجها في أحواله ، قال الله - تبارك وتعالى - في جملة هذه القضايا : ﴿ عسى ربه إن طلقك أن يبدل له أزواجا خيرا منك من مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ (١) .

ثم وصف - عز وجل - ما رغب فيه عباده المؤمنين من الحور العين بالحسن التام مجملًا ومفصلاً ، وبالبكارة والستر والعفة فقال : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وحور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ (٣) . وقال : ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ (٤) . وقال : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ (٥) .

فبين أن الرغبة من النساء في أهل هذه الصفات .
ثم قال فيما يخالف هذا : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة

(١) آية ٥ التحريم .

(٢) آية ٣٥ - ٣٧ الواقعة .

(٣) آية ٢٢ - ٢٣ الواقعة .

(٤) آية ٥٦ الرحمن .

(٥) آية ٧٢ الرحمن .

والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين^(١) .
وقال فيما أدب به النساء : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ^(٢) ﴾ . وقال : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى^(٣) ﴾ .

وجعل النبي ﷺ كلَّ ما يكون من المرأة من رمزٍ بعينه أو إشارة بيد أو سير أو إظهار زينة أو تبرج من أبواب الزنى . ثم قال : تخيروا لنطفكم . وقال : تنكح المرأة لأربع : لما لها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك .^(٤)

وقال : إياكم وخضراء الدَّمَنِ ، فقيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟
قال : المرأة الحسناء في منبت السوء .^(٥)

وقد جرت العادة في أهل كل دين وملة وجيل وأهل نحلة بطلب الكفاية في باب النكاح والآنكاح ، وجعل الدينُ هذا شريعة من الشرائع ، كل ذلك طلباً لنجاة النسل ، وتخيراً للطروقة والفحل ، وضماً بالنجاة التي في النجار^(٦) أن تنتقل إلى غيره ، وهرباً من تدنيس النسب .

والملكُ في جلالة شأنه وعلو مكانته - أحق الناس بابتغاء هذه الفضيلة ، وإطلاب هذه المتقية لولده ، لعله يوصل ويرجو أن يسد مسدّه ويأخذ مكانه ، ويملك جماعة من أهل جنسه وحرمة وخدمه لا يحصيهم إلا الله ، ويرشحه لعمارة

(١) آية ٣ النور .

(٢) آية ٣١ النور .

(٣) آية ٣٣ الأحزاب .

(٤) جاء هذا الحديث في المخطوطة مضطرب اللفظ ولم أعثر في كتب الحديث على ما يؤيد تلك الرواية . وقد رواه كما ذكرناه هنا البخاري ١١٥ / ٩ ، في النكاح ، ومسلم رقم ١٤٦٦ نكاح ، وأبو داود ٢٠٤٧ نكاح ، والنسائي ٦٨ / ٦ انظر جامع الأصول ٤٢٩ / ١١ .

(٥) لم أعثر على هذا الحديث في أمهات كتب السنة رغم شهرته على ألسنة الناس .

(٦) النجار : الأصل الجنب والحسب . وهو بكسر النون وبضمها .

بلاد الله وسياسة عباده وحماية دينه ، فأذا فعل ذلك فالواجب عليه أن يطلب الولد على ما جاءت به السنة ووصفه أهل الحكمة ، ويتجنب المضاجعة في حال السكر والغفلة والتناوم والاسترخاء ، وأن ينوي في ذلك كله نية الولد ، وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وينوي في الولد أن الله لعله يرزقه من يعبد الله ويوحده ويجري على يديه صلاح الخلق وإقامة الحق وتأييد الصدق ومنفعة العباد وعمارته البلاد .

وروي عن عمرو بن عبيد أنه قال لامرأته - وهي ترضع ابناً لها - : لا يكونن رضاعك لولدك كرضاع البهيمة ولدها قد عطفت عليه من الرحمة بالرحم ، ولكن ارضعيه تتوخين ابتغاء ثواب الله ، وأن يحيا برضاعك خلق عسى أن يوحد الله ويعيده .

حق الولد على أبيه فإذا ولد المولود فإن من أول كراماته له وبره به أن يحلّيه باسم حسن وكنية لطيفة شريفة ، فإن للاسم الحسن موقعا في النفوس مع أول سماعه . وكذلك أمر الله عباده وأوجب عليهم أن يدعوه بالأسماء الحسنى فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذرّوا الذين يلقحون في أسمائه ﴾ ^(١) . وأمر أن يصفوه بالصفات العلى فقال : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء ^(٢) الحسنى ﴾ .

واختار النبي ﷺ أسماء أولاده اختياراً ، وآثرها إيثاراً ، ونحل محمد بن الحنفية اسمه بعد ذلك ، تشريفاً له وإجلالا وإكراماً وإفضالاً .

ونهى عليه السلام أن يجمع أحد من المسلمين بين اسمه وكنيته ، وقال « أحب الأسماء عند الله عبد الله وعبد الرحمن » ^(٣) .

(١) آية ١٨٠ الأعراف .

(٢) آية ١١٠ الإسراء .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود .

وإنما جهة الاختيار لذلك في ثلاثة أشياء : منها - أن يكون الاسم مأخوذاً من أسماء أهل الدين ، من الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ينوي بذلك التقرب إلى الله - جل اسمه - بحببتهم وإحياء أساميهم والاقتداء بالله جل اسمه في اختيار تلك الأسماء لأوليائه ، وما جاء به الدين ، كما قد روينا عنه في أن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وأمثاله .

ومنها - أن يكون الاسم قليل الحروف خفيفاً على اللسان ، سهلاً في اللفظ سريع التمكن من السمع ، قال أبو نواس في هذا الاسم :

فقلنا له ما الاسم قال سموءل على أنني أكنى بعمسرو ولا عمراً
وما شرفنتني كنية عربية ولا أكسبتني لا ثناء ولا فخراً
ولكنها خفت وقلت حروفها وليست كأخرى إنما جعلت وقراً

فأخبر - كما ترى - أنه اختارها على بغضة لأهلها عنها - لقلة حروفها وخفتها على اللسان وفي السمع .

ومنها - أن يكون حسناً في المعنى ملائماً لحال المسمى ، جارياً في أسماء أهل طبقة وملته وأهل مرتبته .

ثم الوجه في رضاعه أن ترضعه أمه ، لأن ذلك أبلغ في الرضاع وأوقر ، وابتعد من ممازجة الأخلاط ، وأوقر لقول الله - تبارك وتعالى - ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ ﴾^(١) . فإنه أول ما ذكر الله ، وهو مع ذلك الأمر الطبيعي للإنسان وسائر الحيوان .

فإن منع من ذلك مانع فالواجب أن يُبالغ في اختيار الظئر مبالغته في اختيار الوالدة ، ويختار أن تكون صحيحة من زمانة^(٢) موثدة ، وعلة عادية عارضة أو

(١) آية ٢٣٣ البقرة .

(٢) زمانة موثدة : أفة مثقلة مضعفة

لازمة ، نظيفة الجلد صحيحة الجسم من داءٍ كامن وعرقٍ دنيءٍ وخلقٍ سيءٍ ، فإن اللبن هو الذي يغذي الطفل وينبت له اللحم وينشئ العظم ويفيد المزاج الذي يوجب اختلاف الغرائز والأخلاق .

وقد قال النبي ﷺ : « لا تُرضع لكم الحمقاء فإن اللبن يُفسدُ النسب » .

والوجهُ أن يبلغ بالرضاع تمامه ، ولا يجاوز به أيامه ، فإن الله - جلّ وعز - قد حدّ لذلك حدّاً ووقف عليه وقفاً ، فقال : ﴿ والوالداتُ يُرضعن أولادهنّ حولين كامليين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ . فكل ما بعد التام فسادٌ ودخول في غير ما يحتاج إليه .

ثم يؤخذ بعد ذلك في التربية والتأديب ، ويلبس من الثياب ما يشبه ثياب الملوك قبله وفي ناحيته ، ويختار له أصلح الثياب وأرفعها للوقوف ما دام حازماً أو متأدباً ، وللوثوب والركوب الذي لا بدّ له من الارتياض بها .

تعليم
اللغة
العربية
فإذا بلغ مبلغ التأديب والتعليم فالوجه أن يبدأ - في هذه المِلّة خاصة - بتعليم القرآن مع اللغة العربية ، لأنها اللغة التي أنزل الله بها كتابه وخاطب بها في شرائع دينه وفرائض مِلّته ، وبها بلغ رسول الله ﷺ - سنّته ، وبها ألقت الكتبُ الدينية والحكمية والجديّة والهزلية ، وبها تكتب رسائلهم والصكوك التي جعلها الله وثائق بينهم . فلا بد للناشئ في هذه المِلّة - من تعلّمها وإلا كان جاهلاً بالدين منقوصاً في الملل .

مع أن لهذه اللغة من الفضيلة ما ليس للغة من اللغات ، من الفصاحة والبيان والطلاوة على اللسان ، والحلاوة في الأسجاع والأذان ، وكثرة التصاريف واحتمال المقاييس النحوية ، وسعة الألفاظ وتوسط الحروف بين القِلّة والكثرة وأشباه هذه الخصال ما لو تُعلّمت تجمّلاً واستفيدت تأدباً ، لكانت لذلك موضعاً .

ولهذا كان ملوك العجم يتعلمونها ، فإن كثيراً منهم يستعملها في أوقات حفله ومجالس زينتته .

والوجه في تعليم اللغة أن يُقصد إلى الأخف فالأخف من كُتُبها والأسهل فالأسهل من مؤلفاتها ومُصنَّفاتها ، وأن لا يشغل أولاد الملوك بالغريب الوحشي والنادر الأجنبي ، ولا بدقائق النحو ودواوين العروض ، فإن ذلك مما يشغله عن المعاني ، وإنما تُتعلَّم الألفاظ قصداً إلى معرفتها ، فإذا أفنى الإنسان عمره في تعلم الألفاظ فاتته المعاني ، إلا أن يكون ذلك لمن يجعله صناعةً ، مثل الأدباء والمؤدبين والمعلمين من النحويين ويحتاج في الاستعانة على تعلُّم اللغة إلى رواية أشعار العرب وأيامها وأخبارها ، والصواب في تدبير ذلك أن تُروى له ويُعلَّم ويُحفظ الأشعار الحكيمة التي ضمت الحكمة والتوحيد والدين ، والبعث على العلم والزهد والشجاعة والجود مكارم الأخلاق ، دون التي يذكر فيها الزنى والتجميش^(١) والعشق والفحش والأهاجي التي فيها قذف المحصنات وذكر العورات ، لينشأوا على معرفة الفضائل ومحبة نيل المباح نشوءاً ، ويعتادوها عادةً ، فيجتمع له في ذلك فائدة الفصاحة والبيان ومعرفة المبتذل من الكلام وكثير من الغريب ، والوقوف على المعاني الفاضلة .

كتب
الانخبار ويجب أن يحفظ من الأخبار أخبار المغازي والسير ، وآثار الخلفاء دون آثار العشاق وكتب الافسانقات من كتاب سيدباد وهرار أفسان وأشباههما .

إنه بهذه الكتب^(٢) يستأنس ، وبها يبلغ مرتبة العلماء ، ويحل في دينه محل الفقهاء ، ويتقدم في أهل مملكته وميلته ، ويبرز في سياسته ، وليس ينال من تلك الكتب^(٣) في هذه الأبواب إلا قليلاً . ولعله يتصور ما في تلك الكتب من

(١) التجميش : المغازلة والملاعبة بقرص (اللسان - جمش) .

(٢) أي كتب المغازي والسير وآثار الخلفاء .

(٣) أي كتب العشق والفسق .

الافسانقات^(١) صدقاً ، ويظنه حقاً ، فيكون ذلك منه غباوةً وجهلاً ، ويبقى بأصول دينه جاهلاً ، وعن فضائل ملته ومحاسنها غافلاً ، ثم لا تنفعه تلك الكتب والأسمارُ في سياسته وحكومته ، ولا يجد منها معونة على مناظراته في دينه ، ومباهاته في محافله ، ونظيره في مظالم رعيته .

وقد قال بعض أهل التفسير في معنى قول الله - تعالى - ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾^(٢) أن شأن هذه الآية أن الحارث بن كلدة اشترى كتاب كليله ودمنه فكان يجمع الناس ويقرؤه عليهم ويزعم أن هذا الذ وأحسن مما جاء به محمد ﷺ من أساطير الأولين ، فأنزل الله - جل وعز - للرد عليه هذه الآية .

وقال النبي ﷺ في رواية الشعر : «إن من الشعر لحكمة»^(٣) ، وإن من البيان لسحراً . وقال : «الشعرُ ديوانُ العرب» . وقال : «إن من الشعر لحكماً» .

قالوا : وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده : ارؤ لهم الشعر يسحوا ويمجدوا . وحكي أنه قال : عجب لمن روى لعنترة أربعين بيتاً كيف لا يكون من أشجع الناس ، وعجب لمن روى لحاتم الطائي أربعين بيتاً كيف لا يكون من أسخى الناس ، وعجب لمن روى للبيد أربعين بيتاً كيف لا يكون من أحكم الناس .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : من روى عني أربعين حديثاً بُعث فقيهاً عالماً^(٤) .

(١) الافسانقات : هكذا وردت هذه الكلمة في الأصل ولم اعثر لها على معنى ، ولعل صوابها الافساقات أى الكتب الداعية الى الفسق .

(٢) آية ٦ لقمان .

(٣) رواه البخاري وأبو داود ، والترمذي وابن ماجه .

(٤) لم أجده لكن ذكره النووي في «الأربعين حديثاً النووية» وضعفه .

ولا بدّ لأولاد الملوك من الرياضة بالثقافة والرماية والرماحة والفروسية والسباق والمراكضة ، حتى إذا بلغ العلم والتفقه ابتداءً فيها على الترتيب الذي ذكرنا .

اختيار المعلم للولد ثم يجب أن يجتهد في اختيار المعلم والمؤدّب له اجتهداه في اختيار الوالدة والظنر بل أشد منه ، فإن الولد يأخذ من مؤدبه من الأخلاق والشائيل والآداب والعادات أكثر مما يأخذ من والده ، لأن مجالسته له أكثر ، ومُدارسته معه أطول ، والولد قد امر حيث سلّم إليه بالاقتداء به جملةً ، والأثثار له دفعة ، وإذا كان هكذا فيجب أن لا يقتصر من المعلم والمؤدّب على أن يكون قارئاً للقرآن وحافظاً للغة أو راوياً للشعر ، حتى يكون تقياً ورعاً عفيفاً ديناً فاضل الأخلاق أديب النفس نقي الجيب عالماً بأخلاق الملوك وآدابهم ، عارفاً بجوامع أصول الدين والفقه ، وافيّاً بما ذكرنا أنه يحتاج إلى أن يعلمه على الترتيب . فإن فاته شيء مما ذكرنا فلا يفوته التقى والدين والفقه وكل أدب تحت هذه الخصال على ما بيّناه في الباب المتقدم لهذا الباب .

ولو أن الغلام ينشأ عطلاً^(١) عن آداب الملوك مؤدباً بهذه الخصال كان استفادته لآدابهم وتعلّمه لأخلاقهم وتعودّه لعاداتهم أسهلّ عليه من انتزاعه من عاداته السيئة بخلاف هذه الخصال .

ويجب أن يُنهي غاية النهي ويمنع أشد المنع عن واقعة الرّيب ومجالسة أهلها من المضحكين والمساخرين ومن لا أدب له من الصبيان وأن لا يشتم بين يديه وفي مجلسه وبحضرته أحد ، ولا يتكلم بالحنّا والكذب والفحش والقذع ، ومن فعل شيئاً من ذلك أدب بحضرته وعوقب عليه ليعتبر وينزجر عنه .

ثم لا يفتن كل التفتين ولا ينعم كل التنعيم حتى تسترخي مفاصله وتضعف

(١) عطلا : خاليا .

مُنْتَه ، بل يصلب وتخشن أطرافه ويؤمر بتعرية اليدين والوجه ، وإن أمر بالسباق والعدو خُلِّيَ بينه وبين ذلك في الوقت بعد الوقت ، ويضرب الصولجان راجلاً وراكباً ليس به بأس ، فإن ذلك مما يخفف بدنه ويصححه ويهيج في جسمه الحرارة الغريزية التي تذيب الرطوبة وتنفي كثيراً من العلل الزمانية ، ويدفع عنه عادة العجز والدعة

ويؤدب مع ذلك في جلسته وركبته ولبسته ووزانته ، ويُراض بالرياض بالرياضات التي ذكرناها في باب سياسة النفس ، ويحسن عنده ويؤمر به .

وفيما يعرفه الملك ويتكلفه من هذه آداب حسنة وأبيات محمودة وكان يقال :
مَنْ أَدَبَ وَلَدَهُ أَدَبًا حَسَنًا أَرْغَمَ أَنْفَ عَدُوِّهِ .

وقال بعض الحكماء لولده : يَا بَنِيَّ تَأْدَبُوا فَإِنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مَلُوكًا بَرَزْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا قُدِّمْتُمْ عَلَى النَّاسِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ فَقَرَاءَ عَشْتُمْ بِفَضْلِ أَدَبِكُمْ ، ثُمَّ انْشَأْ يَقُول :

مَا يَأْكُلُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ مَأْكَلِهِمْ أَحْلَى وَأَطْيَبَ عَقْبَانًا مِنَ الْغَضَبِ^(١)
وَمَا تَلْحَقُ إِنْسَانًا بِمَلْحَقَةٍ أَهْشَى وَأَزِينُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ أَدَبٍ

آداب المعلم وما أحسن ما صدر به صاحب كليلة ودمنة كتابه حيث قال : إن أفضل ذخائر الأحداث الأدب الصالح ، واقتناؤه في الحداثة والحفظ واع والقلب فارغ غنم ، والمستفاد في الصغر باق كالنقش في الحجر .

وروى عن عتبة بن أبي سفيان كلاماً تقدم فيه إلى مؤدب ولده ، لو لم يكن في هذا الباب غيره لكان فيه كفاية عن غيره ، ومندوحة عما سواه ، إذ قال له يا عبد

(١) الغضب : هكذا جاءت في الأصل . وهو خطأ واضح ولم اعثر على صوابه فأبقيته كما هو . ولعل صوابها النصب بمعنى التعب في سبيل المعالي . ومعنى عقباناً عاقبة .

الصمد : ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بني إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، علمهم كتاب الله ولا تستكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروهم من الشعر أعف ، ومن الحديث أشرف ، ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وتهدؤهم بي ، وأدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يضع الدواء إلا بعد معرفة الداء ، وروهم سير الملوك وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكلن على عذر مني فإني اتكلت على كفاية منك ، واستزدني بزيادتك إياهم أزدك إن شاء الله .

الأدب
الصالح وجدنا في بعض كتب العجم : يُكتسب من الأدب الصالح العقل النافذ ، ومن العقل النافذ حسن العادة ، ومن العادة الحسنة الطباع المحموده ، ومن الطباع المحموده العمل الصالح ، ومن العمل الصالح رضا الرب ، ومن رضا الرب الملك الدائم . قالوا : ويكتسب من الأدب السوء فساد العقل ، ومن فساد العقل سوء العادة ، ومن العادة السيئة رداء الطبع ، ومن الطباع الرديئة سوء العمل ، ومن العمل السيئ سوء القالة وغضب الله ، ومن غضب الله وسخطه الذل الدائم .

وقالوا : الأدب زينة الأشراف ودليل في اعتيادهم على شرفهم ، وعدة لمن سواهم ، وآلة للأعمال وعون للملوك الذين لا غنى لهم عنه .

وقال عبد الله بن المعتز : الأدب زينة عقلك ، فزین عقلك كيف شئت .

وكذلك القول في كل من يعنى الملك برياضتهم هذه العناية ويريد لهم هذه الرياضة ، ويرشحهم للملك من أقاربه وخاصته .

صلة
الأرحام وأما جملة الأقارب وذوي الأرحام فإن الله - جل وعز - أمر بصلتهم وتقريبهم

والرأفة بهم وبرهم في غير موضع من كتابه ، فقال : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ﴾^(١) . وقال : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾^(٢) .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « صلة الرحم زيادة في العمر » . وقال : « بلّوا^(٣) أرحامكم ولو بالسلم » .

وروي عن أبي ذرّ رحمه الله قال : أوصاني رسول الله ﷺ أن أصيل رحي .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « صلة الرحم وبرّ الوالدين وحسن الخلق تعمّر الديار وتكثر الأموال وتزيد في الأجل ، وإن كان القوم فجاراً^(٤) » .

فالواجب على كل مسلم أن يصل رحمه وقرباته بالبشر والتقريب والبرّ والترحيب والمواساة والمعاونة .

فأمّا الملوك خصوصاً فإنهم أحق الناس باقتناء هذه الفضيلة واجتناء هذه المكرمة . ولم يزل الفضلاء منهم والعقلاء يأمرّون به ويفعلونه ويوصون به ويمدحونه ويعدّونه كرمًا وعزًّا ومفخرة وذكرًا ، ومباهاة للمناوئين ، واعتضاداً على المخالفين ، ويرتفعون عن ظلمهم وضييمهم ، ويعدّونه لؤماً ودناءة وسوء تدبير ، وقال في ذلك حاتم الجود :

وما من شيمتي شتم أبني عمي وما أنا مخلف من يرتجيني

(١) آية ٦ الأحزاب .

(٢) آية ٢١ الرعد .

(٣) بلّوا : من البلل ، كما عبّر عن القطيعة بالصلاة .

(٤) لم أجد حديثاً بهذه الألفاظ في كتب الحديث ولكن هناك أحاديث بمعناه .

وقال آخر^(١) :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح

وقال بعض قرابات المهلب يستبطئه ويستزيره :

جفاني الأمير والمغيرة مثله وأمسى يزيد لي فد ازور جانبه
وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشبّع الفتى عاراً إذا جاع صاحبه
فيا عم مهلاً واتخذني لنبوة من الدهر إن الدهر جم نوائبه
أنا السيف إلا أن للسيف نبوة ومثلي لا تنبو عليك مضاربه

وقال الشافعي لبعض قراباته مستزيراً له :

إذا كان ذو القربى إليك مُبعداً ونال الذي يهوى لديك بعيداً
تباعد عنك الأقربون لشأنهم واشفقت أن تبقى وأنت وحيداً

وقال بعض قرابات يحيى بن خالد وكان قد ناله منه إعراض وجفوه :

تصول على الأدنى وتجنب العدى وما هكذا تبني المكارم يا يحيى
وكنْتَ كفحل السوء يبدأ بأمه ويترك باقي الخيل سائمة ترعى

العناية
بالخدم
فأما حاجة الخدم والحشم فلا بد من أن يكون في دور الملوك من المؤدبين
والمعلمين من يعلم الغلمان والخدم والفتيان والحشم ما يحتمله حال كل واحد منهم
من القرآن والدين ، ويذكرهم في الوقت بعد الوقت بالله ، ويعرفهم أصول الدين

(١) هو مسكين الدارمي ، واسمه ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم توفي سنة ٨٩ هـ .

والشرائع وإقامه الصلوات بتمام طهورها وركوعها وسجودها ، ويفسر لهم نوافلها وفروضها ويعرفهم محاسن الأخلاق ومحامد الأفعال ، ويعظهم ويذكره ويخوفهم بالنار ويدعوهم إلى الجنة ودار القرار ، ويحثهم على الجهاد . ثم منعهم من الفساد وسوء الأدب وارتكاب ما حرم الله من الكبائر كالزنى والقذف ، فمن ارتكب منهم ذنباً على السهو والغفلة فالوجه فيه الأعراض والتغافل ، ومن ارتكب صغيرة دون ما يجب فيه لله حدٌ أو يعود على المملكة والدين بفساد ، فالوعظ والنكير والترغيب والتنفير ، فإن تاب عنه وتركه وأناب فالصفح والعفو عنه ، فإن عاد فالعقوبة والتنكيل على اللجاج والإصرار ، على مقدار الجناية والذنب .

وإن كان الملك ممن يحتسب في أمر الدين خاصة فإن الواجب في السياسة أن يكون معه وبحضرته وفي داره من أهل التوحيد والفقه في الدين - من يعلمهم أصوله ويقف بهم على أقواله وجوامعها ، ويزيد من رأى في طبعه قبولاً للزيادة ، ويرجو منه صلاحاً للاستفادة .

ويجب أن يستعان على تقويم كافة الخاصة بخصال عشر :

تقويم أولهن أن يظهر لهم - خاصتهم وعامتهم واقصاهم وأدناهم - أن لا يرضى منهم أمور الخاصة إلا ما يرضاه من نفسه من الأخذ بهذه الخصال المعدودة المذكورة ، أو ما تَبْلُغُه منها طاقة كل واحد منهم .

والثانية - أن يُدِرَّ عليهم أرزاقهم وجراياتهم ووظائفهم وعطياتهم حتى لا تتأخر عن أوقاتها ، ويوسعها عليهم توسعة تغنيهم عن حيف الرعية والطمع في أموالها ، ويكفيهم مُهمَّهم من أمر دوابهم وخيلهم وخدمهم وسلاحهم وكراعهم ، ويكون تقديرهم في ذلك تقديراً حسناً متوسطاً بين الاسراف والتقتير ، فإن في ذلك أبواباً من الصلاح والخير تعود بانتظام أحوال المملكة وراحة الراعي والرعية .

والثالثة - أن لا يقدم أحداً منهم قَفْزاً ، ولا يرفع منهم وضيعاً ، ولا يؤخر

الرجل
المناسب
في المكان
المناسب

أحداً ولا يضع له قدراً إلا على استحقاق في قديمه أو بلاء في نفسه أو كفاية أو غناء ، لا ميلاً إلى هوى ولا حيفاً على أحد ، فإنهم إذا عرفوا ذلك تنافسوا في أبواب القربة ، وتشاحوا على حسن الطاعة ، وتسارعوا في البلاء والكفاية ، ولا يستزيد الميلى منهم زيادة على قدر بلائه ، ولا يُطمع مقصراً فيما ليس له ، فإذا كانا عاقلين صار الكل من الملك راضين وبمراتبهم قانعين .

مراقبة العمال والرابعة - أن لا يسوغ لأحد منهم شيئاً من ظلم الرعية قلّ أو كثر ، ويعلمهم الملك ذلك من رأيه كتاباً وشفهاً واستعمالاً ، ويُعرفهم أنه لا فرق بينهم وبين سائر الرعية في أحكام الله وقضايه ، وأن ذلك فرض من الله لا يحتمل تغييراً ولا تبديلاً .

ولا بدّ في الدين من بذل النصفة والمعدلة والتسوية بين الشريف والرضيع ، والأقصى والأدنى ، فإن ذلك مما يردعهم من ظلم الرعية واضطهادها ، وإن في ظلم الرعية العقوبة في الدنيا والآخرة ، وقبح الأحداث ، وازدراع العداوة والبغضاء في ضيائهم ، وتخريب المملكة وإخلائها من أهلها ، وإطماع العدو فيها ، واستبداد كثير من الخاصة بالمملكة والولاية ، وفي ذلك سقوط المهابة وتفرق الكلمة .

مع أنه إذا جرت هذه العادة في خدم الملوك صعب انتزاعها منهم إلا بتدريج وترتيب وعناية شديدة ورفق كثير واستبدال بهم جملة ، وفيه خطر عظيم .

والخامسة - أن يستعمل فيهم العفو عن صغائر ذنوبهم وما يقع سهواً وغفلةً وخطأً من جرائمهم ، ولا يعمل على أن يأخذ بكل زلة ، أو يعاقب بكل علة ويشفي كل غيظ ، فإن ذلك أبلغ في المكرومة وأولى بذوي الرفعة والمقدرة ، وأبقى للإحسان والصنعة ، وأقرب من ازدراع المحبة ونفي الوحشة والبغضة ، واستعطاف ذي الحرمة .

وأحقُّ من استعمل فيهم الملك هذه الخَلَّةَ خَدَمَهُ الذين يصلون بهم على أعدائه ، ويرتبط بهم لصالح الرعية وعمارة مملكته ، ويأتمنهم على مُهْجَتِهِ .
وتمام هذا الباب في خلال ست :

أولها - أن يبحث عن مذهب الخاصة وما يرتكبون من الذنوب والمعاصي ،
ويطلع عليهم حتى يعلم .

والثانية - أن يتغافل عما يجوز التغافل عنه ، كأنه لا يعلم .

والثالثة - أن يقتصر بالعقوبة على أدنى ما يكتفي به منها ، ويُرجى معه الردع
العفو يسبق العقوبة والتقويم .

والرابعة - أن يحتال ليعفو ، ولا يحتال ليعاقب ، ما لم يبلغ ذلك كبيرة في
الدين أو فساداً في الملك .

والخامسة - أن يستأني بالعقوبة ويؤخرها ، ما لم يجز ذلك إهمالاً وإضاعة
وتخريباً وإهداراً ، ليتوب مذنب أو يثوب مجرم ، أو يُدلي متهمٌ بحُجَّة ، أو يأتي
بريء بمعذرة .

والسادسة - أن لا يحابي في حدٍّ من حدود الله إن ارتكبه مُرتكبٌ أو استوجبه
مُستوجب حتى يعاقبه به ويُقيمه عليه .

وإن ذلك كله من أدب الله الذي أدب به خَلْقَهُ ، وأوصافه التي وَصَفَ بها
نفسه ، يقول الله - جل وعز - في أول هذه الفضائل : ﴿ عَنْ اليمين وعن
الشمال قعيدٌ . ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ﴾^(١) ويقول : ﴿ ما
لهذا الكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ﴾^(٢) . ويقول

(١) آية ١٧ - ١٨ ق .

(٢) آية ٤٩ الكهف .

لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ^(١) .
ويقول : ﴿ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ ^(٢) . ويقول في العفو عن صفائر الذنوب وما يقع منها على غير تعمّد :
﴿ إِنَّ تَحْتَبِتُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ^(٣) . ويقول :
﴿ لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ ﴾ ^(٤) . ويقول في تأخير العقوبة : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ
مُسمى ﴾ ^(٥) .

وقال النبي ﷺ : اذْ رَأَوْا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ . ويقول الله - عز وجل -
﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ^(٦) . ويقول : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ
السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ^(٧) . ويقول : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ ^(٨) .
ويقول في المعاقبة عند تحقيق الكلمة وظهور المفسدة : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْ تَقَمَّنَا
مِنْهُمْ ﴾ ^(٩) . ويقول : ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا
تَدْمِيرًا ﴾ ^(١٠) .

فالواجب على الملك الفاضل الاقتداء بالله - جل ذكره - في هذه الخلال

(١) آية ١٩٩ الأعراف .

(٢) آية ٢٢ التور .

(٣) آية ٣١ النساء .

(٤) آية ٢٢٥ البقرة .

(٥) آية ٤٥ فاطر .

(٦) آية ١٩ غافر .

(٧) آية ٧ طه .

(٨) آية ٧ المجادلة .

(٩) آية ٥٥ الزخرف . واسفونا أي أغضبونا .

(١٠) آية ١٦ الإسراء .

كلها ، والائتار بأمره في هذه الخصال ، ما لم يرتكبوا الحدود أو قاموا بما يعود العفو عنه بفساد الدين والملك ، فإذا فعلوا ذلك فالواجب عليه إقامة الحدود ، وإمضاء القصاص والقود والإحالة على الله - جل ذكره - وعلى الديانة ، فإن في ذلك إنبلاء المعذرة ، وقطع أطماع الخاصة والعامة والحاشية ، والدواهي العارضة .

ولا يمتنع الملك من ذلك إبقاء على خدمه وقربته ، أو محاباة خاصته وحاشيته ، فإن الإبقاء عليهم في ذلك ترك للاتقاء ، وإصلاحهم بترك الحدود الواجبة لإفساد ، يقول الله جل وعز : ﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولی الألباب ﴾ . (١)

وقد ضرب عمر بن الخطاب ابنه الحد على شرب الخمر (٢) فمات فيه ، ثم دخل عليه في مرضه عاتداً فقال : يا ابت قتلتي ! فقال : إذا لقيت ربك فأخبره بأن عمر يقيم الحدود . وقد قال في ذلك بعض الشعراء فأجاد :

وإن يداً بالداء قد طال سقمها وقد خيف منها الداء أن يتقدما
لمحقوقة بالقطع كي لا تغمة ويقلت من آفاتهما متسلما
وقد قال في ذلك بعض الملوك الحزمة : واعلموا أن الوالي قد يُفسد بعض
الرعية من حرصه على صلاحها ، وقد يُغلظ عليها من شدة رفقها بها ، ويقتل منها
من حرصه على حياتها .

وفيما كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : اجرّ الحلم على الخاصة والعامة
بالسواء ، واعلم أن في صلاح الخاصة صلاح العامة . وقال : كن رؤوفاً رحيماً ،
ولا تكن رأفتك ورحمتك فساداً لمن يستحق العقوبة ويصلحه الأدب . وقال : أي
ملك سوى في الحكم بين أصحابه حميد وسليم .

وحكى عن بعض قدماء الملوك قال : إني لا أجهل فضل العفو ولكن ليس
على الحدود .

(١) آية ١٧٩ البقرة .

(٢) وقيل إن هذا الحد كان على الزنى وإن ابن عمر مات قبل أن يكمل الجلد مائة ، وهذه الرواية هي المشهورة .

وفي كتاب كليله ودمنة من هذا الباب كلمات كافية ، قال في بعض قصصها : إن الملك قد يموت من قبل هذا المجرم ووجل أن يكون قد شبّه عليه ورأى الفحص عنه ، فمن كان عنده من ذلك علم فليذكره ولا يكتمه ، لخصال ثلاث : منها الشهادة لله بما علمتم ، فإن الكاتم لعلمه في مثله مشترك في موته . ومنها أن عقوبة المجرم بجُرمه مقمعة لأهل الرية ، ومصلحة للملك والرعية . ومنها أن نفي الأشرار من الأرض زيادة في عز الدين وبهاء الملك ، وصالح للرعية ، ومحقق للأحقاد . وأن يكون القضاء في ذلك على الحق واليقين ، لا على الهوى والظنون .

والسادسة - (١) أن لا يدعمهم أياماً طويلة وأوقاتاً متتابعة فراغاً لا شغل لهم غير الفراغ مفسدة
الراحة والأكل والشرب والدعة ، حتى يصرفهم في شغل تحمد عاقبته ، وتجدي عائدته على المملكة والديانة بجهة من الجهات ، من غزو أو جهاد أو مشاققة أو سباق أو رماية أو رشاق ، أو خدمة ، أو تعلّم شيء من الأدب والخير ، فإن الراحة الطويلة والخفض والدعة والإكباب على النعمة يرخي مفاصلهم وينعم أبدانهم ويثقل أجسامهم ويعودهم العجز والفشل والضعف والكسل . ثم عند الفراغ الطويل يذكرون فنوناً من الفساد ، من الشرب والعريضة والقتل والجرح والشتم ، وقديماً ما قال الشاعر : (٢)

إنّ الشبابَ والفراغَ والجدّه مفسدة للمرء أيّ مفسدة
وقد قيل : لا ينبغي للعاقل أن يفني عمره إلا في إحدى ثلاث : مرمّة
لمعاشه (٣) ، أو خطوة لمعاده ، أو لذّة في غير محرم .

على أن الحكماء الحزمة من كل فرقة قد استخفوا بالضرب الثالث وذموا من (٤)

(١) من التقسيم الذي ذكره بقوله : « بخصال عشر »

(٢) هو أبو العتاهية واسمه اسماعيل بن القاسم توفي سنة ٢١٣ هـ في خلافة المأمون العباسي .

(٣) مرمّة المعاش : السعي فيه بما يصلحه ويقيمه ، فعلها رم ومنه ترقيم البناء

(٤) أي اللذة

جعل اللذة أكبر همة وأكثر شغله ، حتى قال الشاعر في ذلك :

إنني وجدت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبّعوا
فلذا تذكّرت المكارم مرة في مجلس أنتم به فتقنّعوا^(١)

وقال آخر :^(٢)

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فأنت لعمري الطاعم الكاسي
وقالوا : إنما يحتاج من المطاعم والمناكح إلى ما يقيم القوة ويبقي النسل ويجب
أن يكون الفضل مصروفاً إلى القسمين الباقيين .

واستخفّ الزهاد المتبتلون بحرمة المعاش إلا إذا كان فيها خطوة للمعاد ،
وإلا أوجبوا أن يكون السعي كله لدار البقاء والقرار دون دار النقلة والزوال . وقد
قيل لبعض الحكماء : ما الفرق بينك وبين العامة ؟ قال : أنهم يعيشون ليأكلوا ،
وأنا آكل لأعيش . ولذلك ما صدّر به صاحب كلیلة ودمنة كتابه بأن قال : تقسّمت
الناس أربع : الرغبة في المال ، والشهوة للذات ، والطلب للذكر ، والعمل
للمعاد . والثلاث وشيكة الفناء باقية التبعة ، والرابع ينتظم الثلاث بلا تبعة . ولا
غنى كالرضا ، ولا لذة كال تقوى وما يعجل من فرح البشرى ، ولا ذكر أشرف من
طاعة الله التي أخافت من صاحبها كل شيء ، وخاف من عدمها كل شيء .

اختيار
الأعوان
والسابعة - أن يستخص من بعضهم خواص لمشاورته ، ويشركهم في
وزارته ، يكونون واسطة بينه وبينهم ، وأعواناً له على باقيهم وعيوناً عليهم إن
أحدث محدث أو كاد كائد . ثم لا يفعل ذلك بمن فعل به منهم إلا بعد امتحان
وتجربة وابتلاء وظهور نصيحة وشفقة وعفة وأمانة ومساهمة ومشاركة وكتان للسرّ

(١) تقنّعوا : أي البسوا أقنعة واستخفوا فلستم أهلاً للمكارم .

(٢) هو الحطيئة يهجو الزبير بن بدر ، والمعنى : لا تطلب المكارم فإنما يكفيك أن تأكل وتلبس .

وفاء له ولن تقدمتُ صحبتهم له ، فعلى هذا جرت السنة واستمرت العادة في كل نبوة وديانة ومملكة وعبارة احتيج في إقامتها إلى جنود وجيوش ، ولا يستقيم شيء منها إلا بعد تدريج وترتيب وتحويل من درجة إلى أقرب الدرج منها ، فإن ذلك أشبه بأدب الله وادل في الأخذ عنه في موافقته العصم والتوفيق والثوبة والتأييد .

والعرفة بما لا يصلح المرفوع والمريد ويصلح به ، فقد قال الله في أول هذه القضية : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ .^(١) وقال : - ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ .^(٢) وقال ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ .^(٣) وقال : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ .^(٤)

واختار النبي ﷺ . من صحابته لوزارته ومشاورته جماعة ، واختار لبيعة الرضوان نفرأ من أصحابه ، ولخدمته جماعة ، ولقيادة الجيش جماعة ، ولرسائله وكتابته عدة ، ولاستخلافه على الأعمال جماعة ، واختار للإمامة بعده نفرأ قد سمأهم فقال : « إن استخلفتم أبا بكر وجدتموه قوياً في دينه ، ضعيفاً في بدنه ، وإن استخلفتم عمر وجدتموه قوياً في دينه قوياً في بدنه ، وإن استخلفتم علياً وجدتموه هادياً مهدياً . »

وقد فضل الله مع ذلك بعض ملائكته على بعض ، فبالله وملائكته ورسله قُدوة وأسوة .

والثامنة - أن يتعهد فُشُو الفسوق وشرب الخمر [ولعب] الميسر في إنكار المنكرات
عسكره ، فيغير من ذلك ما كان مكروهاً في الدين ، فقد أمر الله به في غير موضع من كتابه ، وقد تلونا منها آيات فيما تقدم من كتابنا ، وروينا عن النبي ﷺ أنه قال :

(١) آية ٧٥ الحج .

(٢) آية ١٢ المائدة .

(٣) آية ١٥٥ الأعراف .

(٤) آية ١٤٤ الأعراف .

«ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي وَقَدَرُوا أَنْ يُغَيَّرُوا فَلَمْ يُغَيَّرُوا إِلَّا عَمَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ». وقال: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ» (١).

هذا بعد قول الله - تبارك اسمه - : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وفىما كتبه أرسطاطاليس إلى الاسكندر : انكر الفجور فإن فشوه يهلك الأمة ، وهو من خواص الدواب الدنية . وقال : تفقد ظهور الفجور والسكر في عسكري فإن هذين مفتاح الضعف ، وفيهما هتك القوة .

وأقول : قد جرب هذا المعنى في غير واحد من عساكر الملوك فوجد الأمر على ما قال ، أعني أن ظهور الفجور كان أمانة لوشك البوار وقرب الهلاك .

والتاسعة - هي أن يلين جانيه ويخفيض جناحه في بعض الأوقات لهم ، ويبسط كنفه لأقصاهم وأدناهم وخاصهم وعامتهم ، ويسهل لهم الإذن في الدخول عليه ، ورفع الخواثج في الوقت بعد الوقت إليه ، ولا يحتجب عنهم احتجاباً يورث الوحشة ، ولا يتناول عليهم تطاولاً يوجب البغضة ويدل على الخيلاء والجفوة .

والعاشرة - أن يتعهد مرضاهم وزمنائهم وأيتام موتاهم وورثتهم الضيع ، وإبدال ما ينفق في وقائعه من دوابهم ويتلف فيها من كراعهم وسلاحهم وأموالهم ، فإنهم إذا عرفوا ذلك ووثقوا به جادوا بأنفسهم وما معهم من ذلك ، وإذا وثقوا بخلاف ذلك ضنوا بما حصل في أيديهم ، وتأخروا عن مهالكهم شفقة على أهليهم وأولادهم .

وهذا أدب من أدب الله - عز وجل - ، وفيه قدوة به ، لأن الله - تعالى -

(١) رواه الطبراني عن أبي هريرة . انظر مجمع الزوائد ٢٦٦/٧ وجامع الأصول ٣٣٢/١

(٢) آية ٧٨ و ٧٩ المائدة .

يقول : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيل الله ولا يطاؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتبَ لهم به عملٌ صالح إنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين . ولا يُنفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتبَ لهم ليجزيهم الله أحسنَ ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

فليس أحدٌ عندنا ينفق نفقة أو يسعى في سبيل الله سعياً صغيراً أو كبيراً إلا عَجَّلَ الله له ثواباً من الخلف والمدح والتوفيق واللطف ، واجزل له ثواباً من المغفرة والرحمة ، ويعتاض الجنة ما لم يحبط أجره بجريرة من كفر أو كبيرة .

وكان النبي ﷺ يقول في خطبته : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من تركَ مالا فإلهه ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلي وإلي » .

ولقد قال خطيب وفد لسليمان بن عبد الملك : لقد حببت إلينا الحياة وهونت علينا الموت فإننا نرجوك لمن نخلف من أعقابنا . وكذلك ما قال بعض الشعراء :
لولا أميمة لم أجزغ من الهرم ولم أقاس الدجى في جندس (٢) الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذلَّ اليتيمة يحفوها ذوو الرحم
أحاذرُ الفقر يوماً أن يُلِمَّ بها فيهلك الستر عن لحم على وضَم (٣)
وقد قال في ذلك أرسطاطاليس : وأبدلُ الأموال عند الحاجة من يحتاج إلى معونة .

ثم لا بدَّ للملِك مع ذلك من الاستعانة بالأخصَّ الأخصَّ من خدمه في
مهمات أعماله ، من جباية أموال المملكة وتفريقها على الجيوش وفي سبيل

(١) آية ١٢٠-١٢١ التوبة .

(٢) جندس : بكسر الحاء والذال مع تسكين النون ، : شلة الظلام .

(٣) وضَم : الوضَم ما يوضع عليه اللحم من خشب ونحوه يوقى به من الأرض والمراد أن اليتيمة مطموع فيها كما يطعم في اللحم على الوضَم .

الحقوق ، ولا بدّ في إقامه المملكة والولايات العظيمة من وزراء وخلفاء وكتّاب وأصحاب جيوش وعارضين وأصحاب شرط وثقباء وأصحاب حرس وأصحاب أخبار وولاه وقضاة .

فليجتهد المليك في اختيار هذه الطبقات من أهل الكفاية والاستقلال والشهامة والأمانة والعفة والديانة والعقل والأصالة . فمن هذه الخصال ما يحتاج إليه في بعض دون بعض . فمن الخصال التي يحتاج إلى أن تعم الجميع - الدين والعقل والأمانة والكفاية والاستقلال بما يُعصّبُ به ويفوّض إليه ، لأنّ منهم من يأتّمه المليك على دمه وروحه ، ومنهم من يأتّمه على خدمه وحرمة ، ومنهم من يأتّمه على سرّه ومشورته العظيم خطرهما الجليل قدرهما ، ومنهم من يأتّمه على دينه وآخرته ، ومنهم من يأتّمه على أمواله وخزائنه .

فمن لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب الخيانة كانت الأمانة منه معلقة برغبة حاضرة أو رهبة معجلة ، ولا يبعد أن تزول معها إذا زالتا ، وتميل معها إذا مالتا ، وربما حمّله سوء العادة على مخالفة شرائط الرغبة والرهبة ، وتعدّي حدودها ، والاستخفاف بها ، وإذا لم يكن له أمانة خان ، وإذا خان في مثل هذه الأمور فربما عاد بضرر شامل أو فساد مستأصل .

وإذا لم يكن عاقلاً فربما أراد أن ينفع فيضرّ ، وأن يحفظ فيضيع ، ويزين فيشين ، ويحسن فيقبح .

وإذا لم يكن فيه كفاية بما فوّض إليه وعُصّب به - ضاع الأمر وانثر .

ثم من هؤلاء من يجب أن يكون الغالب عليه في أبواب فضائله الأصالة وحسن التدبير والتقدير وجودة القريحة والبديهة وحسن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وبالماضي على الآتي ، وهم لكل باب من الرسوم السلطانية .

ومنهم من يحتاج منه إلى فضل معرفة بالأدب واللغة وحسن الخط ، والبيان

في اللفظ ، وسهولة اللقاء وجودة القريحة ، وهو الكاتب .

ومنهم من يحتاج منه إلى فضل معرفة بالحساب وعمل الدخل والخرج ،
وهم الوكلاء وجُباة الأموال من الكتّاب .

ومنهم من يحتاج منه إلى شجاعة وجلاده وشهامته وبسالة ودربة بالوقائع ،
وممارسة لها ، وهم الأساورة وأصحاب الجيوش .

ومنهم من يجب أن يكون الغالب عليه العلم والفقه والديانة والعفة والأمانة
والدراية والعدالة والصيانة والمعرفة بالأحكام والحدود والفرائض والشروط ، وهو
القاضي .

فعلى حسب ذلك يجب أن يختار الملكُ ولاةَ أعماله وجُباة أمواله . وليعلم أنه
ليس يجد من يكمل بكل فضيلة ، ويبرز في كل منقبة ، ولكنه يختار لكل عمل من
هو أصلح له وأسدّ لمسدّه وإن كان فيه تخلفٌ أو تقصيرٌ من جهاتٍ أخرى ، فإنه لا يجد
مهدباً لا عيب فيه ، وكاملاً لا نقص معه ، وإذا لم يستعمل ذوي المعاييب ضاعت
الأمر وتعطّلت .

سبل
التقويم

ثم ينبغي للملك أن يستعين على تقويم هؤلاء بعد حسن الاختيار والأصالة
في الاستعمال - بخصال خمس :

أولها - أن يتقدم إليهم جميعاً بالعدل والإنصاف ولزوم فرائض الشريعة
وحُدود المِلَّة ، وتقديم الوعيد بالنار على من تعدّى فيه أو ظلم أو ضام أو غشم ، كما
يتقدم إليه باستيفاء ما يجب له على الرعية ، والاستقصاء عليها ، ولا يطلق لأحدٍ
كسرهما ، ولا يسوغ لأحدٍ منهم أخذ دِرْهمٍ واحدٍ من غير حقه ، فإنه إذا أطلق ذلك
له أطلق هولاء تحت يده ، فإن لكل عاملٍ عاملاً ، ولكل صاحبٍ صاحباً يطمع
منه في مثل ما طمع هو فيمن فوقه . فإذا كان كذلك صار القليل من ذلك كثيراً ،
فأضر ذلك بالرعية ولم ينفع الراعي بل ربما ازداد ذلك حتى يكثر فيخيف بها

فتهلك ، ويكون في هلاكها هلاكٌ مَلِكِها وواليها ، لأن بيوت الرعايا وأبدانهم معادن ومزارع لبيوت أموال الرعاة وأصول لها ، فإذا خرب الأصل خرب الفرع ، وإذا انقطعت المادة من المعدن والأصل ذهب ما في بيوت الأموال وفني .

ومثلوا ذلك مثال جداول تُفْضي إلى بركة ، فإذا انقطع ماؤها لم يلبث ما في البركة أن يقل ويفنى ، ولا سيما إذا كان الخروج منها دائماً والمستقون كثيرين .

ولا شيء أقطع لسيل الأموال من الخزائن وبيوت الأموال من الجور والظلم وتعدّي الحق والرسم .

وقد وقع بذلك عبدُ الله بنُ طاهر فقال : الخراج عماد الملك ، فما استُديرَ بمثل العدل ، ولا استُنزِرَ بمثل الجور .

وفيما أوجب الله - جل وعز - على عباده من الزكوات والصدقات أعظمُ شاهدٍ وأبينُ دليل وأحسنُ مثال ، لأنَّ الله - جل وعز - لم يوجب عليهم مما ملَّكهم من الأموال إلا جزءاً من أجزائها: العُشر من ثمرة الأرضين التي لا يكلفهم سقيها ، ونصف العشر مما يلزمهم كُلفةُ فيها أو الخراج الخفيف في رقاب الأرضين ، وربع العُشر من صوامتهم^(١) ، وقرماً^(٢) من سوائهم القليلة العدد ، فإذا كثرت فعُشر أو ما يقرب منه من الأغنام وغيرها .

ثم لم يوجب ذلك إلا في مال مَثْمَرٍ أو ممكن التثمين ، ولذلك أوجب الله الجزية على أعدائه من كفار أهل الذمة ، إلا أنه لم يوجبها إلا على معتمل قوي أو موسرٍ غنيٍّ ، ثم أمهلهم في ذلك مدة يمكنهم فيها الزيادة والتثمين والنماء والتكثير ، كل ذلك إبقاء لمواد الأموال في أيديهم ، ولأصولها في أملاكهم ، ونظراً لهم ورأفة بهم وتخفيفاً عنهم .

وقد بينَّ ذلك سابور بن أردشير في عهده حيث قال : إنما تكون استقامة

(١) الصوامت : جمع صامت ، وهي الذهب والفضة

(٢) القرى : البعير يترك للركوب فالعوامل لا زكاة فيها .

الخروج ورجاؤه بعمارة البلاد والاستكثار من الغلات ، ولن يسهل السبيل إلى المبالغة في ذلك وبلوغ الغاية فيه إلا باستصلاح أهله والعدل عليهم والانصاف لهم والرفق بهم ، والعون لهم على ما هم بسبيله ، والترغيب لهم فيه بالتوسعة عليهم في المعاش ، والتخفيف عنهم في المؤونات ، فإن بعض الأمور لبعض أسباب وعوام الناس بخواصهم عدة ، ولكل صنف منهم إلى الآخر أئین الحاجة .

وقال أنوشروان : الملك بالجنود ، والجنود بالأموال ، والأموال تستخرج من الأرضين ، والأرضون تزكو بالعمارة ، والعمارة لا تتم إلا بالعدل .

ولمثل هذه الأسباب ما جعل فضلاء الملوك دوران المال في أيدي الملوك والجنود والرعية في السنة الواحدة على ثلاثة أقسام ، فقسم يكون في بيت المال ، وقسم في أيدي الجند والقواد ، وقسم يكون في أيدي الرعية .

وليعلم الملك المهتم بعمارة مملكته والمعني بأمر ولايته - أنه لا عدو أعدى له وأقوى عليه وأشد تمكناً من مقاتله ، من عامليه إن كان جائراً غاشماً ، وخليفته إذا كان متعدياً ظالماً ، لأنه الذي لا يقدر عليه أحد من أعدائه إلا عامله وخادمه ، ثم يورثه لو لم يحدث الذي يشين به عرضه ويقبح اسمه على مر الأيام ويفسد عليه رعيته ، وهذا هو الذي ربما يحتال له العدو بكل حيلة فلا يقدر عليه ، ثم يقطع عنه سبل دخله ويخرب عليه معادن وفره وينابيع ماله ، ثم يطمع فيه أعداءه الأبعدين ومنابذيه الأجنيين فلا يبالي بهذا كله لرئيسه وسلطان به بعد أن يتعجل طفيفاً من المال ونزراً من الحرام .

فلا ينبغي للملك الحازم أن يقرّ أحداً منهم على ذلك ، ولا يبقى عليه فيه .

مراقبة
الولاية

والثانية^(١) - أن من عثر منه على شيء من هذا الباب عزله واستبدل به بعد

(١) من الخصال التي ذكرها بقوله : بخصال خمس

تبيين الحق من أمره ، من غير عجلة أو غلظة ، وعاقبة عقوبة تحتملها صورة حاله ومبلغ جنايته ، واسترد منه ما أخذ من ظلم ، وردّه على صاحبه ، فإن مضض العدل على الظالم أبلغ وأشد من مضض الجور على المظلوم ، إذا كان المظلوم ينتظر به أجراً ورحمة ، ولا يخاف لذلك وزراً ووبالاً ، والظالم يخاف عقوبة ويلتزم شيئاً ويستحق عذاباً ونكالاً .

هذا على أن الله - جل وعز - قد أخبر عن نفسه في كتابه فقال : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾^(١) . وأنه لا يتخذ المضلين عضداً . فيجب على المملك الذي يتعرف من الله جليل النعمة في نفسه ومملكه أن لا يخالف أمر الله في ملكه ، ولا ينازعه في سلطانه فينبيل عهده من أخبر الله أنه لا ينال عهده ، ويتخذ في عباده عضداً من أخبر الله أنه لا يتخذ عضداً .

نظام
المباحث
والثالثة - أن يجعل على كل منهم عيوناً ومشرفين وأزمنة ، سرّاً وعلانية ، من أمناء الناس ومشايخ الكور^(٢) وعلمائها وصلحائها وأهل العفة والعفاف منها ، يتبعون آثاره ، وينهون إليه أخباره ، ويكون سبيل الأمناء والعيون سبيلهم ، ومجاهم مجاهم إذا أخلوا بما هم بسبيله أو ضيعوا منه شيئاً ، أو طابقوا أحداً من العمال على ظلم أو جناية أو فاحشة أو ريبة . على أن لا يعجل في ذلك حتى يستبرئ ويملي ويصح عنده ثمار الأخبار أسباباً .

والناس عامتهم مطبوعون على الحسد والبغضاء ، موكلون بسوء الظن والفعل ، إلا من عصم الله من الفساد ، ووفقه للرشاد . والله لم يأمر بالقضاء إلا بعد تبيين الحق وظهور الصدق ، فليتنق الله امرؤ في الحكم ، ولينظر فيما يفعل ويقول .

الولاية
تكليف
والرابعة - أن يجعل الولايات التي يوليها قضاء بحق الخدمة ، ولا يطمع في

(١) آية ١٢٤ البقرة .

(٢) الكور : جمع كورة وهي المدينة

أحد من عُماله لأجل تقليده إياه ، بل يُدرُّ عليه رِزقه المرسوم بالمعروف إذا وجَّهه إليه ، وليقدَّر عنده أنه إنما ينفعه ليعمل ولا يستعمله لينتفع ، فإن في كلتا الحالتين فساداً كثيراً ، لأن العامل إذا علم أن ولايته قضاءً بحق خدمته ومكافأةً له عليها أطمع نفسه في الرعية ومطعمه كان في الراعي ، وظن أن كل ما تحت يده ثمرة خِدْمته وجدوى عمله .

وإذا طمع الملكُ في عامله طمع هو فيمن تحت يده ، ولم يَرْضَ إلا بأن يأخذ من رعيته - التي ذكرنا أنها عمارة مُلكه ومعدن خزائنه - أضعافاً ما يبذله له ، ولا يسعه غير ذلك في مذهبه لأن لكل واحد من هؤلاء مؤناً غير ذلك وأغراضاً في تحصيل المال واستيفائه هو يغترضها^(١) ، وآمالاً هو يرجوها ، ومطامع لعطلة إن وقعت ، والادخار لمدة إن طالَت .

فإذا اجتمعت هذه الأسباب صار ما يؤخذ من الرعية أضعاف ما يحصل لبيت المال ، وقد بيَّنا ما في ذلك من الفساد .

التضخم
الوظيفي والخامسة - أن لا يستكثر من العمال ولا يستخلف على الرعية منهم إلا العدد الذي لا يجد منهم بُدأً ، فإن في الاستكثار منهم فوق الحاجة ضرراً من الفساد .

أولها - أنهم إذا كثروا كثرت أرزاقهم ومؤونهم على بيت المال ، فشغَلَتُ المالَ عن الأوجب الأول والأحق الأخرى ، وأضرَّت بيت المال .

والثاني - أنهم إذا كثروا كثرت مكاتبهم وكُتِبَ عليهم وكُتِبَ الأمناء عليهم والشكاياتُ منهم والرجائعُ عليهم ، فشغل ذلك الملك عن كثير مما هو أولى وأحق وأجدَرُ وأخلَقُ .

والثالث - أنهم إذا كثروا كانوا من اتفاق كُلِّهم على الرشد والفلاح والأمانة

(١) يغترضها : أي يجعلها له غرضاً

والصلاح والعفة والعفاف - أَبْعَدَ ، لأن الأمناء المختارين والكُفأة المقدّمين في كل عصر وزمان ووقت وأوانٍ - أعزّة قليلون فلا بدّ إذا كثروا من اختلاف أحوالهم في هذه المعاني والخصال التي يحتاج إليها فيهم ومنهم .

فالواجب أن يشتغل منهم ما أمكن وتيسر وراج بهم العمل وتقدر ، وفي هذا موضع اقتداء بالله من جهة التأسّي به ، وذلك أن الله لم يبعث رُسله إلا واحداً بعد واحد في الأيام المتطاولة والمدد المتراخية ، وعند امتساس الحاجة الضرورية من الخلق جميعاً إليه ودثور الشريعة ووقوع الفترة .

ولم ينصب الرسول ﷺ لهم في كل عهد إلا إماماً واحداً ، وقال لهم : إذا بويح لأمرين فاقتلوا آخرهما .

فهذه خلالٌ مَنْ راضٍ بها خاصّته ، وساس بها حاشيته ، واستعملها في عمّاله - رجوتُ أن يكون قد أدّى حقهم من التأديب والتقويم وحق الله فيهم ، وأصلحهم وأصلح بهم إن شاء الله ، وبه القوة والحول والمنّة والطولُ .

* * *

البَابُ السَّابِعُ

فِي سِيَاسَةِ الْعَامَّةِ

قد ذكرنا فيما تقدّم من كتابنا ما يجب على الملك الفاضل والنسائس الكامل من الاقتداء بالله فيما للعبد إدراكه ، على مقدار الجهد ومبلغ الوسع ، والاثثار بأمره ، والرغبة فيما رغب فيه ومدح عليه .

وقد وصف الله نفسه بالرحمة بخلقه والعدل عليهم ، فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ ﴾^(١) . وقال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾^(٢) . وقال : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾^(٣) .

ثم مدح النبي ﷺ بهذه المديحة ، وفضّله بهذه الفضيلة فقال : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾^(٤) . وقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۝ ﴾^(٥) . وقال : ﴿ فِيهَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ۝ ﴾^(٦) . وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۝ ﴾^(٧) . وقال : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ۝ ﴾^(٨) .

(١) آية ٤٣ الأحزاب

(٢) آية ٣٤ المائدة

(٣) آية ٣ الفاتحة و١٦٣ البقرة

(٤) آية ١٢٨ التوبة

(٥) آية ٢٩ الفتح

(٦) آية ١٥٩ آل عمران

(٧) آية ٩٠ النحل

(٨) آية ٨ المائدة

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١).

وقال - جل وعز - فيما وصف به نفسه من العدل ، ونفى عنه من الظلم والجور: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٢). وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٣). وقال: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤). وقال: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ (٥).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من والٍ يلي جماعة إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان أنجاه عدله وأهلكه جوره » (٦).

وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه كان إذا بعث عماله خرج معهم ماشياً وهم ركاب ، فإذا أراد أن يفارقهم قال : اتقوا الله فإننا لا نؤمركم على دماء المسلمين ولا على أموالهم ولا على أبشارهم ولا على أعراضهم ، ولكننا نؤمركم لتصلوا بهم الصلاة لوقتها وتجاهدوا بهم على عدوهم ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل . ألا لا تضربوا العرب فتذلّوهم ، ولا تمنعوهم حقهم فتحرموهم ، ولا تجمروهم (٧) فتفتنوهم .

قال : وكان نبي الله داود عليه السلام يقول : اذكر الجائع إذا شبع ، واذكر العريان إذا اكتسيت .

(١) آية ١٣٥ النساء

(٢) آية ٤٧ الأنبياء

(٣) آية ٤٦ فصلت

(٤) آية ٣٣ النحل

(٥) آية ٣١ غافر

(٦) مسند أحمد ٢ ، ٤٣١

(٧) تجمروهم : تجمير الجيش جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم .

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إن كنت أميراً أو وزيراً أميراً أو داخلاً على أمير أو مشاوراً أميراً فلا تجاوز سنتي فإنه أيماً أميراً أو وزيراً أميراً أو مشاوراً أميراً أو داخلاً على أمير خالف سنتي وسيرتي فإنه تأخذه النار يوم القيامة من مكان ثم يصير إلى النار .

وقال القاسم بن عبد الرحمن : كان عمر إذا بعث عماله قال : إنني لم أبعثكم جابرة وإنما بعثتكم أئمة ، لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ولا تحرموهم فتظلموهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، وادروا لحق المسلمين ، يعني العطاء .

وجدنا في بعض عهود الهند أن العدل ميزان الله في الأرض يؤخذ به للضعيف من الشديد ، وللمحق من المبطل ، فمن أزال ميزان الله عما وصفه الله من القيام بالقسط بين عباده فقد أعوز أشد الأعواز ، واغتر بالله أشد الغيرة . فاستعن على العدل بخصلتين هما طلب الهدى والتثبت في الأمور .

تم ما أوجب الله للمؤمنين بعضهم على بعض إذ قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١) .

وقال النبي ﷺ : «المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يظلمه» (٢) .

وقال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » (٣) .

وقال : «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً» (٤) .

(١) آية ١٠ الحجرات

(٢) رواه أبو داود في الأدب ٣٨

(٣) رواه البخاري في الإيمان ١٧ ، ٣٨ . وأبو داود في الجهاد ٩٥ . والترمذي ، تفسير ٨٨ وابن ماجه ، فتن

١ ، ٣ . والدارمي ، سير ١٠ . وأحمد في المسند ٤ - ٨ .

(٤) رواه البخاري في الصلاة ٨٨ . أدب ٣٦ ، مظالم ٥ . ومسلم في البر ٦٥ ، والترمذي ، بر ١٨ .

والنسائي ، زكاة ٦٧ . وأحمد في المسند ، ٤ - ١٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٩

فيجب على الملك المشارك في الإيمان لرعيته أن تكون صفته معهم هذه
الصفة ، ومعاملته إياهم هذه المعاملة .

وقد روينا فيما مضى من كتابنا عن النبي ﷺ أنه قال : « كلكم راعٍ
وكلكم مسئول عن رعيته »^(١) . وعلمنا أن الراعي والرعية والسائس والمسوس هما
اسمان من أسماء الإضافة لبقاء لأحدهما إلا بالآخر ، وأنه ليس حاجة الراعي إلى
الرعية بأقل من حاجة الرعية إلى الراعي وكذلك الملك .

ولذلك ما مثل الناس الرعية بالبدن ، والراعي بالرأس ، وقالوا إن الرعية إذا
هلكت هلك الراعي ، وإذا فسدت فسدت حال الراعي ، وكلما دخلها نقص في
أموالهم ودمائهم رجع ذلك النقص عليه .

وقال بعض الملوك المتقدمين : وبُعد الوالي من القدرة على استصلاح نفسه
مع استفساد الرعية كبُعد الرأس من البقاء بعد هلاك الأركان ، غير أن الوالي أجدر
بإصلاح الرعية الفاسدة وإفساد الرعية الصالحة من الرعية بإصلاحهم الوالي
وإفساده ، لفضل قوته عليها ، ووهن قوتها عليه .

إصلاح
الرعية

ومما يجب أن يكون معلوماً أن زينة الملك بصلاح الرعية ، والرعية كلما كانت
أغنى وأسرى وأجلّ حالاً في دين ودنيا ، ومملكته كلما كانت أعمر وأوسع كان الملك
أعظم سلطاناً وأجل شأناً ، وكلما كانت أوضع حالاً وأخسّ بالاً كان الملك أخسّ
مملكة وأنزر دَخْلاً وأقلّ فخراً .

فلا ينبغي للملك السائس أن يبتغي عمارة منزلته بتخريب منازل الرعية ،
ولا توفير خزائنه وبيوت أمواله بإخلاء بيوت العامة وإقلاها ، فإنه ليس زينته

(١) رواه البخاري في الأحكام ومواضع أخرى . ومسلم وأبو داود في الإمارة . والترمذي في الجهاد . ومسنند
أحمد ٢-٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ وغيرها .

ومباهاته بعمارة المملكة وكثرة دخلها ووفور أغنيائها ومشايخها ودهاقتها^(١) وعلماؤها وفقهاؤها وذوي آرائها وسرواتها وحكامها ونسآكها وحكمائها وأصناف ذوي المراتب والمناقب منها - بأقل من زينته بعمارة قصوره وفصول دُورِه وكثرة خيوله وجنوده وخدمه وأثاثه .

وليس عزته على أعدائه برعيته السامعة المطيعة المحبة له الذّابة عنه بأوهى من قوّته بأعوانه وجنوده .

ولا خوفه من أعدائه الخارجين من مملكته المخالفين له في ملّته وأُمّته بأشد من خوفه من مخالفة قلوب رعيته .

بل ما يأتيه من هذه الأبواب كلها من جهة رعيته أبلغ وأرفع وأعظم وأقطع .

ثم إن الرعية والراعي يجمعهما قرب المجانسة والمناسبة ومشاكلية الطبيعة والصورة ، والحامّة^(٢) والمناسبة توجب الشفقة والمائلة ويجب لهم مع ذلك حق المِلّة والذمة .

وقد جعل الله المؤمنين إخوة ، والذمة أمانة . وإنما يجب عليهم الطاعة بشرطية المعدلة والوفاء بالعهد والرأفة والرحمة .

فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لقريش عليكم حقاً ما إن استُرّحوا رحوا ، وإن حكموا عدلوا ، وإن عاهدوا وفّوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً »^(٤)

(١) الدهاقنة : جمع دُهْقَان بضم الدال وكسرهما وتسكين الهاء ، وهو رئيس الإقليم ، والكلمة من أصل فارسي .

(٢) السروات : الأشراف وهي جمع الجمع لكلمة سري ، والفعل سرّو والجمع سراة .

(٣) الحامّة : خاصّة الرجل من أهله وولده .

(٤) مسند أحمد ٣/ ١٢٩ و ١٨٣ وغيرها .

وقال: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(١) .

وقال: « إنما الطاعة في المعروف »^(٢) .

على أنه لا بد لكل صانع وساع في العلم من معرفة بصناعته ، من حذق بها وآلة يستعملها ، ومادة يؤثر ما يغترضه^(٣) فيها ، وغرض يغترضه في ثمره عمله .

فصناعة الملك السياسة ، وعلمه حذقه بها ، ومادته فيها وآلته جنده وأعوانه وعماله وخدمه ، ومادته رعيته ، وثمره عمله ما يحصل له من ثواب الله العظيم في دار النعيم في الآجل ، وحسن الأحدث عنه في الغائب والشاهد والآتي والحاضر ، وزينة عمله وحسنه الدال على حذقه بصناعته وتقدمه فيها عمارة مملكته وصلاح حال رعيته .

فعلى حسب هذا يجب أن يعمل الملك ويدأب ويجهد ، فإنه إن خالف هذه الطريقة وتنكبها وفارقها وعدل عنها أفسد رأس ماله الذي هو المادة وأبطل ثمره عمله ، ودل على جهله بصناعته ، وذلك أبين الخسران .

وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ، وجور ساعة في حكم أعظم عند الله من معاصي ستين سنة »^(٣) .

وكذلك روى عن كثير من ملوك العجم أنهم كانوا يقولون : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بحقيق للرعية أن يدعوا للملك الصالح لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح .

(١) هما حديث واحد رواه مسلم في الإمارة وأبو داود في الجهاد، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الجهاد. ومسنده أحمد ٩٤ / ١ وغيرها .

(٢) اغترض الشيء جعله غرضاً يسعى إليه .

(٣) لم أجد هذا الحديث فيما تيسر لي من كتب السنة .

ولقد قرأنا في بعض سير الهند أنه ليس أحد أصلح لعباد الله ولا أسعد برضوان الله من الولاة إذا صلحوا ، ولا أفسد لهم ولأنفسهم إذا فسدوا ، لأن الوالي من الرعية بمكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به ، وبوضع الرأس من الأركان التي لا بقاء لها إلا معه .

وبالوالي - مع فضل منزلته - من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثل ما بالرعية من الحاجة إلى صلاح الوالي ، لأن قوة بعضهم زيادة في قوة بعض ، ووهن بعضهم سريع إلى إيهان بعض .

فمن حق الرعية على الإمام إذا أمرهم بالطاعة والنصيحة والمؤازرة وأداء من واجبات الراعي الأخرجة والمؤنة وجزية أهل الذمة وزكاة أهل الملة - أن يعز دينهم وأن يحملهم على مناهجه ومعامله ، ويقيم فيهم الصلوات من الأعياد والجمعات والمواسم ، وأن يحمي حوزتهم ويسد خللتهم ويقاتل عدوهم دونهم ، ويعمر بلادهم ويؤمن سبلهم ويحفظ ذمتهم وينصف مظلومهم من ظالمهم ، وضعيفهم من قويهم ، ويحفظ عليهم أموالهم وأشعارهم وأبشارهم ، ويقيم حدود الله فيهم التي حدّها لهم وعليهم ، بلا هوادة ولا ميل ولا حيف ، ويوفر حقوقهم من بيت المال على ما جاءت به السنّة وأوجبته لهم الشريعة .

فمن لم يوفر حقهم عليهم وطالبهم بحقه كان أول ظالم وأظلم غاشم .

وقد جعل الله - عز وجل - السلطان حكماً بينهم يمنع بعضهم من بعض ، فكيف بمن يظلم ويضيم ؟!

وقد قال الحسن البصري : إنما جعل الله السلطان ناصراً لدينه فكيف بمن استحل به الظلم ؟

ونحن نجمع ما يجب عليه من ذلك ونفسره ونبدل عليه ونبين عن وجه الصلاح فيه في عشر خصال :

منها ما لا فرق بين الخاصة والعامة فيه ، لأن خاصة الملك على مقدار التقارب من غيرهم عامة ، إذ قد يتفق أن لا يكون في البلد الواحد من البلدان أكثر مما في جملة الملوك من عبيده وخدمه ولا مثل عددهم .

ومنها ما يفرد به العامة دون الخاصة .

فمما يشمل الخاصة والعامة ما ذكرناه من الحمل على ظاهر الشريعة والحث عليها والترغيب فيها ، وإظهار كرامة المتدينين عليه ، وجلالتهم عنده .

والمنع من إظهار الفساد والفجور من الميسر وشرب الخمر وإظهار السكر والفسوق والقدف والنياحات الفاحشة على الموتى ، وكل محرم ومكروه في الدين ، وما يدخل في أبواب الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

القضاء
على
الفساد
والمفسدين

والثانية ما ذكرنا من حماية بيضتهم وصيانة حوزتهم ، ومجاهدة أعدائهم والباغين عليهم ، وكفائتهم ذلك ، حتى تدر معاشهم ويأمنوا معرة أعدائهم ، ويشغلوا بمكاسبهم ومساعيهم ، ويتهيا لهم عمارة المملكة ، ويسهل عليهم توفير الأخرجة والوظائف والصدقات والضرائب على بيت المال ، ويكثر أهلها ويعظم سوادها من المقيمين والطارئين ، وبالتناسل والتوالد .

وإن ذلك من أدب الله - جل وعز - وخاصة الأنبياء والأئمة والملوك .

وبلغنا عن الخليفة هارون الرشيد أنه كان يسري في بعض أسفاره وغزواته وقد ألح عليه الثلج فأذاه ، فقال له بعض أصحابه : أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعية وأدعة؟ قال : اسكت للرعية المنام وعلينا القيام ولا بد للراعي من حراسة رعيته . فقال أبو محمد التيمي في ذلك :

غضبت لغضبتك القواطع والقنا لما نهضت لنصرة الإسلام
ناموا إلى كنف لعدلك واسع وسهرت تحرس غفلة النوام

والثالثة - قمع ذعارهم وأهل العيث والفساد فيهم ، وشغلهم عنهم بقتل أو صلب أو نفي أو حبس أو قطع ، على ما جاءت به الشريعة في الكتاب والسنة ، وأن لا تحمله الرقة لهم والميل إلى بعضهم على المحابة فيها ، فإن المحابة لهم ترك المحابة نفسه وفي الإبقاء عليهم في هذا الباب إهلاك لهم .

وقد وصف الله - جل وعز - نبيه ﷺ وفضلاء أصحابه بالرحمة والرافة ، ثم قال لهم : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾^(١) فكانوا على ما قال وأمر ، منتهين عما نهى وزجر .

وقال فيما وصف به نفسه : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

فالاعتداء بالله ورسوله أولى بالعبد وإن شق عليه .

ثم يجب عليه أن لا يتعدى حدود الله وما أمره به تعظيماً للعقوبة وتفخياً لها ، فإنه لا عقوبة أهيأ في النفوس ، ولا أهول في العيون ، ولا أولى بالردع ، ولا أخرى بأن لا تورث المعاقب حقداً وعداوة وموجدة من عقوبة يحال بها على الله وعلى دينه الذي يقر به المعاقب .

على أن من تعدى في الزيادة تعصياً وحمية يوشك أن يجابي وينقص رضاً وميلاً ، ويعفو عن الجريمة في بعض الأوقات ، وفي ذلك تعطيل للحدود وإهمال للرعية وإحراج لأهل المملكة .

ومع أن الاسلام قد قيد الفتك ومنع من المثلة وحرّمها فمن حق الملك أن لا يعاقب تعصياً ولا تغضباً ، وإنما يعاقب تأديباً وتديناً ، فالوجه أن لا يخالف حكم دينه فيها ، ثم ينظر في إقامة هذه الحدود وتأديب أهل الجنايات منهم ، ويبحث

(١) آية ٢ النور

(٢) آية ٩٨ المائدة

عنها ويستقصي فيها ، ولا يقدم على أحد في شيء من العقوبات إلا بعد البيان والبرهان .

معاملة السجناء
فأما من يوجب عليه الحبس منهم فالواجب أن يتفقد أحوالهم ويبحث عن أمورهم في ثلاثة مواضع :

أولها : أن لا يحبس أحداً إلا بعد وجوب الحبس عليه .

والثانية : أن يتعهدهم في حبوسهم في مآكلهم وملابسهم فإنهم قوم قد منعوا من التصرف لأنفسهم والسعي لها ، وليس لكل منهم مال ينفقه وولي يتعهده ، فكفايتهم وتعهدهم على الإمام الذي هو ولي المسلمين ، والسلطان ولي من لا ولي له .

والثالثة : أن يعرضهم في الوقت بعد الوقت ، فلعله أن يثوب مذنب أو ينيب مجرم ويعرف حق من الخصوم أو يندم مبطل ، وأن يكون^(١) فيهم من يضع عياله الذين كان مَعُوَّهَم على كدحه ، واعتمادهم على كده ، ومعاشرهم من كسبه .
والمرضى^(٢) الذي لا ممرض له يمرضه ولا طبيب يحضره .

ثم إن الحبس من عظيم العقوبات ، وإنما يجب أن تقع العقوبات على مقادير الذنوب ، فلا يجوز أن يساوي بين ذوي الجرائم صغارها وكبارها في التخليد والإخراج والتقييد والإطلاق ، إلا المصر الذي وجب عليه الحبس من فساد في الأرض ثم لم يقلع ولم يتب .

والرابعة أن يحكم بينهم في مظالمهم ودعائهم وسباع بيناتهم وشهاداتهم بكتاب الله - عز وجل - وسنة نبيه ﷺ وما يوجبه الحق والحكم ، ويجتهد في

(١) أي ولعله أن يكون في المحبوسين من يضع عياله بجسبه

(٢) أي ولعله أن يكون فيهم المرضى .

اختيار الحكام حتى لا يولي إلا الدين العفيف ، والعالم الفقيه ، والأريب الأمين
الوقور الرزين على ما ذكرناه في الباب المتقدم لهذا الباب .

ويتقدم إليه بالاستقصاء في البحث والنظر والأخذ للضعيف من القوي ،
وأن لا يعجل أمراً قبل تمام البحث والاستقصاء ، ولا يماطل به بعد ثبات الحجة وقيام
البينة ، فإن في كلتا الحالتين إهمالاً وتضييعاً ، وإنه لم يحكم بالميل وحاف عن
العدل على المحكوم عليه ، ولكنه حكم له على نفسه ، وجعله خصمه يوم القيامة
عند من لا يظن به الميل ولا يقع في قضايا الضيم .

ولم تزل تلك وصية الله لأنبيائه ، وأوامره الملقاة إلى أوليائه إذ قال : ﴿ يَا
دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾^(١) .

ثم ملاك أمر القاضي والحاكم أن يعينه الوالي بما يدر عليه من الأرزاق السنية
الواسعة الهنية ليتنزّه عن أموال الرعية والطمع فيها ، فإن الحرص على الدنيا لا سيما
في زماننا هذا قد صار عادة للعلماء ، وعلى غير هذا كان يجب أن يكونوا ، فقد روينا
عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ازداد أحدٌ علماً فازداد به على الدنيا حرصاً إلا ازداد
من الله بُعداً وازداد الله له بغضاً » .

ولأرسطاطاليس في هذا الباب فصل جامع إذ قال : الحاكم سيد على من
وليه فتفقد من الحاكم أربع خصال وهي أن يكون حياً ، وأن يكون ورعاً ، وأن
يكون عالماً ، وأن يكون غير عجول .

واعلم أن الحاكم يزين الحكم [باستقامته] ، ويوسخه لوسخه ولزومه غير
الطريق . قال : واحذر أن يكون الحاكم مشتتاً للكلام فإن الحكومة لا يصلح لها
من كان كذلك .

(١) آية ٢٦ سورة ص

وكمال أمره أن يغنيه عن أموال الرعية ويوسع عليه أرزاقه ، ويقتصر عليه عندما تظهر منه النصيحة ، ولا يسرع في شهرته .

وإن أنكرت عليه شيئاً من أمور الرعية ففتشه كما يفتش الحاكم بالسنة القائمة ، واحمله على خطة الحكومة وإن كان مرضياً في الناس وأنكرت عليه في أمرك خاصة فاستره واشهر غيره بحسن الحال والمعرفة ، فإذا صار عند الناس مشهوراً معيناً لهم عن الأول فاصرع الأول بما لك عليه من الحجة الظاهرة القوية .

ويجب أن لا يغفل القاضي عن استعمال ما تضمنته رسالة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري فإنها من أوائل علم القضاء ، كتب اليه :

أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . وواس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع في حيفك شريف ، ولا يخاف جورك ضعيف . البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً .

رسالة عمر
في القضاء

لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعتك الحق خير من التماذي في الباطل .

الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك بما ليس في القرآن والسنة . واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها إلى الحق فيما ترى .

واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنة أخذت بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أجل للعمى وابلغ في العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً حداً ومجرباً عليه شهادة زور

وظنيناً^(١) في ولاء أوقرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات .

ثم إياك والضجر والقلق والتأذي بالناس والتكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخرفانه من يخلص نيته لله فيما بينه وبينه ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس .

ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلافه يشنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزق الله وخزائن رحمته؟! والسلام .

قالوا وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان :

أما بعد فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ألزم خمس خلال ، افهمها يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك :

إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة واليمين القاطعة ، واذن الضعيف حتى يشتد قلبه ويبسط لسانه ، وتعاهد الغريب فإنك إن لم تتعاهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، وإنما ضيع حقه من لم يرفع به رأساً .

وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبين لك فصل القضاء .

انزلوا
الناس
منازلهم
والخامسة أن يعرف طبقات الناس ومراتبهم من أبناء الملوك والأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم ، والعلماء والنسك وذويهم ، وأرباب الضياع والأرضين والتجار والصناع والمهنة وأصحاب الأقدار منهم ، ويرتبهم مراتبهم وينزلهم على منازلهم فيوفر على كل طبقة منهم حقهم على مقادير أسبابهم ومراتبهم من البشر والتقريب والإرفاق والترتيب ، فإن ذلك مما يحرضهم على التسابق في طلب الخير ، والتباهي في نيل الفضل فيما هم فيه ، فيكون ذلك سبباً لانتظام أمورهم واتساق أحوالهم وطيبة أنفسهم .

(١) الظنين: الذي هو موضع ظن

وإذا عوملوا بخلاف ذلك أداهم إلى الخنق على السلطان وإضمار السوء له ، لأن من رأى في نفسه فضلاً من شرف أو علم أو نجدة أو مجد أو بلاء أو كفاية فجهل حقه وحرّم منه ما يستأمله ويستحقه أحفظه ذلك إحفاظاً وأحقده إحقاقاً ، وخيل إليه أنه قد منع حقاً واجباً ودينياً لازماً ، وظلم ظلماً عظيماً . ومن قدر في نفسه ذلك اختار في دفعه عنها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن لم يجد كانت طاعته طاعة مكرّه مجبور مضطهد مقهور ، لا طاعة محب مختار .

وقد أوجب الله ذلك في كتابه ، وبينه لنبيه عليه السلام ، وجعله من دينه حيث قال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) .

ويقول : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أَوْلَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٤) .

وقال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾^(٥) .

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾^(٦) .

(١) آية ٢١٥ الشعراء

(٢) آية ١٠ الحديد

(٣) آية ٩٥ النساء

(٤) آية ٩ الزمر

(٥) آية ٢٠ الحشر

(٦) آية ٢١ الجاثية

وقال النبي ﷺ : «أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم»^(١). وبسط رداءه لقيس بن عاصم المنقري وقال : إذا أتاكم كريم قوم فاكرموه.

وقال يوم الفتح : مَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمنٌ .

وقال : كل الصيد في جوف الفراء .

وأعطى يوم حُنين كثيراً من المؤلفَةِ قلوبهم أكثر مما أعطى كثيراً من فضلاء المؤمنين .

ثم مدح كل قوم بما فيهم ، ودعا لكل واحد بما يستحقّه ، وفضل كلًّا من أصحابه بما استوجبه ، واصطفاه لما هو أهله .

فبالله قدوة ، وفي رسوله أسوة . وهذا باب من السياسة كثيرة منفعتها ، عظيمة مضرتها .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري :

أما بعد ، فإنه لم يزل للناس وجوه يذكرون بحوائج الناس ، فاكرم وجوه الناس قبلك ، فبحسب المرء الضعيف المسلم أن ينصف في العدل والقسم .

ولم يزل الملوك يتواصلون بالمحافظة على هذه الخلّة ، والمثابرة على تعهدها ، فإذا تتبعت كتبهم وعهودهم لم تجد عهداً جامعاً ولا كتاباً كاملاً يخلو منها . وقد قال أردشير في عهده :

اجعلوا حديثكم لأهل المراتب ، وحباءكم^(٢) لأهل الجهاد ، وسيركم لأهل الدين .

(١) تكملة الحديث: . . . «إلا الحدود» أي لا إقالة ولا عفو عنهم في الحدود. رواه أبو داود في الحدود، واحد ١٨١/٦ .

(٢) الحباء: بكسر الحاء وفتحها، العطاء

وفىما كتب به أرسطاطاليس إلى الاسكندر : دافع عن أهل المروءات ومن كان له قديم في الخير ، وإن تضعضعت أحوالهم فإن أسلافهم فخر لك ، كفاك شرفاً أن تميل إليك أبناء الملوك .

وقال : لا تكشف أستار أهل الأقدار والأنفة ، فإن عيب ذلك راجع على ملكك .

قالوا : وقد قال اردشير : عاملوا أحرار الناس بالمودة محضاً فإنهم لا يهتملون الهوان ، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة ، وعاملوا السفلة بالرهبة صراحاً . فأخذ هذا المعنى بعض المحدثين فقال شعراً :

إذا كنتم للناس أهل سياسة	فسوسوا كرام الناس بالرفق والبذل
وسوسوا لثام الناس بالذل يصلحوا	على الذل إن الذل يصلح للنذل
وكونوا لأوساط الرجال كمازج	رُعافاً ^(١) وماذياً كأحلى جنى النحل
ولينوا لهم طوراً ببسطة كرامة	وتخلوهم طوراً قياماً على رجل

وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر: قدّم من كان مشهوراً بالورع ، واقض حوائج العامة بهم .

والسادسة أن يمنع العامة ظلمه وظلم أصحابه وحاشيته ويقطع طمعه وأطماعهم عن أموال المسلمين وفروجهم وأشعارهم وأبشارهم ، وينصف لهم من نفسه ، فقد بينا ما في الظلم من الفساد ، وما في خلافة من الصلاح ، وإن هذا أولى الأمور بالملك تكرماً واستصلاحاً ورأياً وأصالة ، لأنه قادر عليهم وظلم الإنسان من تحت يده وملكه لؤم ودناءة .

ثم إن الرعية إن ظلم بعضها بعضاً كان السلطان هو المفزع والمستغاث

(١) الزعاف: السم القاتل، ومثله الزعاق. والماذي: العسل الأبيض

والملتجأ والمستعدي ، وإذا هو ظلم لم يكن فوقه يد قابضة ، فيصير ذلك عادة يصعب انتزاعها ، وذرية^(١) يتعذر تركها .

على ما في هذه الحلقة يعني العدل من الائتمار بأمر الله والاقتداء به ، والإستئان بسنن الصالحين من أنبيائه وأوليائه وسلوك سبيل الحكماء المبرزين .

على ما وعد الله العادلين من جزيل الثواب وكريم المآب ، وأوعد به الجائرين من أليم العذاب وشديد العقاب .

وقد قال النبي ﷺ وقد تقاضاه يهودي فأساء التقاضي وأغلظ في القول : دَعُوهُ فَإِنَّ لَصَاحِبِ الْحَقِّ يَدًا وَلِسَانًا .

وتحاكم أمير المؤمنين عمر إلى زيد بن ثابت ، وعرض على خصمه اليمين حتى اصطلحا .

وتحاكم أمير المؤمنين إلى شريح قاضيه ، وحكم الحكمين واحتل ما لزمه بعد التحكيم من الضيم .

وقال النبي ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة^(٢) » .

وقال : « من غَضِبَ شَيْئاً مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ^(٣) » .

وقد قرأنا لبعض ملوك الهند في عهده إلى ابنه : واعلم أنك مَنْ نِلْتَ مِنْهُ مَظْلَمَةً أَوْ أَفْرَطْتَ عَلَيْهِ فِي عَقُوبَةٍ فَإِنَّ الَّذِي أَتَيْتَ بِهِ إِلَى نَفْسِكَ أَشَدَّ مِمَّا أَتَيْتَهُ إِلَيْهِ ، فَإِنْ كَلِمٌ^(٤) الدُّنْيَا تَعْفُو وَتَبِيدُ آثَارُهَا ، وَكَلِمٌ الْآثَامُ لَا زِمَةَ لِلنَّفُوسِ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهَا الْقَصَاصُ .

(١) في اللسان أذراه بالشيء أولعه به

(٢) رواه مسلم في البر ٥٦ و ٥٧

(٣) رواه البخاري في المظالم ، ومسلم في المساقاة

(٤) كلوم: جروح

وكذلك لم تزل الملوك الخزمة يتواصون به ويأمرون به في عهودهم ،
بعض عدل ويحشون به كتبهم ، ويرسلونه آثاراً في سيرهم ، فقد كان ملوك آل ساسان الذين
ملوك الفرس بقيت آثارهم على وجه الزمان ، لهم في السنة يومان في النيروز والمهرجان ،
يظهرون فيهما للخاصة والعامة فلا يحجب عنهم في هذين اليومين أحد من صغير
ولا كبير ، ولا شريف ولا وضيع ، وكان يأمر الملك منهم بالنداء في مملكته قبل
قعوده بأيام ليتأهب الناس ليوم المحفل ، فيُعيد المظلومون حججهم ويكتبون
قصصهم ويحضرون خصومهم ، وربما اصطلع كثير من أهل المظالم قبل ذلك
اليوم خوفاً من الفضيحة والتنكيل والعقاب الشديد ، فردوا ظلاماتهم وأصلحوا
تبعاتهم .

فإذا كان ذلك اليوم أمر الموبدان وهو قاضي قضائهم أن يوكل رجلاً من ثقات
أصحابه فيقف بباب العامة فلا يمنع أحداً من الدخول على الملك ، وينادي مناديه
من حبس رجلاً عن رفع مظلمة فقد عصى الله وخالف سنة الملك ، ومن عصى الله
فقد آذن بخزي منه ومن الملك .

وأمر الملك أن يؤذن للناس ، يأخذ رقاعهم ويتأمل ، فإن كان فيها متظلم
من الملك بدىء به أولاً وقُدِّمت على كل مظلمة . ويحضر الملك الموبد الكبير ورأس
سدنة بيوت النيران ، ثم يقوم مناد فينادي ليعتزل المتظلمون من الملك ،
فيعتزلون ، ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبد ، فيقول : أيها
الموبد ، إنه لا ذنب عند الله أعظم من ذنب الملوك وإنما خوفاً رعايا لتدفع عنها
الظلم وتذب عن بيضة الملك ظلم الظالمين وجور الجائرين ، فإذا كانت^(١) هي
الظلمة الجائرة فيحق لمن دونها هدم بيوت النيران ، وسلب ما في النواويس من
الأكفان . ومجلسي هذا منك وأنا عبد ذليل شبيه مجلسك من الله غداً ، فإن آثرت
الله آثرك ، وإن آثرت الملك عذَّبك ، فيثنى عليه الموبد خيراً ويقول له جليلاً ،

(١) أي الملوك

وربما قال : إن الله إذا أراد سعادة عباده اختار لهم خيراً أهل الأرض ، وإذا أراد أن يعرفهم قدرته أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك .

ثم ينظر في أمره وأمر خصمائه بالحق والعدل ، فإن صح على الملك شيء أخذ به ، وإلا حبس من ادعى عليه باطلاً ونكل به ونادى عليه هذا جزاء من أراد شين المملكة والقدح فيها بالباطل .

فإذا فرغ من مظالم الملك قام فسجد لله طويلاً وحمد الله كثيراً على ما رفع عنه من المظالم وحط عنه من الأوزار ، ثم وضع التاج على رأسه ، وجلس على سرير الملك والتفت إلى قرابته وخاصته وحامته^(١) ، فقال : إني لم ابدأ بنفسي فأنصفت منها إلا لثلاثا يطمع طامع في حيفي ، فمن كان قيله حق فليرد إلى خصمه منه ، إما بصلح وإما بغيره .

ثم كان اقرب الناس إلى الملك في الحق كأبعدهم ، وأقواهم كضعيفهم . قالوا فلم تزل الناس على هذا من لدن عهد اردشير إلى أن ساسهم يزدجرد الأئيم ثم غير هذه السيرة في المعدلة وقتل أباه وكان من أمره ما كان .

ثم عاد بهرام جور إلى بعض السيرة في المعدلة والنصفة وإن كان قد غلب عليه في أكثر أحواله اللهو واللعب .

وقد كتب الحكيم إلى الاسكندر : خير لك يا اسكندر أن تجلس للعامة كافة في اختلاف النسنة ، وتلزم سنة الهند فإنها ممدوحة ، وتفقد ما انتهى إليك وجد في البحث عنه ، وواتر عليهم المواعظ ، وحدد الأوقات في اجتماعهم . ونقول إنها سيرة حسنة لولا تراخي المدة بين المجالس ، فإنه إذا وقع مثل هذا فيما بين السنين والشهور ارتكب الناس الجور والظلم مطمئين ساكنين إلى وقت المجلس ، فكم

(١) الحامة : الأهل والقرابة

من مظلوم يموت قبل إمكان طلب حقه ، وظالم يفوت . وكم من ضعيف يعجز ،
وصحيح يمرض ، وغريب يؤوب إلى وطنه فيضيع حقه .

ولكن يجب على الملك أن يفعل ذلك فيما بين الأسابيع والجمعات والشهور ،
وفما بين ذلك يستكفي من يكفيه بعد أن يقوي يده وعزمه ، ويقدم إليه بالوعيد
البات ، ويعلمه ذلك من رأيه إن اطلع منه على إضاعة أوفتور أو حيف أو ميل على
ما بيّناه في موضعه من الكتاب .

ومن ماثور آثار العجم في هذا الباب أن كسرى لما بنى الإيوان بالمدائن وقع
لعجوز ضعيفة في زاوية من زواياه بيت يمنع من إقامة تربيعه ، فطلبوه منها
بأضعاف ثمنه حتى بلغوا به أن يفرش وجه ذلك البيت بالدنانير ، فأبت وقالت إن
جوار الملك أحب إليّ من جملة هذا المال ، فبنوه منكسر التربيع ، فلما استوى
البنيان جاءت إلى الملك فقالت : إني لم أفعل ما فعلت بخلاً على الملك ولا محبة
لإيماشه ، ولكني فعلت ذلك محبة مني لأن يبقى للملك في احتماله عني وإنصافه لي
ورفقه بي منقبة تؤثر وفضيلة تُنشر على غابر الأيام ووجه الزمان ، فيكون أحسن به
وأبقى لذكره من هذا البنيان على جلالة خطره وبعد سمته ووثيق أساسه وقوي
أركانه ، فشكر لها ذلك وعدّها لها صنعة وأمر بإكرامها وحسن جوارها .

وذكر قحطبة بن حميد قال : كنت واقفاً على رأس أمير المؤمنين المأمون وقد
جلس للمظالم ، فلم يزل جالساً حتى كادت الشمس تزول ، فأقبلت امرأة عليها
أطمار بالية تعثر في أثوابها ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته ، قال : فنظر إلى يحيى بن اكثم ثم قال : وعليك السلام ، تكلمي رحمك
الله ، فقالت :

يا خير منتصف يهدي له الرشدُ ويا إماما به قد اشرق البلدُ
تشكو إليك عقيدَ الملكِ أرملةً عدا عليها - فلن تقوى به - أسد
فابتزّ مني ضياعي بعد منعتها طُراً وفارق مني الأهل والولد

قال فأجابها المأمون :

في دون ما قلّت عيّل الصبر والجلدُ
وأحرق اليوم مني القلب والكبد
هذا أو أن صلاة الظهر فانصرفي
ثم احضري لي في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يُقصر الجلوس لنا
أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

قال : فولّت ، فلما كان يوم الأحد جلس المأمون ، ولم يرد الجلوس إلا من أجلها ، فكان أول من دعا به المرأة ، فأقبلت في ذلك الزي ، فسلمت ، فرد عليها المأمون ثم قال : أين الخصم ؟ فأومأت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد ، يعني ابن أبي خليلد ، خذ بيده فاجلسه معها حتى يتناظرا ، فجعلت المرأة ترفع صوتها على صوت ابن أمير المؤمنين ، فقال يحيى بن اكثم : مهلا لا ترفعي صوتك على صوت ابن أمير المؤمنين ، فقال : دعها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه .

ثم إن المأمون حكم برد ضيعتها ، ولام العباس بظلمه لها ، وقال يا أحمد اكتب برد ضيعتها عليها ، واكتب إلى العامل هناك بارفاقها وحسن معونتها ، وادفع إليها ما تتحمل به إلى أهلها .

والسابعة هي أن يجعل على الرعية عيوناً ممن يداخلون طبقاتهم وجواسيس
للمراعي
عبون
وآذان
يتجسسون أخبارهم ويتتبعون انباءهم ولا سيما في مواضع الظنه والتهمة ، كما يفعل ذلك مع المنابذين له من الملوك والنظر والمجاورين له من الأصدقاء والأعداء ، وفي كل وقت وزمان .

ويجتهد في أن يحمل ذلك على السر من يأمن ناحيتهم ويعلم أمانتهم ، فإن

ذلك من محكم التدبير وبلغ التقدير وصواب السياسة ، وفيه التأديب بأدب الله ، والاحتذاء على رسوم أفعال الله ، وقد ذكرناه فيما تقدم من كتابنا بدءاً ، وكررناه تأكيداً وتأيداً .

إن الله - جل وعز - وهو المنفرد بعلم الغيوب الذي لا يشركه فيه سواه ، ولا يدّعي أحد بلوغ مداه - جعل على عباده من ملائكته كراماً كاتبين وحفظة يعلمون ما يفعلون ، ويكتبون ما يمكرون ، فقال حاكياً عن عباده أنهم يقولون في موقف القيامة وعند معاينة الأعمال المقدمة : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .^(١)

وقال : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .^(٢)

فكيف يجوز لعبد ذليل لا يسمع إلا بألة ضعيفة ، ولا يعلم إلا بتعليم واستفادة وهو قد كلفه^(٣) الله سياسة عباده - أن يغفل هذه الخلّة ويأمن الحوادث التي يجوز حدوثها من إهمال هذه الخلّة .

على أن النبي ﷺ مع اختلاف الملائكة إليه ونزول الوحي عليه ، واطلاع الله إياه على ما شاء من مكنون الغيوب وضماير القلوب - لم يدّغ هذا الباب .

فأما عن خلفائه الراشدين فحكى عن عمر رضي الله عنه أمور عجيبة وسياسة محكمة ، حتى كانوا يقولون إن علمه بما يأتي عنه من أقطار عمله كعلمه بما يأتي منه ، حتى ان العامل من عماله ليتهم أقرب الخلق إليه أن يرفع عليه .

وكان معاوية من الملوك كذلك ، وهذا كان أحد الأسباب المعينة له على ما

بلغه وانتهى إليه .

(١) ية ٤٩ الكهف .

(٢) آية ١٨ من سورة ق .

(٣) كلفه : أي أن الله كلف الملك .

واقضى أثره في ذلك زياد بن أبيه ، فإنه ذكر عنه أن رجلاً دخل إليه في حاجة له فكلمه فيها ، وظن أنه لا يعرفه ، فتعرف إليه بأبيه وقومه ، فتبسم زياد وقال : تتعرف إليّ ؟ ! إني لأعرفك وأباك وأمك وجدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك ، وهو لفلان بن فلان . فبهت الرجل وأربع حتى ارتعد .

وكذلك كان عبد الملك بن مروان من بني أمية .

وكان من خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور والرشيد والمأمون ، فإن لكل واحد من هؤلاء في هذا الباب آثاراً كثيرة وأخباراً يطول بذكرها هذا الباب ، حتى حكى عن كثير منهم أنه كان يخرج متنكراً فيطوف في الأسواق ويخرج في جوف الليل فيسمع أصوات خدمه في قصوره ودوره .

وكان عبد الله بن طاهر بخراسان كثيراً ما كان يخرج إلى الطريق فيسأل من لقي من المارة عن سيرته وسيرة عماله فيهم .

وكذلك حكى عن أردشير من ملوك العجم ، فإنه كان إذا أصبح علم كل شيء بات عليه أحد في قصبة مملكته وضمن داره من عامته وخاصته ، وإذا أمسى علم كل ما أصبحوا عليه حتى كان ربما يقول لأوضع خدمه وأرفعهم: كان عندك البارحة كذا وكذا ، وكنت تفعل كيت وكيت ، فكان كثير منهم يقول إنه يأتيه ملك من السماء فيخبره بها .

قال : وسئل أعرابي عن والٍ لهم فقال : ومن مثل فلان ؟ كان والله لا يطابق بين جفونه ، ويرسل العيون على عيونه ، فهو غائب عنهم كالشاهد ، فالمحسن آمن ، والمسيء خائف .

والثامنة هي أن يسهل حجابيه ويلين في الإذن جانبه ويتقدم إلى حجابيه وبوابيه أن لا يمنع عنه صاحب خبر ولا متظلم ولا متنصح يرد الباب في وقت جلوسه حتى يأذنوا له ويرفعوا خبره من غير تأخير ، فإن من الأمور أموراً يكون في

العادل
يفتح
أبوابه

تأخيرها فساد كبير وفتق عظيم ، ومنها ما يكون في تأخير وفوته من الفوائت مالا يمكن تلافيه ولا يتهياً تداركه . ومنها ما يجب في الدين تعهده وفعله واغتنامه في وقته ، فإن أعمال الدين أو عامتها مؤقتة^(١) ، فإذا فات منه عمل فات به خير كثير وأجر كبير وثناء حسن وذكر جميل .

مع أن في هذا الباب خلة هي من كبار العدل والنظر للرعية وإصلاح الخاصة والعامة ، وهي أن الخاصة إذا علموا ذلك وشعروا به قلّت أطعامهم في الرعية واضطهادهم وظلمها واقتسارها ، ثم سلم الملك من مكاييد الوزراء واستبدادهم بالسلطان دونه ، وتحرز من فلتات الحوادث وبغتات الأعداء ووقف على فنون الأعباء .

قالوا وكان مكتوباً على بساط زياد بن أبيه أن لا حجاب عن صاحب ثغر ولا طارق ليل ، ولذلك كانوا يقولون أخوف ما تكون الرعية آمن ما تكون الوزراء .

وليعلم الملك أن في شدة الحجاب تنفيراً لذوي الفضائل الجليلة والهمم البعيدة ، وتكديراً للصنيعة ، واستفساداً للرعية ودلالة على الريبة . وقد وصف كل ما ذكرناه الفضلاء من الملوك والوزراء في كتبهم ، والشعراء في شعرهم .

حكى الهيثم بن عدي أن خالد بن عبد الله القسري قال لحاجبه لا تحجب عني أحداً إذا اخذت مجلسي ، فإن الوالي لا يحجب إلا عن أحد ثلاثة : عمن يكره أن يطلع منه أو ريبة، أو بخل فيكره أن يدخل عليه من يسأله حاجة . فأخذ ذلك محمود الوراق فقال :

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابهِ	وردّ ذوي الحاجات دون حجابهِ
ظننت به إحدى ثلاث وربما	نزعت بظن واقع بصوابهِ
فقلت به مسٌّ من العي ظاهر	ففي إذنه للناس إظهار ما به
فإن لم يكن عي اللسان فغالب	من الشح يحمي ما له عن طلابهِ
فإن لم يكن هذا ولا ذا فريبة	يصرّ عليها عند إغلاق بابهِ

(١). مؤقتة : الى أن لها أوقاتها محددة ، كالصلاة والحج

وفي كتاب ابرننامه : لا ينبغي للملك أن يشتد حجابيه ، فإنه يدل على الكثير وسوء الملكة ، ويورث المقت وينغص المعروف وينسى الحسنات ويذكر السيئات ، مع ما ينقطع عن السلطان بذلك من منافع من يرد بابه ممن به إليهم أعظم الحاجة في وجوه العلم والعمل .

قالوا وحجب بعض ذوي الهمم البعيدة والأنفس الأبية عن بعض الملوك ، فرجع ، فأنشأ يقول :

سأترك هذا الباب مادام إذنه على ما أرى حتى يلين قليلاً
فما خاب من لم يأتته متضرعاً ولا فاز من قد نال منه وصولاً
إذا لم أجد يوماً إلى الإذن سُلماً وجَدْتُ إلى ترك المجيء سبيلاً

وقال آخر في قريب من هذا المعنى :

ولقد رأيت بباب دارك جفوةً فيها لحسن صنعة تكديرُ
ما بال دارك حين تدخل جنةً وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ

وقال بعض المجفوين بالحجاب :

سأترك باباً أنت مالك إذنه ولو كنتُ أعمى عن جميع المسالكِ
ولو كنتُ بواب الجنان بأسرها لأعرضتُ عنها مسرعاً نحو مالك^(١)

وقال بعض ملوك الهند في عهد له : واعلم أنه لا يكمل عمل والٍ حتى يكمل علمه بالرعية ، ولا يكمل علمه بالرعية حتى تأتية الرعية بذات أنفسها ، ويخبره أدناها عن أقصاها ، وليس ذلك كائناً إلا بفتح الأبواب ولين الجانب والنظر في المظالم ، فإن الملك إذا كان كذلك هابته العمال وتنوهم عن الظلم وتنصف الناس بينهم بالحق دون واليهم الأعظم ، فإذا الوالي مأخوذ فيما تولى من الحق بنفسه وفيما تعاطى الناس منه دونه .

(١) يريد بمالك خازن النار .

يقظة وحزم والتاسعة هي أن لا يجعل بحثه عن الأمور وإطلاعه عليها من هذه الجهات المذكورة وبهذه الأسباب المعدودة من خاصته وعامته وجنده ورعيته لعباً ولهواً وسلباً وهزلاً ، بل لمعرفة الحقائق وقضاء الحقوق وإثابة المحسن وعقوبة المسيء وتقريب الناصح البعيد ، وتباعد الغاش القريب ، وإقامة الأود ،^(١) وسد الخلل وانتهاز الفرص ومبادرة ما يخاف فوته ، ومعالجة ما يضر تأخيرته .

ثم رفع الولي وقمع العدو ، وتدبير أمر العدو الكامن في غمار الرعية ، فإن الرعية لا تخلو من عاقل محروم ، ومخاصم خصوم ، ومحقّ مظلوم ، ومبتدع يخالف رأيه رأي العامة والمليك ، لا يآلو المليك والمليك خبالاً ، وكريم محدود ، وحسيب مطرود ، وشريف مجفو ، وحكيم مجهول قدره ، وفاضل ممنوع حظّه من الإجلال والتعظيم ، وناسك يرى في دينه إزالة بعض ما يراه ويسمعه من المناكير في الراعي والرعية ، وفاتك يبتغي لخبث سيرته وشرار طبيعته للملك عادية ويتدبر بص به دائرة ليتهيأ له بعض ما يريده ويؤمله ويميل إليه بطبعه وسوء سيرته .

ثم ذوي نعمة ورفعة وسلطان ومنعة قد زالت على يدي الملك نعمتهم ، وبدولته^(٢) دولتهم ، وكل هؤلاء أعداء المليك والمملكة والراعي والرعية ، وهم إذا كانوا في ضمن المملكة وقلب البيضة كانوا أشدّ اهتداء إلى مهالكه وتمكناً في مقاتله من أعدائه الخارجين ومخالفيه النائين عن داره وضمن قراره .

فالوجه في إصلاح ذلك أن ينظر في العلة التي دعت إلى ما يرتكبه من مخالفة ويضمّره من مكيدة ، ويبعثه من غائلة ويلفقه من خديعة ، ويجري إليه من عداوة .

فإن كان ذلك من ظلم ناله أو عدوان حل به فالوجه أن يُنقَى عنه ويُكفاه ، ليعود إلى ما كان عليه ويزول عنه ما خامره .

(١) الأود : الاعوجاج .

(٢) أي أن دولتهم زالت بقيام دولته .

وإن كان ذلك من حرمان وجفوة فالوجه أن يُعطوا حقوقهم ويحسن إليهم .

وإن كان ذلك استزادة مبرة أو طمعاً في رفع مرتبة يجوز في رسوم المملكة وأحكام الشريعة إيصالهم إليها وتبليغ آمالهم منها فالوجه فيه إسعافهم وترك الضن بها عليهم .

وإن كان ذلك مدفوعاً في هذه الجهات ، وكان عارض من شهوة كاذبة وآمال غارة فالوجه أن يعرف ويقرر عنده استحالة من وجوه لطيفة وأبواب خفية ويوقف على مقداره ، وهدى إلى ما يزيل ذلك عن قلبه .

وإن كان ذلك لعداوة قديمة ودولة زائلة عمل في تداركها بالبر والإيناس والتقريب والإحسان ، وتقليد من يصلح تقليده منهم ، فإن القلوب قد جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

وإن كان ذلك من مخالفة في الدين فالوجه أن ينظر الملك في دينه ومذهبه ورأيه ومقالته ، فإن كان حقاً فالصواب موافقته وترك المعاندة فيه ، فإن ذلك من اجزل حظ يناله نائل ، وأعظم قسط يفوز به فائز ، وهو أولى الأشياء بالملك الفاضل والسائس العادل وكل مدبر عاقل ، فإن مراجعة الحق خير من التماهي في الباطل .

وإن كانت دعواه باطلاً ومذهبه فاسداً فالوجه أن يدعو إلى الحق سراً ، ويدس إليه جماعة يبصرونه الدين ويعرفونه الحق فلعل ذلك مما يردّه ويردعه ويكفي مؤنثة ويصلح به .

فإن لم يصلحه ذلك فالوجه أن يحضره مجلسه ويشهده محفله ويأمره بمناظرته فيه ومحاجته عليه ، ويشهره به ليتبين للخاص والعام بطلان مذهبهم وضعف مقالته ، ويشيع ذلك في الجمهور ليقفوا عليه ويحذروه .

ثم ينظر في مقدار بدعته ومبلغ فحش مقالته ، فإن استحق على مذهبه قتلاً قتله بعد استتابته منه واستدامته به وإصراره عليه ، وأراح منه .

وإن استحق تأديباً أدبه ، وإن استحق حبساً حبسه ، ولا يقع هذا الباب إلا في أصول الديانة وأم الشريعة دون الفروع والأحكام والمسائل الفقهية التي يجوز أن يتعبد الله به وبخلافه ، فإنه إذا فعل ذلك رجوت أن يدفع مضرته ويكفي المملكة وأهلها معرفته ، ويرفع عنهم فتنته .

وإن كان ما ذكرناه من حسد أو بغى وعداوة أورثه تقارب الأحوال من جهة وتبايتها من أخرى عرف أن ذلك من خلق مذموم وفعل مكروه في الدين والمروءة مضر بصاحبه فاضح له لا فائدة فيه .

فإن لم ينفع ذلك فالوجه أن يحتمل أن لا تجتمع له جماعة ولا يصير لشركته شوكة وعدة ، ويفرق بين نياتهم وضمايرهم وأبدانهم فيشغل جماعة ويقلد طائفة ، ويعطى أخرى على ما يقع في أمورهم وقديم أسبابهم من التدبير والتقدير بالرفق والمداواة ومطالعة الأسباب والأحداث ، والبحث عنها في كل وقت ومدة ويوم وساعة .

فإن لم يصلحوا فالوجه فيه وعظهم وتحذيرهم ، فإن لم ينفع حتى تفاقم الأمر وظهر الشر وبرح الخفاء عن مكنون السر ، كان سبيلهم سبيل الأعداء الخارجين عن الملة أو الباغين فيها .

وسنبين في تدبير الأعداء من هذا الباب ما فيه كفاية بمشيئة الله . وكل هذا الذي ذكرناه من تدبير الله الذي دبر عليه أمور خلقه ، وآدابه التي أدبهم بها ، ومأخوذ من دلائله التي أقامها ، إذ كان القديم - جل ذكره - لم يزل عالماً بمن يعاديه من خليقته ، ويخالف أمره من بريته ، ويمرق من طاعته ويعصيه من عباده ، فلم يمنعه ذلك من خلقهم واتخاذهم وإحداثهم وابتداعهم والامتنان عليهم بالحياة

والعقول السليمة والأعضاء القوية ، والإفضال على كل واحد منهم بما علمه أصلح له وادعى إلى طاعته .

ثم أراهم - بعد إبداء العداوة وإظهار المخالفة واتخاذ الآلهة دونه وعبادة الأصنام معه وإجراء كثير منهم إلى ضروب من العنود والكنود - دلائله ،^(١) وأحضرهم شواهد ، وبعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وبشرهم وأنذرهم ، ووعدهم وأوعدهم ودعاهم إلى ما فيه نجاتهم ، وأمهلهم المدة التي يمكنهم فيها التبين والتدبر والمراجعة والتفكر ، ولم يعاجلهم بالمؤاخذه إلا بعد تحقق الكلمة والاياس من المراجعة .

ثم لا يجوز في الحزم ولا يسوغ في التدبير أن يستخف الملك - وإن جل شأنه وعظم سلطانه - بهذا الباب ويغفل عنه اغتراراً باقتداره على من في زعيته وضمن مملكته ، فإن الشر تبدو صغاره ، ورب مطر بدؤه مطير .

وقد حذر الله - جل وعز - نبيه ﷺ هذا الضرب من الأعداء أشد من المنافقون تحذيره إياه الأعداء النائين الخارجين ، ووصفهم بالحنق والغیظ بما لم يصف به أهل الحرب من المشركين ، فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنِّي يُؤَفِّكَونَ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُحْيَوْنَهُمْ وَلَا يُحْيَوْنَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ

(١) مفعول للفعل أراهم المتقدم في أول الفقرة .

(٢) آية ٤ المنافقون .

(٣) آية ١١٩ آل عمران .

قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴿١﴾ .
 وقال : ﴿ وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ
 أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . ﴿٢﴾
 وقال : ﴿ لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا
 يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ . ﴿٣﴾
 وقال : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
 فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ ﴾ . ﴿٤﴾

في آي كثير من أمثالها وصف الله فيها حال المنافقين الذين كانوا في جملة
 مسالمي النبي ﷺ ومظهري الإيمان به والطاعة له ، وقد عرف ذلك من قال :

لا تحقِرَنَّ من الأمور صغارها إن الصغار غداً تكون تباراً
 واعلم بأن كبارها اللاتي ترى قد كنَّ حيناً قبل ذاك صغاراً

وقد قال القائل في أول نجوم^(٥) دعوة بني العباس :

أرى خلَّلَ الرمادِ وميضَ جَمْرٍ	ويوشك أن يكون له ضرامٌ
فإنَّ النارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى	وإنَّ الحربَ يَقدِّمُها الكلامُ
فإنَّ لم تطفئوها تجنَّ حرباً	مُشمِّرةٌ يشيبُ لها الغلامُ
مُشمِّرةٌ يكشف عن سناها	يكون وقودها قصرٌ وهامُ
أقول من التعجب ليت شعري	أليقاظُ أميَّةٌ أم نيامُ
نأيتُم عن بلادٍ عَزَّ فيها	لئامُ الناسِ واضطُّهدَ الكرامُ

فناموا ولم ينتبهوا فكان الأمر على ما قال .

(١) آية ١٤ و ١٥ البقرة .

(٢) آية ٤٢ التوبة .

(٣) آية ١٢ الحشر .

(٤) آية ١٩ الأحزاب

(٥) نجوم : حدوث وظهور . وهذه الأبيات لأبي مريم كما ذكر اللسان - ضم .

وكانوا يقولون : أصغر الأعداء أحمأهم مكيدة وأمضهم على القلب ظفرا .

وقال ارسطاطاليس لاسكندر فيما كتب إليه : جدد العناية والتفقد لأمورك ، وعامل ضعيف أعدائك على أنه في الدرجة العليا من القوة .

وقال : عامل الضعيف من أعدائك على أنه أقوى منك ، وتفقد جنك تفقد من نزلت به الآفة فاضطرته إلى مدافعتهم ، ودار الرعية مداراة من قد انتهكت عليه مملكته وكثرت الفتوق عليه من أعدائه .

ثم لم يكن في العالم نبوة ولا ديانة ولا مملكة ولا عمارة إلا كان بدؤها ضعيفاً ثم قوي .

ولا يجب أن يظن الملك المقتدر المعجب بقدرته واعوانه وجماعاته وخزائنه وعدته وعتاده - أنه يقيم الأود ويسد الخلل في مثل هذه الأمور بالشدة والعنف والغلظة والضرب والقتل البحت ، فإن ذلك ربما يزيد النائرة^(١) قوة ، والشر شدة ، والعداوة إحكاماً ، فإن السياسة بين اللين والعنف ، والرفق أبلغ من الخرق .

والصواب في التدبير والحكمة والمصلحة والسياسة أن يقدم اللين على الشدة ، والدعوة على العقوبة ، وأن لا يعاجل بالمانجزة ما وجد سبيلاً إلى المحاجزة ، قال الله - تبارك وتعالى - في كتابه : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾^(٣) .

(١) النائرة : العداوة والشحناء : مختار الصحاح

(٢) آية ١٦٨ الأعراف

(٣) آية ٣٥ الأنبياء

وكانوا يقولون : الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف .

وقال اردشير في عهده : اعلّموا أنّا على فضل قوتنا وإجابة الأمور إيانا ، وقوة دولتنا وشدة بأس أنصارنا ، وحسن نية وزرائنا ، لم نستطع إحكام تفتيش الرعية حتى نبلغ من الرعية مكروهاها ومن أنفسنا محبوبها .

وكتب ابراهيم بن العباس إلى أهل حمص : أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه فيما يقوم من وقع ويقيم من أود - استعمال خلال ثلاث يقدم بعضها أمام بعض : أولاًن الوعظ والتنبيه ، ثم الايعاد والتحذير ، ثم التواقع إذا لم يحسم الداء غيره . [قال الشاعر] :

أَنسَاءَ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ أَعْقَبَ بَعْدَهَا وَعِيداً فَإِنْ لَمْ تُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائِمَهُ^(١)
قال الله في أول هذه القضية : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَضُّسُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ^(٢) ﴾ .
وقال : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .^(٣)

وأمر بإعطاء المؤلف قلوبهم .

وقال النبي ﷺ : نصف العقل بعد الإيمان مداراة الناس .

فعلى هذا الترتيب يجب أن يكون استعطاف الأعداء واستجلاب قلوب أهل البغضاء .

مباشرة .
والعاشرة هي ألاّ يسلط الرعية والعامّة بعضها على بعض ، ولا يجعل في الحكم

(١) جاء هذا البيت في الأصل بشكل نثر .

(٢) آية ١٥٩ آل عمران .

(٣) آية ٣٤ فصلت .

المملكة أمراً غيره وغير خلفائه ، فإنه لا أحد آلم طفراً ولا أسوأ رعاية ولا أجفى مقدرة من العامي إذا نال رياسة أو ولي ولاية ، وربما إذا نال ذلك حسده من هو مثله ، وطمع في مرتبته من هو شكله ، وصار لكل تبع فأدى ذلك إلى مؤونة على السلطان عظيمة ، وجناية على المملكة جسيمة . يل يجب على الملك أن يكون - في بُعد همته وتمام قوته وشدة صولته وطهارة أخلاقه ومحاسن عاداته وصواب تدبيره وكريم آرائه - ملكاً ، وفي تواضعه لله ولين جانبه واستقامة دينه وخافته لربه ومراقبة زوال دولته والتفكر في عاقبته ناسكاً .

وفي قربه من رعيته ورأفته بأهل مملكته ورفقه بأهل ولايته عامياً . وفي حدة فكره ودقة نظره في أسباب ملكه سوقياً . وفي معرفته بما فوّض إليه وعصب به من العدل بين رعيته عالماً فقيهاً .

فهذه خصال رجوت أن من أخذى عليها سيرته ، وساس بها رعيته كان قد نال فضيلة السياسة ، وأدى حق المملكة ، واستحق من الله المثوبة ، ومن العقلاء على مر الأيام حسن الثناء والمديح بعون الله وقوته .

ثم يجب على الملك أن ينوى بذلك كله إقامة الدين والائتجار بأمر الله في التأديب بأدبه والرغبة فيما عنده ، فإنه إن فعل ذلك سدّده ووفقه للصواب وأرشده للسداد ، وما عند الله خير للذين آمنوا والذين هم محسنون .

البَابُ الثَّامِنُ التَّدْبِيرُ فِي الْأَمْوَالِ

فنبول وبالله التوفيق إذ فرغنا من ملّح التدبير في أبواب السياسات الثلاث ، أوجب حق الترتيب أن نتبعه باب التدبير في الأموال ، لأن الله - تبارك وتعالى - جعلها قواماً للأبدان ، وتلوا للأنفس ، وسبباً لبقاء الأجسام ، وحياة للبشر ، وآلة لطلب المعالي ، وأداة لنيل الأماني ، وزينة للحياة الدنيا ، وطريقاً إلى النجاة في الآخرة والأولى .

وأكد^(١) فيها الأحكام وبين فيها الحلال من الحرام ، وجعل فيها من التعبّد حظاً وافراً وقسطاً كاملاً ، فقد قال في تعظيم منزلته^(٢) وإعلاء درجته وما بان من حاجة الجميع إليه وانتفاعهم به : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ .^(٣)

وقال : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .^(٤)

وقال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .^(٥)

وقال : ﴿ لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ .^(٦)

(١) أكد : أي الله تعالى .

(٢) منزلته : أي المال .

(٣) آية ٥ النساء .

(٤) آية ٨ العاديات .

(٥) آية ٤٦ الكهف .

(٦) آية ١٨٦ آل عمران .

ثم بين أن المال وإن كان هذا محله فليس مما يجب أن يباع به الدين ولا تشرى^(١) به الآخرة ، بل يجب أن تكتسب به ويطلب لها ويقدم إليها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ .^(٢)

وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبِإِ ﴾ .^(٣)

وقال : ﴿ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .^(٤)

وقال : ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .^(٥)

وقال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .^(٦)

وقال لنبيه ﷺ حين أراد رفع منزلته واختصاصه بفضيلته وكرامته : ﴿ وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .^(٧)

ولا يجوز لمن أخذ في الدنيا بالحزم ، وحكم في أموره العقل أن يبيع دينه

(١) تشرى : أي تباع .

(٢) آية ١١١ التوبة .

(٣) آية ١٤ آل عمران .

(٤) آية ١٥ آل عمران .

(٥) آية ٣٨ التوبة .

(٦) آية ٤٦ الكهف .

(٧) آية ١٣١ طه .

بدنيه ، وآخرته بأولاه ، إذ لا مقدار للدنيا في الآخرة ، ولا خطر لها في جنب الدين .

ولا يأخذ المال إلا من حقه ولا يضعه إلا في موضعه ، فإن الله - جلّ وعزّ - قد أغلظ الوعيد على مُستحلّه ، وأكد النهي عن الظلم فيه فقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . (١)

وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ . (٢)

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ . (٣)

وقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ . (٤)

وروي عن النبي ﷺ انه قال : « مَنْ لَمْ يُبَالِ مِنْ حَيْثُ كَسَبَ الْمَالُ لَمْ يُبَالِ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ أَدْخَلَهُ النَّارَ » (٥) .

وقال : « لَنْ تَبْرَحَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ . شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ، وَعَمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ عَمِلَ بِهِ » . (٦)

(١) آية ١٨٨ البقرة .

(٢) آية ٣٤ الإسراء .

(٣) آية ١٠ النساء .

(٤) آية ٢ النساء .

(٥) رواه النسائي والبخاري في البيوع .

(٦) رواه الترمذي في القيامة .

ثم قد حرّم الله - جل وعز - من صنوف المكاسب والمطالب الربا والرشا والغصب والغلول والغش والخيانة والسرقة وكل مال أخذ من غير طيب نفس أو حق يجب عليه أو ميراث يورث من بعده سوى ما أوجبه الله على أهل الملة من حق في أموالهم فيأخذه الإمام من أغنيائهم فيردّه في فقرائهم .

فالواجب على الملك الذي أحلّه الله المحل الجليل ، وأنزله المنزلة الرفيعة أن يتوقى ما نهاه الله عنه ، فإن فيه ما بينا في غير موضع من المأثم والمذام والملاوم .

وقد كره الحكماء والعلماء والفضلاء من أهل كل صنف وشرعة وجيل وديانة المكاسب الدنيئة والمطالب التي تُكسب العار والفضيحة وتبقي قبح الأحدث ، ولا شيء أولى بهذه الصفة من الكسب مما حرم الله ، فإن الله لم يحرم إلا القبيح ، ولم يحظر على عباده إلا الدني الخسيس .

ولم يزل الملوك الفضلاء والأئمة الحكماء ينتظفون عن ظلم الرعية والطمع في أموالها إلا ما وظفت عليهم سنتهم وأباحته لهم ملتهم وشريعتهم من أخذ فضول أموالهم ثم ردها عليهم في عوام مصالحهم من تحصين دمائهم وتثمير أموالهم وإيمان سبلهم ودفع معرة أعدائهم ، وقمع ذعارهم .

وقد بين ذلك أرسطاطاليس في رسالته إلى الاسكندر حيث قال : لا تلح في أخذ أموال رعيتك فتضعفهم وتتبعض إليهم ، واصرف ما تناله من أموالهم في مصلحة عامتهم ، واشتهر بذلك تسعد به .

التوسط
في الانفاق
ثم نهى الله جل وعز فيما أحلّه لهم من الأموال عن التبذير والتقتير جميعاً فقال لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ . (١)

وقال مثنياً على القاصدين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ

(١) آية ٢٦ وآية ٢٧ الإسراء .

يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١﴾ .

وقال لنبية ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ . (٢)

ولم يزل فضلاء الملوك وحكماء أهل الأديان وعلماء الأمم يذمّون التبذير ذمهم التقدير ويرون رأياً حقاً أن التبذير مؤدٍ إلى التقدير ، وأنّ بذل ما فوق الطاقة من المال ووضعه في غير موضعه قطع لمادة الجود وخروج من الحدود ، وتعجز عن القيام بالحقوق .

وكانوا يقولون : ما في الأرض مالٌ وُضع في غير موضعه إلا وإلى جانبه حقٌ مُضَيِّعٌ .

وكان بعض مشايخنا يقول : ما في الدنيا أبخل من مُفسِدٍ .

وحدّ أرسطاطاليس الجود فقال : هو بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة وإيصاله إلى من يستحقه بقدر الطاقة ، فمن جاوز هذا الحد إفراطاً وإسرافاً فقد خرج من حدّ السخاء والجود إلى حدّ التبذير ، والتبذير يؤدي إلى التقدير .

ثم قد ذمّ الله الباخلين بأموالهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ . (٣)

وقال : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خيراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . (٤)

(١) آية ٦٧ الفرقان .

(٢) آية ٢٩ الإسراء .

(٣) آية ٣٧ النساء .

(٤) آية ١٨٠ آل عمران .

فيجب على الملك الفاضل الذي يعرف حقَّ نعمة الله عليه فيما خوّله منه وآتاه ومهدّ له واعطاه أن لا يبخل بمال الله على عباده فيما فيه صلاحهم ، ولا يدخل نفسه نار الأبد بما يستحق به عليه ذم الأمد .

فقد بان بما ذكرناه ما عرضناه من جلالة قدر المال وعظم امتنان الله وفضله به ، وبان مذمة التقتير والتبذير فيه ومحمدة الجود به وحقيقة الجود ، وبان به أن البخل هو منع المال من مستحقه ، والتبذير هو مجاوزة الحد فيه ، بالسجيز من القول .

ونحن نبسط معنى البخل والتبذير بسطاً ، ونجري فيهما على عادتنا في الاستشهاد بقول الله جل ذكره ، وبشواهد ودلائله الظاهرة ، وبقول الرسول - ﷺ وأثار الحكماء والملوك فنقول : إن من أدنى منازل البخل أن يمنع المال عن سبل الحق التي شرعها الدين ، واتفقت عليه كلمة المؤمنين ممن بين الله حقوقهم في كتابه وعلى لسان رسوله عليه السلام من الفقراء والمساكين وما في هذا الباب ، فإن بُخله بذلك بخلٌ على نفسه ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ﴾ .^(١)

قالوا ومر بالنبى ﷺ أعرابي فقيل له إن هذا أكثر بدوي نعرفه مالاً ، إذا حل بواد لم يحلل ما معه من النعم ، فقال له النبي ﷺ : « إن في مالك شركاء ثلاثة ، دهر يأتي على أوله وآخره وأوسطه ، ووارث ينتظر موتك فيحويه ، فإن استطعت أن تكون أكيس الشركاء فافعل » .^(٢)

فأخذ هذا المعنى بعض الحكماء فأوجز فيه اللفظ فقال : إن لك في مالك شريكين الوارث والحدثان .

(١) آية ٣٨ محمد .

(٢) لم أجده بهذه الألفاظ .

وقال ابن المعتز : بشرّ مال البخيل بحادث أو وارث .

وقد قرر الله - جل ذكره - ذلك في عقول الحكماء قبل إيراد الخبر عليهم ، وأراهم ذلك عياناً قبل استدلالهم ، إن بخل البخيل بما له عما يكسبه في آخرته ثواباً وأجرأ ، وفي دنياه شرفاً وذكرأ ومحمدة وفخراً ونعمة وخيراً مثل الأجير الذي يكسب في مال غيره ويشقى في ملك من سواه ، فيكون حظه لغيره وتعبه عليه .

ثم إنه إن جمعه من غير حله ، وأخذ من غير حقه ، ومنعه من وجهه ، ثم خلفه لأحب قرابته وأقرب خاصته لديه ، كان اشقى الأشقياء واجهل الجهلاء وأخبث ذوي الحظوظ والأنصباء ، حيث باع آخرته بدنياه غيره ، وباقيه بفاني من سواه ، ولم يحصل منه إلا عاباً قائماً وعذاباً دائماً وعاراً لازماً في حياته وبعد وفاته ، وخرج منها نادماً وعلى ما خلف سادماً .

ولقد بلغنا عن الحسن البصري أنه دخل على عبد الله بن الأهم في مرضه الذي مات فيه ، قال فنظر إليه وعينه تدوران في رأسه فقال له يا أبا سعيد^(١) ما تقول في مائة ألف في جانب هذا الصندوق لم تؤد منه زكاة ولم يوصل منه رحم ؟

قال الحسن : فلا شيء كنت تجمعها لا أبالك ؟

قال لجفوة السلطان وروعة الزمان ومكاثرة العشيرة .

قال : فخرج الحسن من عنده فإذا الصراخ عليه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، انظروا كيف أتاه شيطانه فخوفه جفوة سلطانه وروعة زمانه ومكاثرة عشيرته فيما استودعه الله إياه وعمره فيه ، حتى أخرجه منه حزناً سلباً لم يؤد منه زكاة ولم يوصل منه رحم ، دونك أيها الوارث أذاك هذا المال عفواً صفواً لم تكدح فيه بيمين ولم يعرق لك فيه جبين ، أذاك هذا المال ممن كان يقطع فيه لجج البحار

(١) أبو سعيد : كنية الحسن البصري .

والمفاوز ، جمعه فأوعاه ، وشده فأوكاه ، من باطل جمعه ومن حق منعه ، إياك أن
تخدع كما خدع صويحبك بالأمس ، اذكر يوم القيامة فإنه يوم حسرات وندامة ،
وكيف ذاكم عبد آتاه الله مالاً فغل يده عما افترض الله عليه فيه فمات فورثه وارث
فأنفقه في طاعة الله ، فإذا اجتمعا يوم القيامة نظر هذا فإذا هو يرى ماله في ميزان
غيره ، أدخل الله به هذا الجنة ، وأدخل هذا به النار ، فيا لها حسرة لا تزال وعثرة لا
تقال ، وأنشدونا فيما يلائم هذا الباب :

أنفسك عندك أولى النفوس فبالبؤس من غمها جاهدا
فإن قلت أخشى صروف الزمان فكن من تصاريفه واجدا
وإن قلت اجمعه للبنين فقد يسبق الولد الوالد
وأنشد:

إذا كنت جماعاً للمالك تمسكا فانت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموماً إلى غير حاملي فيأكله عفواً وأنت دفين
وما أحسن ما وصف العطوي هذا المعنى في قوله :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه مفكراً أي باب منه تغلقه
مقدراً كيف تأتيه منيته أغاديا أم لها يسري فتطرقه
جمعت مالا فقدّر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفرقه
المال عندك غزون لوارثه ما المال مالك إلا حين تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة أن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعيرض منه مصون ليس يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه

وأجاد الخزيمي في هذا المعنى حيث قال :

إن كنت ذا مال فلا والذي خولني المال وأغواني
ما قرّت العين به ساعة إلا تذكرت فأبكاني

أذكر أني صائر للبلى وفاقد أهلي وإخواني
وتارك مالي على حاله نهياً هيّان بن^(١) بيان
لامرأة ابني ولزوجة ابنتي يا لك من غبن وخسران
إن انفقوا كان لهم أجره ونخف من ذلك ميزاني
ومن أفحش البخل وأقبح التقدير والمنع كثرة المال الذي يمنع به صاحبه ثمة
ماله ودره نفسه وعبرة في حياته وبعد وفاته ولذلك أغلظ الله الوعيد لكانزي
الأموال ، فقال : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في
سبيل الله فبشرهم بعباب آليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى
بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا
ما كنتم تكنزون﴾^(٢) .

وقال : ﴿الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا
لينبذن في الحطمة﴾^(٣) .
وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . أربع من الشقاء كنز العين^(٤) وقساوة
القلب وبُعد الأمل وحُب الدنيا .

قالوا : وكتب بعض الحكماء إلى أخ له ، أما بعد فأنفق مما آتاك الله فيما أمرك
الله ، ولا تكن في مالك كالبخيل المتعجل للفقر الذي منه يهرب ، والتارك للسعة
التي إياها يطلب ، ولعله يموت بين طلبه وهربه ، فيكون عيشه في الدنيا عيش
الفقراء ، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء .

مع أنه لم ير أحد أشقى بماله من البخيل ، لأنه في الدنيا مهتم بجمعه ، وفي
الآخرة محاسب على منعه ، وغير آمن في الدنيا من همه ، ولا ناج في الآخرة من

(١) هيّان بن بيان : أي لا يعرف من هو ولا يعرف أبوه ، ومثله هيّ بن بي (اللسان - هيا)

(٢) الأيتان ٣٤ و٣٥ التوبة .

(٣) الآيات ٢ إلى ٥ الهمة

(٤) كنز العين : كنز المال من الذهب والفضة .

إثمه ، وفي ذلك أقول :

إِمْسِنْ خَوْفَ فَقْرٍ تَعْجَلْتَهُ تَوَخَّرُ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ
فَصَرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنِيُّ . وهل كان يعدو الذي تصنعُ

ومن التبذير أن ينفق ماله فيما لا يجدي عليه نفعاً في دنياه ولا يكسبه أجراً في
آخراه ، بل يكسبه في دنياه ذمّاً ، ويحمل إلى آخرته إثمًا كإِنْفَاقِهِ فِي الْمَحْرَمَاتِ وَشَرْبِ
الْخَمُورِ وَإِتْيَانِ الْفَوَاحِشِ ، وإِعْطَائِهِ السُّفَهَاءَ الَّذِينَ نَهَى اللَّهُ عَنْ إِيْتَانِهِمْ مِنْ
الْمَخَانِيثِ وَالْمَغْنَيْنِ وَالْمُلْهَيْنِ وَالْمَسَاخِرِ وَالْمُضْحَكِينَ وَالْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنْسُونَ ذِكْرَ اللَّهِ ، ويدعون إلى خلاف ما أمر الله ، ويندبون إلى ما نهى
الله عنه .

ولعل كثيراً ممن ينفق ماله على هؤلاء قد عرف وأبصر معاويج من أهل الشرف
والفضل والدين والعقل ، ومن أولاد الرسول - عليهم السلام - وعترته وورثته
أصحابه وأنصاره ، ثم أهل العلم والأدب والحكمة والنسك والعبادة ، وهم بين
عابد جائع ، ومضطرق قانع ، ومستور متكفف ، ومحتاج متعفف .

وهو إن فكّر علم أن الأجر في هؤلاء أوجب ، والذكر فيهم أشرف ،
والصنيعة فيهم أبغى ، وهم بمال الله أحقّ وأولى .

ومن التبذير أن يشغل المال بفضول الدور التي لا يحتاج إليها ، وعسائه لا
يسكنها ، أو يبنّيها لأعدائه ولخراب الدهر الذي هو قاتله وسالبه .

ومن التبذير أن يجعل المال في الفرش الوثيرة والأواني الكثيرة الفضية والذهبية
التي تقل أيامه ولا تتسع للارتفاق بها ، ولعلها يجمعها لعدوه ويتنوق^(١) فيها لغيره ،
ويضيع منها حظه ويثقل بها ظهره ، ويكثر بها وزره .

(١) تنوق في الأمر: تأنق فيه .

وكل ما أنفقه الإنسان مما يكسبه عند الله أجراً ويرفع له إليه منزلة ، أو يكسبه عند العقلاء وأهل التمييز حداً فهو جود وليس بتبذير وإن عظم وكثر .

وكل ما أنفقه في معصية الله التي تكسبه عند الله إثماً وعند العقلاء ذماً فهو تبذير وإن قلّ ونزّر .

فإن رسول الله ﷺ . كان يقول : ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً أسّي ثلاثة وعندي منه دينار ، إلاً ديناراً أرصده لدين ، إلا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن يساره ومن خلفه ، ثم قال : إن الأكثرين هم الأخسرون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا .

ولم يكن^(١) مع هذا مبذراً ، ولم يأمره الله بالتبذير ، ولم ينفق في معصية الله درهماً ولا ديناراً ، ولم يكن بخيلاً .

وروي عن أمير المؤمنين علي أنه قال : الناس على أربعة أصناف : جواد ومسرف وبخيل ومقتصد ، فالجواد الذي يعطي دنياه لآخرته ، والمسرف الذي يجعل نصيب آخرته لدنياه ، والبخيل الذي لا يعطي كل واحدة منهن نصيبها ، والمقتصد هو الذي يعطي كل واحدة منهن نصيبها .

فأما جهة ترتيب المال وحسن التدبير في جمعه وتفريقه فنقول إن من ^{حسن} ^{تدبير} التدبير في المال لمن سلك فيه المذهب القويم والطريق المستقيم أن لا يؤخذ أصل المال ولا يؤثّل^(٢) ولا يثمر إلا من حِلّه ، وأن ينفق منه قدر ما يحتمله رأس المال ، فإن النفقة إذا جاوزت وفاقت التمييز لم تلبث أن تضر بيت المال وتنفده ، وكذلك إن ساوى الدخل الخرج .

ثم لا يجوز أن ينفق منه إلا في إحدى ثلاث : إما ذخراً للمعاد ، أو نعمة ولذة

(١) ولم يكن : أي رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) التأثّل : اتخاذ أصل المال :

في المعاش ، او ذكر حسن يبقى في الحياة وبعد الممات .

وقد بينّا أن أشرف هذه الوجوه ما يجعله ذخراً لآخرته لأنه لا يعدم من قصدها هذه الوجوه كلها ، وقد بينّا ذلك فيما تقدم من كتابنا .

نصائح
للمتقين
فإن اختار منفق المال هذه السبيل فتمامه في أربعة أشياء : أولها - أن يتبع فيه أمر الله ، ولا يضع المال إلا حيث أمر بوضعه ، ويتحرى من ذلك في كل حال الأولى والأحق .

والثانية - أن يتغني بذلك القربة إلى الله - جل ذكره - والزلفة لديه لا إلى غيره دون عاجل المكافأة والجزاء والشكر والثناء ، وتَهْدِيهِ من السمعة والرياء ، فإن الله - تعالى - لا يقبل ما أشرك فيه غيره ، لأنه يقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .^(١)

وقال : ﴿ ومثل الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْيِئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبِحْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ﴾ .^(٢)

وروى عن النبي ﷺ أن الله يقول : أنا أكرم الشركاء ، من أطاعني وأشرك في طاعتي غيري جعلتُ مالي لشريكي .^(٣)

وقال النبي ﷺ إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه .^(٤)

(١) آية ١١٠ الكهف .

(٢) آية ٢٦٥ البقرة .

(٣) رواه مسلم في الزهد ببعض اختلاف في اللفظ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد .

والثالثة - أن يزین إنفاقه بالسر والکتمان ، ویصونه من الأذى والامتنان ، فإن الله - جل وعز- یقول : ﴿ وَإِنْ تُخَفَوْهَا وَتُؤْتُوها الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَیْرٌ لَّكُمْ ﴾ . (٢)

ویقول : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَیْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ یَتَّبِعُهَا أَذًى ﴾ . (٣)

ویقول : ﴿ الذِّینَ یُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا یَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَا هُمْ یَحْزَنُونَ ﴾ . (٤)

ویقول : ﴿ یَا أَیُّهَا الذِّینَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِکُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى کَالَّذِی یُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَیْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَکَهُ صَلْدًا لَا یَقْدِرُونَ عَلَی شَیْءٍ مِّمَّا کَسَبُوا ﴾ . (٥)

ففی هذه الخلال تزین ما أنفق فی سبیل الله وغنامه وترتیبه .

فأما من أنفق المال واصطنع المعروف رغبة فی شرف الذکر وطیب النشر وعاجل الشکر فإن سبيله یقرب من هذه السبیل ولا یکاد یفرق بینهما إلا القصد والنية ، لأنه لا یحسن ذلك إلا بمن عفا عن المکاسب الدنیئة والمطالب الخسیسة ، یتجنب فیها المظالم یتقی المآثم ، فإذا فعل ذلك کان ما یتعجل من شکایة المتظلم وسوء ثناء المظلوم وفحش دعائه ونعته وحرقة قلبه أجل خطراً وأعظم قدراً فی بابه من شکر المصطنع وحمد المنعم علیه وحسن ثناء المقصود بالعرف وفرحه به .

(١) أي الصدقات

(٢) آية ٢٧١ البقرة .

(٣) آية ٢٦٣ البقرة .

(٤) آية ٢٦٢ البقرة .

(٥) آية ٢٦٤ البقرة .

وإذا قايستَ هذا بذاك لم يف الخير بالشر ، والنفع بالضر والشكر بالشكايه ، وما يخيف بعد ذلك من لعن رب العالمين وعباد الله الصالحين ، وذم الفضلاء من أهل الدين ، ثم عذاب الله الأليم أشد وأبقى واقطع وأدهى ، نعوذ بالله منها .

وكذلك روي عن عمرو بن عبيد أنه ذكر عنده الأسخياء فأكثرُوا في عدّهم وأطنبوا في وصفهم وهو ساكت ، فقيل : كيف لا تتكلم في هذا الباب ؟ قال : ما عسى أن أقول وما ذكرتُم منذ اليوم سخياً ؟ ! إنما السخي من جاد بماله وعف عن أموال الناس ، ولقد بالغ في الدم من هجا بعض الظلمة الخونة ورآه بني سقاية^(١) يحتسب فيها ، فقال :

بَنَيْتَ بِمَا خُنْتُ الْأَنَامَ سِقَايَةً فَلَا شَرِبُوا إِلَّا أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ
وَمَا كُنْتَ إِلَّا كِبَائِعَةٍ اسْتَهَا تَعُودُ عَلَى الْمَرْضَى بِهَا طَلَبُ الْأَجْرِ^(٢)

ثم يجب على العاقل أن يختار للمعروف أهله ، فإنه ليس في وسع البشر إغناء كل البشر ولا الإفضال على كل أحد ، فإذا لم يكن فيه مطمع فاصطناع ذوي الأخطار وأولي الأقدار والذين يصدقون في مدحهم إذا مدحوا ولا يتهمون في صدقهم إذا شكروا - أولى بالاختيار وأحقُّ بذوي الأفضال .

وقد روي عن النبي ﷺ قوله : « لا تكون الصنعة صنعة إلا عند ذي حسب أو دين » . وقديماً قيل :

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذِمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمَ^(٣)

قالوا : وقال معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد لما بايع له : قد وطأت لك

(١) أي ماء سبيل من أجل الثواب .

(٢) أي كمن زنت متصدقة بزناها !!

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته .

الأمور فانظر إلى كل ذي شرف من كل جنس فواجههم وقربهم وأحسن إليهم فإنهم أشكر الناس إن أعطوا وأصبرهم إن جُفوا .

وقد كان جماعة من الكرام الأسخياء المعروفين بكثرة العطاء من الملوك والفضلاء يفعلون المعروف شهوة وطباعاً فيلقونه في كل موضع ويصنعونه في كل مصنع ويبدرونه في كل مزرع ، وذلك مذهب قد ذهب إليه جماعة ، فقد قال قائلهم :

يدُ المعروف غُثم حيث كانت تحملها كفوراً أو شكوراً
فعند الشاكرين لها جزاء وعند الله ما كَفَرَ الكفورُ

وقال آخر :

سأمنحُ مالي كلُّ مَنْ جاءَ طالباً وأجعلُه وقفاً على الفَرَضِ والقَرَضِ
فإِما كريمٌ صُنْتُ بالمالِ عِرْضُهُ وإِما لثيمٌ صُنْتُ مِن لَوْمِهِ عِرْضِي

وروى جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله ، فإن كان هو أهله فهو أهله ، وإن لم يكن هو أهله فأنت أهله » .

وإن قصد قاصد أو ذهب ذاهب في معروفه إلى طلب الشكر وبقاء الذكر فإن تمامه في أربعة أشياء : تعجيله وتيسيره وستره وترتيبه . وقد روي الثلاث من هذه الأربع عن ابن عباس وجعفر بن محمد كلاهما .

روى سفيان الثوري عن جعفر أنه قال له : علمت أنني نظرت في المعروف فوجدته لا يتم إلا بثلاث . قلت : وما هي جعلتُ فداك ؟ قال : تعجيله وتصغيره وتيسيره ، فإنك إن عجلته هتأته ، وإذا يسرته اتمته ، وإذا صغّرته عظمت ، وإذا مطلّت وأخرته وسوّفته كدّرت ونغصّته وأفسدته .

وجعل ابن عباس بدل التيسير من هذا الكلام^(١) الستر ، وكان يقال : ستر رجل ما أولى وشكر ما أولى .

ثم قال جعفر بن محمد : والمعروف أوثق الحصون وأشرف الأمور ، وهو كنز من الكنوز فلا يزهدنك فيه كفر من كفر ولا جحود من جحد ، فقد يشرك عليه من لا يستمتع منه بشيء .

قالوا : وكتب الحسن بن سهل إلى المأمون في شيء طلبه لبعض المتصلين به : إن داعي نذاك ومناذي جدواك جمعاً ببابك الوفود يرجون نائلك العتيد ، منهم من يمت بحرمة ، ومنهم من يدلّ بخدمة ، وقد أجحف بهم وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسببه ، ويحقق ظنهم بطوئه فعل إن شاء الله .

قال : فوقع المأمون : الخير متبع ، وأبواب الملوك مواطن لطلاب الحوائج ، فاكتب أسماءهم واخبر مراتبهم ليصير إلى كل امرئ استحقاقه ولا يكدر معروفه بالمطل والحجاب .

وقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طرداً لحر كإلصاق به طرف الهوان
ولم تحرز مودة ذي وفاء بمثل البذل أو لطف اللسان

قالوا : وقال خالد بن عبد الله القسري على منبره أول ما صعد بالعراق :

أيها الناس ، تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمّاً ، ولا تعدوا بمعروف لم تعجلوه ، واعلموا أن حوائج الناس نعمة من الله عليكم فلا تملوا نعم الله عليكم فتحور نقماً .

وكذلك يجب على الكريم أن ينزه معروفه عن انتظار جزاء أو مكافأة عليه أو

(١) من هذا الكلام : أي من الكلام الوارد في قوله : وتماه في أربعة أشياء . ومنها التيسير والستر .

شكر عاجل ، فإنه قد قيل في الكتب القديمة : من جعل المعروف لعاجل الجزاء فهو كملقي البذر ليصيد به الطير لا لينفعه .

ولا يكدّرهُ بالذكر والتعير والمن والأذى ، فقديماً قيل : إنّ المِنَّة مفسدة للصنيعة .

وكذلك قال الحكماء : إذا اتخذتم عند حُرِّ يدٍ فأنسوها ، أي لا تذكروها .

فأما ترتيبه^(١) فقلّ ما يفي به إلا الحازم الجزل ، ولا شيء أحسن منه بالملوك والأشراف ، وقد أكد ذلك الحكماء وذكره الأسخياء والفضلاء حتى قالوا : الابتداء بالمعروف نافلة ، ورده فريضة . وقالوا : الابتداء بالفضل يد موفورة ، والبذل بعد الطلب يد منقوصة ، وأحسن أحوال الجود أن تكون إجابتك بعد السؤال ، وإنجازك بعد المطلب . ولقد مدح بذلك مادح الكرام فقال :

كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا لم يوهنوا لبنائهم أساساً
وإذا همّ صنعوا الصنائع في الوري جعلوا لها طول البقاء لباساً
وقال قائل يمدح طلحة الطلحات :

أرى الناس قد ملّوا الثواء ولا أرى بنى خلفي إلا رواة الموارد
إذا نفعوا عادوا لمن ينفعونه وكائن ترى من نافع غير عائد
وقال آخر :

وأحسن ثم أحسن ثم عُدنا فأحسن ثم عدت له فعادا
مراراً ما دنوتُ إليه إلّا تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا
سألناه الجزيل فما تأبى وأعطى فوق مُثيتنا وزادا

(١) أي المعروف .

وأما من أنفق ماله في منال لذة أو قضاء شهوة أو إظهار جمال وزينة فلا يتم ذلك له ولا يحسن به إلا إذا كان أخذ المال من حيث يحسن في الدين ويحجل ، وتمتع به فيما يطيب ويحل ، وتجنب فيه المحارم والمذام ، فإنه إن لم يفعل ذلك كان كفراً ش النار الذي يتهافت فيها اغتراراً بضوئها فيحرق نفسه ، وكالذباب الذي يلقى نفسه شرها فيما يموت فيه سريعاً .

فلا خير في منال شهوة تفني لذته وتقضي شهوته وتبقى تبعته ، وتسيء في الناس قائلته ، وتنقص آخرته ، ويدوم على مرتكبها عقوبته .

فإنك إذا قايست بين حرص النفوس على منالها وميل الطباع إليها والتذاذها عند الظفر بها وبين نهى العقل والدين عنها وتأبى النفس الفاضلة بما يتعقبه من هذه المكاره عليها علمت أن النفع فيها أقل من الضر ، والشر فيها أدهى من الخير .

وكذلك ما اشترط كل من أدخل هذا القسم في القسم الثالث من أقسام مساعي اللذة من غير محرم .

قالوا وجدت في حكمة آل داود : ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يخلو فيها بأهل ثقته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه ، [وساعة يخلي فيها بين نفسه]^(١) وبين لذاتها فيما يحل ويحجل ، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات واستجماً للقلوب وفضل بُلغة .

قالوا : وعلى العاقل أن لا يرى ظاعناً إلا في إحدى ثلاث : مرمة^(٢) لمعاشه ، أو خطوة لمعاده ، أو طلب لذة في غير محرم .

(١) في الكلام سقوط هنا ، ويستقيم المعنى بإضافة ما بين المربعين .
(٢) مرمة المعاش : ما يصلحه ، والماضي منه رم بمعنى أصلح ومنه ترميم البناء أي إصلاحه .

وقد قال في صدق هذه القضية بعض الشعراء :

تفنى اللذائذُ ممن نال شهوتها من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ من مغبتها لا خير في لذةٍ من بعدها النارُ

فهذه الأبواب الثلاثة هي التي يجوز لمميز عاقل أو عالم فاضل صرفُ شيء من الأموال وإنفاقه فيها ، وما خرج منها فإنما هو تبذير وفساد وذهاب عن سبيل الرشاد في القول العام المطلق والرأي الأصوب الأرفق .

فأما أموال الله التي في أيدي الملوك والأمراء من حقوق بيوت الأموال التي ^{الإنفاق في الأموال العامة} تدخل على المسلمين من فيثهم وغنائمهم وأخرجتهم وأعشارهم وجزية أهل ذمتهم فإن الله قد بينَ سبلها وأبان عن طرقها ، ووضعها مواضعها فقال : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ﴾ .^(١)

وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « وأعلمهم أن الله قد أوجب عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » .

وقال [تعالى] في الفیء : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .^(٢)

فالسنة في صدقات السوائم والعشور والأخماس وكل ما في باب الصدقات أن تقسم على هذه السهام المذكورة إلا سهم المؤلفة قلوبهم ، لأن الله قد أغنى عنهم ورفعهم بعز الاسلام وظهور الحق ، ويعطي العاملون على مقدار الكفاية ، ولا يحل من الصدقات لال الرسول ﷺ ولا لغني موسر ولا ملك مقتدر .

(١) آية ٦٠ التوبة .

(٢) آية ٧ الحشر .

وأما الغنيمة والفبيء فقد كان على عهد النبي ﷺ فيآن : أحدهما للنبي ﷺ خاصة ، لم يوجف المسلمون عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء من بني النضير وأهل فدك ، فكان ذلك لرسول الله خاصة ، إلا أن النبي عليه السلام لم يبن به داراً ولم يشتري به عقاراً ولم يتمتع به في الدنيا فضل تمتع ، بل كان يأخذ منه قوته وقوت عياله ، ويجعل الباقي منها في نوائب المسلمين وحوادث أمر الدين .

والآخر هو ما يفيء من أموال الكفار على المسلمين من غنيمة أو جزية أو خراج بني تغلب ، فإنه يُعطي منه ذوي القربى ، وهم عندنا قرابة النبي ﷺ مقدار كفايتهم ، ويصرف الباقي في نوائب المسلمين من السلاح والكرع^(١) وأعطيات الجيوش التي تغزو أرض العدو ، ويعطون مقدار كفايتهم ، فإن فضل شيء من ذلك صرف إلى اليتامى والمساكين وأبن السبيل ، وإن نقص مال من صنوف الأموال عن هذه الوجوه فلا بأس على الإمام أن يجعله كله في باب واحد إذا مست الحاجة ودعت الضرورة إليه ، والله أعلم .

وليس للعاملين عليها إلا مقدار القوت ، فهكذا كان النبي ﷺ يصنع وينفق على نفسه .

وكان عمر يقول لعماله : قد انزلتكم من هذا المال ونفسي منزلة وصي اليتيم ، من كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

وروي عن عمر [بن عبد العزيز] أنه كان إذا سهر بالليل لعمل نفسه أسرج^(٢) من ماله ، وإذا سهر لأمر العامة أسرج من بيت مال المسلمين .

وروي مجمع بن أبي رجاء قال : خرج الينا علي بن أبي طالب رحمه الله

(١) الكراع : الخيل ، وقيل يشمل البغال والحمير كذلك .

(٢) أسرج : أوقد السراج .

بسيّف يبيعه فقال : من يشتري مني هذا ؟ ولو كان عندي ثمن إزار ما بعّته ، قال : فقلت أنا أبيعك وانسك^(١) ثمنه ، قال : فلما خرج عطاؤه قضاني .

ثم لما فتح الله على المسلمين البلاد ومكّنهم من خزائن الملوك وكثر فيها الجيوش جعل أمير المؤمنين عمر لطبقات الناس ديواناً وأجمعت الأمة عليه ، فجعل أهل بيت الرسول ﷺ في أول الدواوين ، ثم المهاجرين ثم الأنصار ثم أحياء العرب بعضهم بعد بعض .

وكان يأمر بقسم ما يجتمع في بيت المال من هذه الأموال بعد إخراج المؤن وإزاحة العلل على ما بيّنه الله لرسوله فيما فضل عنده من خمس الفيء وما في بابه قسمه بين المسلمين على ما أمره الله به .

وسنّه أخرى في هذا الباب هي أنّ ما اجتمع من هذه الوجوه في بلد من البلدان لا ينقل منه إلى غيره حتى تزاح عِلْلُهُمْ ويعطي فقرائهم كفايتهم ، ويحمل أبناء السبيل منها إلى بيوتهم ، وتفك رقابهم التي أُسِرَتْ في عدوّهم ، ويؤدى عن غارمهم ، فإنّ النبي ﷺ قد بينّ ذلك في سنّته حيث قال : لا يترك في الاسلام مقدح .

وقال : من ترك مالا فلاّله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ .

فإن استغنى عنه أهل بلد في وقت من الأوقات فاحتاج إليه بلدان أخر مُحِلّ إلى أقرب البلدان اليه فتزاح عِلْلُهُمْ ثمّ على هذا الترتيب حتى تزاح العلل التي في ذلك الوجه كلها ويسد الخلل . فإن فضلت فضلة تحمل إلى بيت المال الذي عند الامام .

وروى عيسى بن رستم قال : قرىء علينا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد

(١) 'انسك : أي أوّجل لك الثمن ، ومنه بيع النسبة .

الحميد بن عبد الرحمن وكان عامله على الكوفة وفيه : أيما رجل كان عليه دين لا يقدر على قضائه فاعطوه من مال الله . أيما رجل تزوج امرأة ولم يقدر على صداقتها فاعطوه من مال الله . وأمر للمؤدين والزمنى .

وسنّ رسول الله ﷺ التفضيل في العطاء مرة ، والتسوية تارة ، على ما أوجبه الحال .

وكان أبو بكر رضي الله عنه يرى التسوية .

وكان عمر وعثمان يفضلان على مقدار البلاء في الاسلام والغناء عنه ومواجب الأحوال .

ثم كان عليّ يرى التسوية .

والتفضيل عندنا هو الاختيار ، وهو أشبه بكتاب الله عز وجل ، لأن الله يقول : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) في أبواب قد تلوناها فيما تقدم من كتابنا .

فهذه جمل السنن التي أوجبها الله - جلّ وعز - في هذه الأموال فليعلم الملك المسلط ذلك ولينظر لنفسه في هذه الأمور ، وليعلم أن كل فقير في الاسلام وغارم وابن سبيل وأسير وغاز في سبيل الله ومسكين - خصماؤه عند من لا يظلم مثقال ذرة وما هو بظلام للعبيد .

ولا ينبغي أن يضيق صدر ملك عن إخراج هذه الأموال إلى أربابها ، والله

(١) الآيتان ٩٥ و ٩٦ النساء .

(٢) آية ٩ الزمر .

تعالى يأجره عليها ويعوضه عنها الجنة ، فإنه إن صرفها عن جهاتها وضمن بها على مستحقيها تركها لغير حامد وخرج منها غير مشكور ، وورد على غير عاذر ، ولم يحصل له إلا الإثم والعار وعذاب النار وسوء الدار ، وليس بينهما إلا الحمد والذم والأجر والإثم . فإن رغب الملك في المال الكثير فإن الله - تبارك وتعالى - قد جعل لطلب الأموال سُبُلًا معلومة وأسباباً معروفة هي أطيب مأخذاً وأحمد عاقبة ، فلا يعوزه المال من تلك الجهات إن طلبه ، ولا يتعذر عليه إن اكتسبه من تميز القليل وإدراك الجليل مما قدره الله له ، وهو وليُّ التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

البَابُ التَّاسِعُ

فِي تَدْبِيرِ الْأَعْدَاءِ وَأَهْلِ الْجَنَائِاتِ

إن الله - جلّ وعز - حرّم نفس الفطرة ، وأوّلُ التعبد دماء الخليقة والبشر بأشعارهم وأبشارهم بعضهم على بعض ، فلم يبح إهراق دم ولا إزهاق نفس ولا نقص نفس ، ولا إيلاّم أحد من الناس إلّا لحاضر من الفساد يَتَقَيّ ، أو لمتخوف منه يُتَوَقَّى ، أو لإصلاح عامّ يرتجى ، أو لعائدة يؤمل عودها على عامة المسلمين وجماعة المؤمنين أو يكون فيه تأييد للدين وانتقام من المذنبين واعتبار للمتفكرين الاعتبارين كالطبيب الحاذق الرفيق والوالد البر الشفيق الذي يقطع من ولده الجارحة الدُّونة^(١) إبقاء على البقية ، ويجرّعه الأدوية البشعة الكريهة تأميراً لرفع علة أو إعادة صحة أو إبقاء سلامة وعافية .

وكالبستاني الحاذق الحريص على عمارة بستانه ، وتعهّد ريحانه يقلع منه الحشيش الضار ليحيا به الريحان النافع ، ويقطع منه الشجر الذي يضر بظله ولا ينفع ثمره لينشئ وينمي المثمر الذي يجدي ثمره ويطيب جنّاه .

وكالحريص على توفير ماله وتدبير قنيّانه^(٢) يغذي ببعضها بعضاً ، وينفق كثيراً

(١) الدُّونة : المراد العضو التالف . قال في اللسان : لا أعرف « دون » تؤنث بعلامة تأنيث ولا بغير علامة .

(٢) القنيان : مصدر قنى بمعنى كسب المال ، ومنه قوله تعالى : وأنه هو أغنى وأقنى آية ٤٨ النجم (اللسان - قنى) .

من أجزائها قصداً لتوفير ما بقي منها قال الله - جلّ وعز - في صحة جملة هذه القضية : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ^(١) ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ^(٢) ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ^(٣) ﴾ .

وقال : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ^(٤) ﴾ .

ثم قال من بعد ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي
نفوس مهذرة الْأَلْبَابِ ^(٥) ﴾ .

وقال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ^(٦) ﴾ .

فأباح الله - جل ثناؤه - على هذه القضية وصحة هذه الدلالة ذماء ثلاثة أصناف ، بل أمر بإهراقها إعزازاً للدين ونصرةً للأنبياء والمرسلين وأوليائه من المؤمنين ، وإرادة منه لحياة العباد وعمارة البلاد .

أولهم المشركون الذين يُقاتلون على أصل التوحيد والنبوة والشرعية التي هي أسّ المملكة ورأس العمارة والطريق إلى تمام السعادة ، وهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة ، نصّ الله على قتالهم في كتابه فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ^(٦) ﴾ .

(١) آية ٢٩ النساء .

(٢) آية ١٩٥ البقرة .

(٣) آية ٣٣ الاسراء .

(٤) آية ١٧٩ البقرة .

(٥) آية ٢١٦ البقرة .

(٦) آية ٣٦ التوبة .

وقال : ﴿ وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم ﴾^(١) .

وبين عند ذلك العلة فيه حيث قال : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾^(٣) .

ثم خص الله أهل العهد والذمة من هؤلاء فأمر بالوفاء لهم بما وقعت شرائطهم عليه فقال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾^(٤) . .

وقال : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٥) .

وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾^(٦) .

وقال النبي ﷺ « أنا أحق من وفى بذمته » وقال : « لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ وَلَا

ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ »^(٧) .

(١) آية ١٩١ البقرة .

(٢) آية ٥ التوبة .

(٣) آية ٢٩ التوبة .

(٤) آية ٦ التوبة .

(٥) آية ٧ التوبة .

(٦) آية ٩١ النحل .

(٧) رواه أبو داود في الدييات رقم ٤٥٣١

فهؤلاء صنف .

قتال
البيعة

والصنف الثاني وهم الباغون الذين يخرجون على المسلمين والأئمة العادلين متغلبين أو متأولين من أهل الملة ، أمر الله - جلّ وعز - بقتالهم بعد دعوتهم إلى السلم والفيء والصلح ، ومناظرتهم فيه وبيان الحق لهم ، فقال : ﴿ وَإِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾^(١)

وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾^(٢) .

وروي عن أمير المؤمنين عليّ رضوان الله عليه أنه قال : أُمِرْتُ بِقِتَالِ الْقَاسِطِينَ وَالنَّاكِثِينَ وَالْمَارْقِينَ .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «لِلشَّهِيدِ نَوْرَانِ وَلَنْ قَتَلَهُ الْخَوَارِجُ عَشْرَةَ أَنْوَارٍ» .

وذكر بين يدي أمير المؤمنين عليّ أيام صِفِّينَ أصحاب معاوية ، فكفّروهم بعضهم ، فقال : لا تكفّروهم فإنهم زعموا أننا بغينا عليهم ، وزعمنا أنهم بغوا علينا فقاتلناهم على ذلك .

وقال النبي ﷺ لعِمَارَ بن ياسر : «تقتلك الفئة الباغية تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار»^(٣) .

وقال أمير المؤمنين إن قاتلوا إماماً عدلاً فقاتلوهم ، وإن قاتلوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم فإن لهم بذلك مقالاً .

(١) آية ٩ الحجرات .

(٢) آية ١٠ الحجرات .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي : جامع الأصول ٤٢/٩

فالسُّنة في قتال هؤلاء أن يُدْعَوْا إلى الرجوع والصلح وينظروا فيما أَدَّاهم إلى البغي ، فإن وُجدوا مُحَقِّقِينَ في دعواهم حمل الباقون على الخروج من حقوقهم وتسليم ما لهم إليهم وتوفيره عليهم .

وإن وجدوا مُبْطِلِينَ بين لهم بطلان دعواهم وألزموا الحجة على ذلك . فإن أبوا إلا إصراراً على البغي وتمادياً في الغي قوتلوا عليه حتى يفيثوا إلى أمر الله . فإن فاءوا كف عنهم وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

فإن استحقوا القتال وقوتلوا فالسُّنة في قتالهم أن يتربص بهم حتى يكون منهم أو يظهر على فساد من قتل أو أخذ مال ، فإذا فعلوا شيئاً من ذلك طولبوا برد المال وبذل القود^(١) ، فإن أبوا حل قتالهم .

هكذا فعل أمير المؤمنين علي^{عليه السلام} يوم الجمل ويوم صفين ويوم النهروان على ما جاءت به الروايات .

وإن لم يكن ذلك ففي إِبائهم^(٢) أكفى كفاية في إيجاب قتالهم .

ثم السُّنة الأخرى فيهم ألاَّ يجهز على جريحهم ولا يتبع موليهم ولا تسبى ذراريهم ولا يكون شيء من أموالهم مغنماً للمؤمنين بل هو ميراث لورثتهم ، فإنهم كانوا على جملة الدين ، وكان لهم ولاء قبل القتال فرقت السُّنة به بينهم وبين المشركين .

فهؤلاء صنف .

والصنف الثالث قطاع الطرق وخيفو السبيل الذين لا يستحلون دماءهم
قطاع
الطرق بتأويل ولا يعتقدونه بتنزيل ، بين الله أحكامهم وفرض عقابهم ، وخالف بين

(١) القود : هو أن يقاد القاتل للقتل قصاصاً .

(٢) إِبائهم : أي رفضهم الطاعة للإمام .

أحوالهم نصاً في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فقال : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ^(١) ﴾ .

فاختلف العلماء في إقامة هذه الحدود عليهم ، فقال بعضهم الإمام غدير في هذه العقوبات فمن ظفر به منهم إن شاء قتله وصلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف ^(٢) ، وإن شاء نفاه .

واختلفوا في النفي ، فقال بعضهم هو الحبس .

وقال بعضهم هو النفي عن أرضه التي أحدث فيها هذا الحدث وجنى فيها هذه الجناية ، إلى غيرها من الأرضين النائية عنها .

وقال بعضهم إن الله قد بين تأويل هذه الآية ورتب هذه العقوبات ، وخص كل طبقة وأهل كل مرتبة من ذوي الجنایات منهم بعقوبة خاصة به ملائمة لمقدار جنايته ، بما روى عن النبي ﷺ أن جبريل أتاه عن ربه فقال : من قتل وأخذ المال صليب ، ومن قتل ولم يأخذ المال قتل ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع .

قالوا ومن سعى بعد ذلك في الأرض فساداً ، أو حمل سلاحاً فأخاف السبيل أو قطع الطريق ، ورأى الإمام نفيه أو حبسه كان له ذلك .

فأما أصحاب الجنایات الذين يأتون الإمام مسلماً فقد حقنت ملة الإسلام دم كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر ، إلا برودة بعد إسلام أو زنى بعد إحصان أو نفس بنفس .

(١) آية ٣٣ المائدة .

(٢) من خلاف : أي قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

ومن ارتكب دون ذلك من أبدان أهل الملة فالجروح قصاص .

ومن قتل مؤمناً خطأ فقد أوجب الله على عاقلته^(١) الدية ، إلا أن يشاءوا أن يصدّقوا ، وتحرير رقبة مؤمنة ، ليس للسلطان فيه يد ولا معترض .

ومن ارتكب ما دون القصاص ففيه أرش قد بينت السنة أحكامها وشرعت الملة فروضها ومقاديرها ، قال الله - جل وعز - ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾^(٤) .

وقال فيما دون الإحصان من الزنى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كلٌّ الزنى واحداً منهما مائة جلدة^(٥) ﴾ .

وقال في الفاذف : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة قذف المحصنات

(١) العاقلة : هم العصبة من الرجال أقارب القاتل . وقال الشافعية يستثنى الوالد والولد ، وقال المالكية لا يستثنون ، وهو أرجح .

(٢) آية ٤٥ المائدة .

(٣) آية ١٩٤ البقرة .

(٤) آية ٩٢ النساء .

(٥) آية ٢ النور . وهذه عقوبة الزاني الذي لم يسبق له الزواج رجلاً كان أم امرأة

شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدَةً ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً^(١) ﴿

وأجمعت الأمة على جلد السكران ثمانين .

السرقة وفي السارق قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله^(٢) ﴾ .

التعزير وفيما دون الحدود من ذلك من قذع أو شتم أو سوء أدب يعود بجراً على السلطان ، أو استخفاف بالدين - تعزيرٌ على ما يراه السلطان في مذهبه إن كان من أهل العلم أو يفتي له المفتون ، فإن العلماء قد اختلفوا في ذلك فمنهم من جاوز بالتعزير الحد إلى ثلاثمائة سوط وأقل وأكثر ، ومنهم من لا يرى بالتعزير بلوغ الحدود في العدد ويرى أن يجاوز به الحد في الشدة والإيلام .

ثم من أظهر في الدين بدعةً خرّق بها إجماع الأمة وناقض بها التوحيد وأصول الشريعة ، أو خرج منه بشيء أو دخل فيه فعلى الإمام والسلطان أن يحضره مجلسه أو مجلس صاحبه ، ويأمر بمناظرته أو يناظره بنفسه بحضرة العلماء من المتكلمين والفقهاء العارفين بأصول الدين ، فيقيم عليه حجة الله ، فإن قبلها ورجع عن البدعة التي أحدثها عفا عنه . وإن لم يقبلها^(٣) ولم يرجع عنها فعليه ما على المرتد بعد الاستتابة . وهكذا روي عن رسول الله ﷺ : من بدّل دينه فاقتلوه . واختلف العلماء في المرتدة فأوجب بعضهم قتلها وبعضهم حبسها وإجبارها على الدين .

درء الحدود وسنّ النبي ﷺ مع ذلك درء الحدود بالشبهات ، فمن شهد عليه بالشبهات الشهود بارتكاب حد من الحدود وأقر على نفسه به فإن السنة أن يُستأنى به إلى أن

(١) آية ٤ النور .

(٢) آية ٣٨ المائدة .

(٣) أي لم يقبل الحجة ولم يرجع عن البدعة .

يدفع عن نفسه بحجة أو شبهة ، فإن أتى بها درىء عنه الحد . وكذلك إن اختلف الشهود في الشهادة ، أو شهدوا بعد مدة ، أو رد الإمام المقر على نفسه فقال قد سهوت أو غلطت أو كذبت أو سرت من داري أو دار من أخرجه من ملكي ، وما أشبه هذه الأمور .

ولا تقبل الشهادة بالزنى حتى يشهد أربعة من المسلمين بلا اختلاف ولا مرية على ما جاءت به السنة .

وكذلك السرقة لا يقطع فيها حتى يشهدوا أنه سرق ما تبلغ قيمته عشرة دراهم من حرز .

فهذه جمل ما أباح الله فيه القتال والقتل والحد وسفك الدم والجلد ، ولها فروع يطول ذكرها عما عرضناه في كتابنا وهي معروفة عند الفقهاء مسطورة في كتب العلماء .

وما سوى ذلك فهو داخل في قول الله : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾^(١) . وفي قول النبي ﷺ :

« أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا »^(٢) وهذه الأسباب والأبواب من حقوقها .

وفي قول النبي ﷺ « أَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَى بِذِمَّتِهِ » لا يحل لإمام ولا لصاحب إمام شيء من أشعار أهل الملة والذمة تعضُّباً^(٣) ، إلا تأديباً وتثقيفاً .

ثم قيد الإسلام القتل والمثلة فحرّمها ، ليق الله ملك قادر أو سلطان قاهر ، وليحذر أن تحمله قدرته الجزئية القليلة على

(١) آية ٥ التوبة .

(٢) رواه الستة وأحمد والدرامي .

(٣) تعضُّباً : استضعافاً (اللسان - غضب) .

ظلم الرعية ولؤم المقدرة والإشراف في المعاقبة وإذا دَعَتْه قدرته إلى ظلم عباد الله
فليذكر قدرة الله حيث يفارق ما هو فيه ويتعزى مما هو بسبيله ، ويرد على ما مهد
لنفسه وقَدَّم لها أيام مهلته فعسى أن يكون قريباً .

وقد أغلظ الله الوعيد على قاتل النفس المؤمنة بغير حقها ، فقال : ﴿ وَمَنْ
يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ
لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾^(١)

فهذا ما أوجب الله في الدين من قتال الأعداء والمخالفين وقتلهم وقتل أهل
الجنایات وتأديبهم . فإذا حقت الكلمة وظهرت العداوة ووجب في السياسة
والشريعة منابذة بعض المخالفين أو مناجزتهم فالوجه أن يستعمل فيها ويستعان
عليها بخصال عشر من خصال السياسة وتدابير المناجزة والمقارعة :

عشر
خصال
لمعالجة
المخالفين
أولها : الإدارة والمسألة وعرض السلم والصلح على العدو ما وجد إلى ذلك
سبيلاً ، ولم يخف أن يزداد العدو بالمطاوله وفوراً وقوة وعدداً وعدة ، ويهتدي إلى
ما لم يهتد إليه من خديعة ومكيدة ، فقد قدّمنا أن ذلك من أدب الله - جل وعز -
الذي أدب به نبيه ، وآياته التي أقامها في خلقه ، وأن في المناجزة الخطار^(٢) بالأملأك
والمهج والأبدان والقنيان ، وما منها إلا مضمون به ومشحوح عليه في العقل
والدين ، وإلى حمايتها ما^(٣) يسعى العقلاء ، وإلى صيانتها ما يجري الملوك . فما
وجد الملأ إلى توقيها ومنعها سبيلاً ، وإلى فداء بعضها ببعض طريقاً فالوجه فيه أن
يفعل .

ثم لا يجوز للعاقل أن يخاطر بشيء حتى يتيقن أن ما يخاطر له أجل مما يخاطر

(١) آية ٩٣ النساء .

(٢) الخطار : المخاطرة ، كدفاع ومدافعة وزنا واشتقاقاً .

(٣) ما : زائدة وكثيراً ما تأتي كذلك في كلام المؤلف .

به ، ولا يقدم على المحاربة والمقاتلة حتى يكون في أكثر رأيه أنه إن قاتل أو قتل نال به إحدى الثلاث من المحامد والمحاب أو عامتها أو أكثرها ، وانتفى به من أضدادها من المكاره والمثالب .

أولها - ثواب الله الذي أعدّه لأوليائه .

والثانية .. تحصيل الملك الذي هو أجلّ مراتب الدنيا وأعلىها درجة ، الملك الذي هو مدبره وسائسه وحاميه وحارسه عليه ، وإن تركه زال عنه كله وقل طمعه في مثله .

والثالثة - محمّدة تبقى على غابر الأيام يحيا بها ذكره ويطيّب بها بعد فنائه
نشره ، وإن تركها خاف لزوم عار وبقاء شئار في الأخلاق والأعقاب .

فإن الله - جل وعز - لما قرر في أنفس المتدينين أن عيش الجنة ونعيم الأبد أفضل من نعيم الأمد أضعافاً لا يحصى إلا الله - حثهم^(١) على الجود بأنفسهم وأموالهم في جنب ما يأملونه من عظيم ثواب الله الذي أعدّه لأوليائه وأهل طاعته ، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُودًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ^(٢) ۖ ۝

وكذلك القول في اصطفاء المحامد واقتناء المادح وحسن الذكر وطيب
النشر ، فقد قدمنا من رغبة أولي العزم من رسل الله وأنبيائه عليهم السلام وذوي
الفضل من أوليائه فيه بعد رفضهم الدنيا واستخفافهم بزخرفها وزبرجها^(٣)
واحتقارهم لما فيها .

(١) خبر إن في قوله «فإن الله» .

(٢) آية ١١١ التوبة .

(٣) زبرج : بكسر الزاي والراء وتسكين الباء : الزينة وكل شيء حسن ، وهو غير الزبرجد الذي هو من الأحجار الكريمة .

وكذلك نفيا للعار الذي لم تزل أنفـس الكرام تعافه وطبائع الفضلاء تأباه ،
وذوو الهمم البعيدة والأنفـس القوية ينفرون عنه ويحتالون في غسل أنفـسهم منه ،
ويجدون من العقل والحزم والكرم والفضل أن لا يشتروا حياة سريعة الفناء بعار
طويل البقاء ، ولذة وشيكة الانقضاء بقبح أحداثه تذكر على غابر الأيام وباقي
الدهور والأعوام .

ولقد أوجز العبارة عنه الحسن البصري حيث قال : إنما أنت أحاديث فإن
استطعت أن تكون حديثا حسنا فافعل .

وأحسن أرسطاطاليس في مواعظه لـ لاسكندر حيث قال : واعمل على أنهم
في عقبك وإن مديحهم أطول عمرا منك .

وقد قال في ذلك بعض الجلة من الملوك :
سأغسل عني العار بالسيف جالباً عليّ قضاء الله ما كان جالباً
وقد قال بعض المفرطين فيه وهو الليث بن رافع بن الليث بن نصر بن
سنان :

نارٌ ولا عارٌ فكن سيِّداً فرّاً من العار إلى النار
وقد قال فيه الحسين بن علي - رضي الله عنه - فأنصف وأتى بما يشبهه :

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار
وقال الزبير بن العوام حين ولى عن أمير المؤمنين علي بعد مناظرته إياه وقيام
الحجة عليه :

تركُ الأمور التي يخشى عواقبها لله أرواحٌ في دُنْيا وفي دين
آثرتُ عاراً على نارٍ مؤجَّجةٍ أنسى يقوم لها خلقٌ من الطين

(١) الضمير يعود على نفي العار الذي ذكر في أول الصفحة

وهذا هو حد الإنصاف في هذا الباب ، إذ ليس ينبغي أن يكون شيء أشد على المتدين الموقن من عذاب النار ثم لا يكون شيء من مصائب الدنيا عليه أشد من ركوب العار .

ولا يحتمل العار في موضع من المواضع ولشيء من الأشياء إلا عند مخافة عذاب النار . وما أقبح ما هجا به من^(١) يقول :

وكنُتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم رَحَلْتَ بخزية وترُكتَ عاراً
والشعر الحسن والحديث الجيد في هذا الباب كثير ، وفيما ذكرنا ما يبين عن الغرض ويوضح عن محض الحق .

الإنذار

والثانية^(٢) - تقديم الوعيد والإيعاد والتحذير والإنذار ، وإقامة الحججة وإبلاغ المعذرة ، فقد ذكرنا أن ذلك من أدب الله الذي أدب به عباده ، وسنته التي استعملها فيهم ، فإنه بعدما ابتدأهم به من الإفضال والإنعام والمبني الجسم ، ودعاهم إلى ما هو أكثر منه وأفضل وأبقى وأجزل ، ثم أراهم دلائله وأحضرهم شواهد ، حذَّره وأنذرهم ، ووعدهم وأوعدهم بالكتب الواضحة والأعلام اللائحة والأنبياء المرسلين والأئمة الراشدين المهديين .

ثم أمهلهم المدة التي يمكن فيها التذكير والتفكير ، وتنقطع فيها مواد المعاذير ، كما ذكر - جل وعز - ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ^(٣) ﴾ .

وقال : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

(١) هو جرير يهجو الفرزدق .

(٢) من الخصال العشر من خصال السياسة وتدابير المناجزة والمقارعة .

(٣) الأيتان ١٤ و ١٥ القيامة .

رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِيتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ^(١) .

في آيات كثيرة ذكّروهم بها ما يلزمهم من حجج العقول التي إن فكروا فيها عرفوا الله وأوجبوا شكره عليهم .

ثم قال : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ أَوْ لِمَ نُعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾^(٤) .

فقطعت من جميع الوجوه عذرهم وألزمهم في كل ذلك وزرهم ثم قال النبي ﷺ إن الله بعثني بين يدي الساعة رحمة لمن تبعني وحجة على من خالفني^(٥) .

ثم إن ذلك لم يزل من عادة الملوك الحزمة والأئمة الكاملة فكم من جيش تجتمع قد شتت جمعهم ظهور الحجة عليهم ، وفرق بين نياتهم وعزائمهم انقلاب الدلائل عليهم ، وأضعف مُنتهِم^(٦) بيان باطلهم لهم .

وكم من خطيب مصنّف وبلغ مَقْوَّة صَوْر الباطل عند أصحابه في صورة

(١) الآيات من ١٧ إلى ٢١ الغاشية .

(٢) آية ١٦٥ النساء .

(٣) آية ١٣٤ طه .

(٤) آية ٣٧ فاطر .

(٥) رواه البخاري ومسلم بلفظ : بعثت أنا والساعة كهاتين .

(٦) المنة : بضم الميم ، القوة .

الحق وأراهم الشبهة في لباس الحجة ، فاستغواهم حتى قاتلوا وهم عند أنفسهم محقون ، فكان فيه هلاكهم .

ولذلك ما قال أرسطاطاليس للاسكندر : اذكر احتجاجك عليهم من كتبك ، ودع من كتبهم ما يجب ستره من العامة .

وقد قال الله - تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ . (١)

ولن يؤيد صاحب جيش وقائد عسكر بصابر أصحابه ولن يقوى منهم بشيء هو أحرى وأولى ببلوغ الغاية منهم - من أن يريهم أن حجة الله معهم ، ويقرر عندهم أنهم إن قتلوا أجروا وأثيبوا ، وإن قتلوا انقلبوا إلى خير مما بهم منقلباً وأحسن مما يؤملونه مكتسباً .

وكذلك فعل أمير المؤمنين [علي] في حروبه ووقائعه ، فما فرق بين طلحة والزبير وبين عسكرهما إلا بالحجة والمناظرة . وكذلك فعل بالخوارج حتى خالف بين كلمتهم وفرق بين آرائهم وشتت بين المجتمع من أهوائهم وغلبهم .

ومن جهتها احتال معاوية حين أحسن من أصحابه بالوهن والضعف حيث رفع المصاحف على أطراف القنا ودعا إلى كتاب الله الذي كان يدعى إليه فيأبى .

وهذا باب لو أخذنا نتبع ما يحضرننا منه لطلال الكتاب .

اليقظة
وترك
اللهم
والثالثة - هي استعمال اليقظة وترك التناوم والغفلة والاشتغال باللذات
والملاهي والملاعب والمطارب ما لم يفرغ من الحرب وما يشغله من هذه الأمور .

ولا يرضى حتى يجعل على العدو في كل أحواله عيوناً راقبة وآذاناً واعية ، فإنه

(١) آية ٦٥ الأنفال .

يجمع بذلك خصالاً جليلة هي أزمّة تدابير الحروب :

منها أن يطلع على ما يحدثه العدو من مكيدة أو يضمّره من خديعة أو يجمعه من مبايته ، فيأخذ من ذلك حذره ويعدّ له عدته ، فلا ينال منه غيرة ولا يصاب منه غفلة ، فيهلك .

ومنها أن ينتهز منه الفرصة ويراقب منهم النهضة ، فإن ذلك أبلغ ما يستعمله المحارب في حروبه ، فإن الفرص تمرّ السحاب وقلّ ما فات منها فائت فأدرك على غابر الأيام ، وربما ضيع منها شيئاً فمات عليه حسرة .

وفي كتب الأولين : من استمكن من الجسيم فأضاعه لم ينلّه بعد ، ومن طلب فرصة فأمكنته فتركها فاته العمل ولم ترجع إليه الفرصة .

وفيما كتب ارسطاطاليس إلى الاسكندر : افترض من عدوك الفرصة واعلم أن الدنيا دُول .

ومن بليغ الهجاء قول القائل :

وعاجِز الرأي مضِياعٌ لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتب القَدرا

ومنها أن يقف على عدد العدو وعدته وآلته التي حذق باستعمالها في حروبه من رمي أو طعن أو ضرب أو هذ^(١) فلأنما هي جماع آلات الحروب . فمن العدو من الغالب عليه الطعن بالرماح والرايات والمزاريق والزوبيئات^(٢) . ومنهم من الغالب عليه الضرب بالسيوف . ومنهم من الغالب عليه الكسر والهدّ بالعصي والأحجار ،

(١) الهذ : القطع السريع .

(٢) المزاريق : جمع مزراق وهو الرمح القصير .

(٣) الزوبيئات : هكذا في الأصل ولم اعثر على المراد بها . والفعل زَبَن بمعنى دفع يقال زينت الناقة ولدها عن ضرعها أي دفعته . اللسان .

وهو الأمر الطبيعي الذي ربما يستعمله كثير من خرس الحيوان والناس في كثير من الأحياء والبلدان .

ومنها أن يقف على رسوم العدو في وقائعهم ، فمن الأعداء مَنْ رسمه في ذلك المغالبة بحملة أو حملتين وثلاث ثم يولي إذا لم ينقد له ما يريد . ومنهم من يغلب بالثبات والصبر على المكان حتى يعيا عدوه بكثرة الحملات ويتعب بالحركات ثم يحمل عليه وادعاً مستريحاً . ومنهم من يفعل ذلك بالكمين والغدر وصنوف المعاني التي يخرجها والبدع التي يبتدعها في الحرب ، والكراديس التي يقيمها ، والمصاف التي يصفها .

فإذا وقف صاحب الجيش على ذلك من عدوه أعد لكل باب من ذلك عدته وأخذ له أهبة وتهياً له أن يبتدع عليه عند الوقعة بدعة لعله لا يعرفها فيكون ذلك أحد أسباب الغلبة ، فإن القليل من البدعة يدهش ويحير ويرعب ويهول .

وبلغنا أن ملوك الأعاجم كانت سيرتهم أو سيرة عامتهم إذا دهمهم أمر جليل وظهر لهم عدو قوي أمروا بالموائد التي كانت توضع لهم فترفع وظائفها ، واقتصرت على مائدة ، ويحضرها ثلاثة : الموبدان^(١) وموبذ والدبيريد بدو وزير الحرب ، ولا يوضع عليها إلا الخبز والبقل والخل والملح ، فيأكل منه شيئاً ومن معه ، ثم يأتيه الخباز بالزُّمَّا ورْد^(٢) فيأكل منه شيئاً ، ثم ترفع المائدة ، واشتغل الملك بتدبير حربه وتجهيز سراياه وجنوده ، فلا يزال هذا حاله حتى يفتح عليه ويرتق فتقه ويأتيه من النصر ما يحبه . فإذا أتاه ذلك أمر بإعادة الموائد إلى حالتها والمراتب عليها على ما كانت عليه .

وكانوا يقولون : من حق النعمة أن يرى أثرها ويؤدي شكرها .

(١) الموبدان كبير رجال النار عند المجوس ، والموبذ : أحد رجال النار . والدبيريد بدو : فسرهُ المؤلف بأنه وزير الحرب .

(٢) الزُّمَّا ورْد : الرقاق المحشو باللحم ، وهو معرب وتسميه العامة بزماورد (اللسان - منك) .

وكذلك حكى عن غير واحد من الملوك الإسلاميين ، فحكى عن معاوية أنه كان يقول : ما ذقت أيام صيفين لحماً ولا شحمياً ولا حلواً ولا حامضاً ، ما كان إلا الخبز والجبن وجريش الملح حتى نصر الله وليه وخذل عدوه .

وحكى عن مروان بن محمد أنه أقام ثلاثين شهراً لا يطأ جارية حتى قُتل . وكان إذا استهدفت له جارية يقول : إليك عني فوالله لا دنتُ مني ولا حللت لها عقداً وخراسان ترجف بنصر بن سيار وأبو^(١) مجرم قد أخذ منه بالمخنق .

ولذلك ما قالوا : إن احزم بيت قالته العرب قول القائل :^(٢)

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دُونَ النساءِ ولو باتت بأطهارِ
والرابعة - هي أن يتعهد أمر عسكره في الحل والترحال والإنهاض والإنزال ،
ومن محكم التدبير في ذلك أن لا ينزل عسكره إلا في أحسن المواقع وأوثقها وأخفها
لؤنهم وأرفقها بهم في نقل العلوفة والماء والسقي والاستسقاء ، وأنزهها بقعة
وأوسعها رقعة ، فإن لكل شيء من هذه المعاني نفعاً بيئاً وعوناً ظاهراً ، فإن لم يتفق
هذا فأحصنها وأرفقها بهم في ابتياع حوائجهم ووجود ما لا بد لهم منه من
مرافقهم . فإن لم يتفق فأرفقها بهم ، فإن الملك الشهم حصن من لا حصن له .

وفي تفرق الجيوش في طلب الحوائج واضطرارهم إليها شقٌّ عظيم وضرر
جسيم ، فإذا دبر ذلك فالتدبير في إنزال العسكر أن يتعهد منه خيلاً عدة :

منها أن لا ينزل منزلاً ولا ينيخ بمعسكر حتى يعرف طرقه ومناهجه وسبله
ومبايته كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها .

والثانية - أن يأمر بضرب أخبيتهم وفساطيطهم متلاصقة متدانية متشابكة

(١) أبو مجرم : هكذا في الأصل ويبدو أن المراد أبو مسلم أي الخراساني داعية العباسيين بخراسان ضد الأمويين

(٢) هو الأخطل ، وهو في ديوانه ٨٤ وفي المغني ٢٩٢/١ .

الأطناب والأوتاد ، ويصفها صفاً يشبه شكله شكل مدينة مجتمعة البنيان عامرة السور والخيطان ، وأوثقها أن تكون مدورة الشكل أو ما يقرب من الدائرة ، ويجعل ابوابها أقل ما يحتمل حال ذلك العسكر في مقداره وعدده من واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة منها ، وإليها يدخل ويخرج من أراد الدخول والخروج .

والثالثة - أن يقيم لها سوقاً يجدون فيه عامة ما لا بدّ لهم منه من مرافقهم وحوائجهم ، ويتقدم إليهم في إنصاف أهل السوق وتحقيق معاملتهم ، وينهى عن معاسرتهم^(١) ومضايقتهم والحييف عليهم في المعاملة والمبايعة ليرغب فيه أهل الصناعة فيعمر سوقهم ويكون للعسكر فيه رفق كثير وخير عظيم .

والرابعة - أن يرتب على كل باب من أبواب المعسكر قائداً جَلْداً ورجلاً شهياً يكون في عدة من أصحابه وجماعة لهم شوكة تكون حفظة الأبواب والموكلين بعهدتها وضبطها .

وخامسة - أن يأمر بحفر خندق يحيط بمعسكره أو على أبوابه ، على مقدار ما يوجبه الحال من الاحتياط ، ولا سيما إذا كان العدو قريباً والمقام طويلاً .

وسادسة - وهي أن يتقدم إلى أهل معسكره بالتزام الأسلحة في كل حال حتى يكونوا كأنهم قد أظلمهم العدو واضطربهم للمقارعة والمدافعة .

وسابعة - أن يبث طلائعه في الطرق التي يتوهم منها مفاجأة العدو نائياً ودائياً ، ويرسم لذلك غير واحد من جَلْدَة^(٢) أصحابه ومتيقظيهم يتناوبون ويطوفون عليهم ويأمرونهم بالتزام الأسلحة وأخذ الأهبة .

وثامنة - هي أن ينزل خاصته الذين يعول على دفاعهم عنه ووزراءه الذين

(١) المعاصرة : المعاملة بعسر وسوء .

(٢) جَلْدَة : جمع جَلْد وهم الأشداء الأقوياء .

يعتمدون في الإشارة عليه - قريباً منه وبحيث إذا دعاهم أجابوه وإن أرادهم بلغوا إليه وجاءوه في أقرب مدة وأوحى^(١) لمعة ، وإن فاجأهم أمر كانوا أقرب الناس منه .

وتاسعة - أن ينهى أهل العسكر عن إنشاء فسقٍ أو فجور أو شرب أو سكر ، فإن فيه فساداً كثيراً قد أتينا على ذكر بعضه فيما تقدم من كتابنا وسبق من كلامنا ، وحكي لنا عن غيرنا وخبرنا أن ذلك من علامات البوار والمهلك وأمارات الزوال .

وعاشرة - هي من تمام الحزم في هذا الباب ، وهي أن لا ينزل الملك حتى ينزل أهل عسكره ، ويطوف حوالي عسكره فيأمر بسد ما يراه من الخلل ، ورم^(٢) ما يشاهده من الثلم وإصلاح ما يجب إصلاحه . فإن لم يقع ذلك منه كذلك فليوكل الأمين الثقة الذي يقوم مقامه ويكون مكانه ويسد مسدّه من اليقظة والشفقة والرأي والشهامة والمعرفة والتجربة .

وكذلك القول في الترحال فإن من تمام الحزم فيه أن يسير بهم على حالة يصلح أن يلقوا فيها العدو ويناجزوه فيها اللقاء من العتاد والعدة وأخذ السلاح والأهبة ، ويجعل على مقدمته من يصلح أن يكون عند اللقاء ويوم الوقعة ، وكذلك على ساقته . ويكون بين يديه ووراءه من يصلح أن يكونوا معه في القلب عند القراع والحرب . ويكون في اقباله عدد يمكنهم الدفع والمنع إن دهمهم أمر أو عرض لهم عارض .

وأن تكون جنده وجماعته متفقة غير مختلفة ، ومجتمعة غير متفرقة .

وأن يقارب بين مراخله ما أمكنه ، فإن ذلك أبلغ في جماعهم^(٣) وأقرب من تقوية أبدانهم ودوابهم ، وأدل على استخفافهم بعدوهم ، وأشبه بآداب الله التي

(١) أوحى لمعة : أي أسرع إشارة خفية .

(٢) الرم : الإصلاح ، ومنه ترميم البناء أي إصلاحه .

(٣) الجمام : الراحة .

أدب بها خلقه وأجرى عليه تدبيره .

فهذه خلال من تعهدوا رجوت أن يكون قد أدى حق الحل والترحال في
عسكره ، وأخذ بالثقة والاجتياط لجنده وجماعته .

والخامسة - (١) أن يقايس بينه وبين عدوه في أربعة أشياء قد ذكرها العلماء
بالحرب في مواضع كثيرة من الكتب الحديثة والقديمة ، وهي المكان والأمة والعدد
والعدة .

أما الأمة فمعناه أن بعض الأمم الناس أشجع من بعض وأكثر ممارسة للحروب
ودربة بالوقائع ، وأكثر ظفراً بمساعدة الدول في بعض الزمان .

ولذلك ما حكى في سير العجم أن ملوكهم كانوا إذا أنفذوا جيشاً إلى الهند
أنفذوا بإزاء كل رجلين رجلاً ، وإذا أنفذوا إلى الترك أنفذوا بإزاء كل رجل رجلاً ،
وإذا أنفذوا إلى الديلم أنفذوا إلى كل رجل رجلين . فكان مقدار الرجل من الديلم
عندهم مقدار أربعة من الهند .

وقد أمر الله الرجل من المؤمنين لما تكفل بنصرهم وامدادهم وتفرد بتأييدهم -
بأن يخرج إلى كل عشرة من المشركين رجل واحد ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . (٢)

ووعدهم النصر والغلبة على ذلك ، فلما كان من المؤمنين من جزع من ذلك
وضعف قلبه ولم يف بالشرط الذي شرطه الله عليه من الصبر لقلّة جرّي العادة به
خفف ذلك عنهم وأمرهم أن يبرز إلى كل رجلين رجلاً منهم ففعلوا .

(١) الخامسة من الخصال العشر التي هي من خصال السياسة .

(٢) آية ٦٥ الأنفال .

وقد كان من المؤمنين من انتصر بالدين وبالنبي ﷺ قبل ذلك وبعده ،
فبرز الرجل منهم إلى عشرة من المشركين فغلبوا وهزموا ونصروا وانتقموا .

وقد كان في أول خروج النبي ﷺ واقعة بكر بن وائل وهم أربعة آلاف
على ما جاءت به الآثار ، والعجم ستون ألفاً ، فغلبوا وقتلوا هامون زعيمهم .

وكان المسلمون يوم القادسية - وهو اعظم يوم بين العرب والعجم - اثني
عشر ألفاً ، والعجم على ما جاءت به الكتب ثمانون ألفاً ، وهم أشد الأعداء ،
فغلبوهم وهزموهم وقتلوا رستم وكان في ذلك اليوم ملكهم وزعيمهم ، وهم أولو
البأس الشديد الذي ذكر الله في القرآن على ما جاءت به التفاسير .

فأما الروم فقد اتفق غير مرة أن لقي الفئة القليلة من المؤمنين الفئة الكثيرة
منهم فغلبوا وظفروا ، إلا أن هذا ليس في القياس ولا في العام ، ولكن وعد من
الله - جل وعز - لرسوله وللمؤمنين انجزه لهم حيث يقول : ﴿ هو الذي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
المشركون ﴾ .^(١)

ويقول : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ﴾ .^(٢)

وأما المكان فإن بعض الأمكنة والملاجئ أحصن واصعب من بعض ،
وقد اتفق غير مرة أن مَنَعَ ودَفَعَ العددُ القليلُ الجيشَ العظيم عن انفسهم بحصانة
المعقل ووثاقة أركان الموثل من عمارات طيبعية ، فلم يتهياً للجيش العظيم فيهم
شيء .

ولقد بلغني أن أحد أصحاب الجيوش المحدثين في عصرنا هذا نازله العدو

(١) آية ٣٣ التوبة .

(٢) آية ٤٠ التوبة .

وحاذاه في أضعاف عدده ، وكان معسكره يحاذي عين الشمس من مشرقها إذا طلعت ، وعسكر عدوه يدابرها ، فأمر صاحبه أن يبادر العدو بتعبئة الجيوش وتحويلهم إلى موضع تدابرهم عين الشمس إذا طلعت ، ففعل ذلك ، فاضطر العدو إلى التحول عن مكانه ومقابلة قرص الشمس بعيونهم ، ثم ركب وواقف القوم حتى بزغت الشمس في وجوههم ، ثم حمل عليهم وجالدهم ، فكان ذلك أحد أسباب ظفروهم .

وكذلك فقد ظهر غير واحد من العساكر بالمكامن [بأرض] فيها من الكمين ما لم يتهيأ لصاحبه ، فكان ذلك سبب غلبته .

وكان منهم من احتال للسبق إلى ماء نهر كان بينهما فأخذه على العدو فأعطشه ، فكان ذلك سبب هلاكه .

فيجب على الملك السائس أن يعرف أمور الأمكنة التي يلاقي فيها عدوه ، فإن الأمر في ذلك عظيم ، والخطب فيه جليل .

فإن كان مكان العدو أصعب من مكانه وأمنع احتال في جذبه عنه وإخراجه منه بحيلة أو مكيدة ليصير بحيث يتهيأ له موازاته في المكان ، فإن لم يكن ذلك بالمسارعة فبالمطاولة حتى يضطره بالمجاعة وسد الطرق عنه إلى الانقياد للصالح والسلم والطاعة بوجوه كثيرة من الحيل .

فإن لم يكن شيء من ذلك فترك المناجزة خير من ركوب الغرر وتسليم النفس والعسكر للعطب والقاء النفس في التهلكة .

وأما العدد والعدة فإنه لا يجب أن يقاتل العدد القليل العدد الكثير من جنسه وأمته الذي لم تجر العادة أن يغلب مثله بمثله ، وكذلك لا يجب أن يقاتل العراء

العزل الدارعين^(١) المستلثمين إلا عند انتهاز فرصة أو مصادفة غيرة ، وإلا كان القتال قتال غرر وتهور ، إن غلب لم يُحمد ولم يُشكر ، وإن غلب لم يُعذر ولم يُؤجر ، فإن الله قد نهى عن الإلقاء في التهلكة .

ولم تزل الملوك الحزمة تدم هذه الخلة وتعدّها تهوراً لا تجلداً ، وتجاهلاً لا تيقظاً . وما أحسن ما قال فيه عبد الله بن طاهر حيث يقول :

ركوبك الهول ما لم تبدُ فرصته	جهلٌ وأمرك بالإقدام تغيرُ
فكن مصيباً وخذ بالحزم مأثرة	فلن يُدَمَّ لأهل الحزم تدبيرُ
فإن ظفِرتَ بجهلٍ ثم فزتَ به	قالوا جهولٌ أعانتَه المقاديرُ
وإن ظفِرتَ بعزمٍ أو هلكتَ به	فأنت عند ذوي الألباب معذور
أنكبدُ بدنياً ينال المخطئون بها	حَظُّ المصيبين والمغرور مغرور

فهذه الخلال^(٢) الأربع التي ذكرنا أنه يجب أن يقايس بها بينه وبين عدوه ، ويراقبها من محاربه .

والسادسة من هذه الخصال - تحصيل الأسرار من أن يقف العدو منه على مثل كتمان السر ما ذكرت أنه يجب^(٣) أن يقف عليها منه ، فإنه لا شيء أبلغ في تنفيذ الحيل وأعون على بلوغ الفرص من كتمان السر ، والملوك أحوج الناس إلى ذلك وأولاهم بالضم به والشح عليه .

وقد ذكرنا أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً ورى بغيره . وكان يقول : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود .

- (١) الدارعين المستلثمين أي لابسِي الدروع وعدة الحرب .
(٢) الخلال الأربع هي المكان والأمة والعدد والعدة ، وقد ذكرها في أول الخصلة الخامسة من الخصال العشر .
(٣) أي ألا يعرف العدو من أسرار الملك ما يجب أن يعرفه الملك من أسرار العدو .

وقال أرسطاطاليس : أيّ ملك جاوز سرّه وزيره فهو في حدّ ضعيفي
السوقة .

وقد ذكرنا ما في هذه الخلة من الفضل والحزم فيما تقدم من كتابنا .

والسابعة - أن يقدّم الحيلة على القوة فقديمًا ما قيل إن الحيلة أبلغ من القوة .
وهي خاصة الإنسان لأن الله إنما فضّله بالعقل وخصّه بالتمييز إبانة له عن سائر
الحيوان المباشر بالأبدان من البهائم الراحية والسباع الضارية ، فكل ما بعد عن
المباشرة من الفتوح كان أروح وأحسن وأهنا وأزين .

وقد قال النبي ﷺ «الحرب خدعة» .^(١)

الحيل
والخداع
وقال أمير المؤمنين عليّ : مهما حدثتكم بشيء عن رسول الله فلاّن أخير من
السماء أحب إليّ من أن أكذب على رسول الله ومهما حدثتكم بشيء فإن الحرب
خدعة .

وكتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : لا تطلب الغلبة بالمباشرة ولكن
بالمكايدة ، استعمل المكايد فإن فتوحها اهنا الفتوح وأسلمها .
وفي حكم الأولين عن بعض الملوك المتقدمين : صرعة اللين بالمكر والحيلة
أبلغ من صرعة الشدة بالمكابرة ، كالماء بليته وبرده يتغلغل إلى عروق الشجر فيضبط
أصلها ، والنار بحدّتها وحرّها لا تحرق إلا ما فوق الأرض .

وقالوا النجد إذا اجتهد قتل عشرة ، والمدبرُ بحيلته يهلك العسكر بأسره .

قالوا : وأهدى ملك الروم إلى هارون الرشيد هدايا فيها سيوف مكتوب على
سيف منها أيها المقاتل احتلّ تغنم ولا تفكر في العاقبة فتهمز . وعلى الثاني إذا لم
يصل سيفك فصيلةً بإلقاء خوفك .

(١) أخرجه البخاري ومسلم

ومما وجد في دفائن الأولين وكنوز الملوك المتقدمين : ثلاث تبطل مع ثلاث ،
الشدة مع الحيلة ، والعجلة مع التأني ، والإسراف مع القصد .

قالوا ووجد حجر مكتوب عليه بالحميرية أيها الشديد احذر الحيلة ، أيها
العجول احذر المتأني .

قال وأوصى حكيم مسلماً أراد سفراً فقال : لجعل تأنيك زمام عجلتك ،
وحيلتك رسول شيدتك ، وعقورك مالك قُدرتك .

قالوا وكانت ملوك الأعاجم تقول : ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة
آخر حيلة ، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال ، والنفقة في الحروب إنما هي
من الأنفس ، فإن كان للخيل عاقبة محمودة فذلك بسعادة الملك إذ ربح ماله وحقق
دماء جيوشه ، وإن اعيت المكايدة والحيل كانت المحاربة من وراء ذلك .

وللملوك العجم في هذا تدبير وتقدم على سائر الملوك ولذلك ما كتب
ارسطاطاليس إلى الاسكندر : احذر مكاييد الفرس فإن الملك فيهم منذ دهر غير
قصير .

اختيار
الرسول
إلى العدو
والثامنة - أن يتفقد أمر رسله وكتبه إلى العدو فلا يرسل إلا من يرضى أن
يكون صورته الممثلة عند عدوه ، ولسانه الناطق بحضرته ، فلا يختار لرسالته إلا
رائع المنظر كامل المخبر ، صحيح العقل حاضر البديهة ذكي الفطنة فصيح اللهجة
جيد العبارة ، ظاهر النصيحة ، موثقاً بدينه وأمانته ، مجرباً منه حسن الاستماع
والتأدية ، كتموا للأسرار ، عفيفاً عن الأطماع ، غير منهمك في الفواحش والسكر
والشرب ، فإن في كل هذه الخلال عوائد يعود نفعها على الملك والمملكة إذا وجدت
في الرسول . وفي أضدادها ضرر عليهما .

واختيار الرسول على ما بينا أولا مأخوذ عن الله - جل وعز - لأن الله لم يبعث

رسولاً من الملائكة إلا أفضلهم ، ومن الأنس إلا الفاضل المختار الذي يستجمع
عامّة هذه الخلال وأضعافها من الفضائل والمناقب .

وجملته أن الله لم يبعث مهتوكاً ولا فاسقاً ولا ضنيناً ولا ماجناً ولا متهماً ، بل
اختار لكل رسالة أفضل أهل زمانه وأمنهم وأعفهم وأقواهم قلباً وأصبرهم نفساً
وأكرمهم خلقاً . كما أقسم بخلقى نبيه فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ ^(١) ﴾ .

وبذلك جرت السّنة من النبي ﷺ في اختيار الرسل من نخبة أصحابه
وبني عمومته وقرابته .

وكان للملوك الأولين من العرب والعجم في هذا الباب استقصاء عجيب
ونظر دقيق وامتحان كبير ؛ فقد حكى عن أردشير أنه كان يقول : كم من دم قد
سفكه الرسول بغير حيلة ، وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد هزمت وحرمة قد
انتهكت وعهد قد نُقض بخيانة الرسول وأكاذيبه . وكان يقول : على الملك إذا
وجه رسولاً أن يردفه بآخر ، فإن وجه رسولين اتبعهما باثنين ، وإن أمكنه أن لا
يجمع بين رسولين في طريق فلا يلتقيان ولا يتعارفان فيتواطآن فعل .

ثم عليه إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شر - أن لا يحدث
فيه حدثاً حتى يكتب إليه مع رسول آخر يحكي له كتابه أولاً ، حرفاً حرفاً ومعنى
معنى ، فإن الرسول ربما حُرّم ما أمّل فافتعل على الملك وحرّض المرسل على المرسل
إليه وأغراه به وكذب عليه .

ولقد بلغنا عن الاسكندر أنه وجه رسولاً إلى بعض ملوك المشرق برسالة شك
الاسكندر في حرف منها ، فقال له ويحك إن أبواب الملوك لا تخلو من مقوم ومسدّد

(١) آية ٤ القلم .

إذا مالت ، وقد جئتني برسالة صحيحة الألفاظ بيّنه العبارة غير أن فيها حرفاً ينقضها ، أفعل يقرن أنت من هذا الحرف أم شكّ فيه ؟

فقال الرسول : بل على يقين أنه قاله . فأمر الأسكندر أن تكتب الفاظه حرفاً حرفاً ويعاد إلى الملك مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له ؛ فلما قرىء على الملك مرّ بذلك الحرف فأنكره ، فقال للمترجم : ضع يدي على هذا الحرف فوضعتها ، فأمر بقطع ذلك الحرف بسكين فقطع ، وكتب إلى الاسكندر : إن أس المملكة صحة فطنة الملك ، وأس الملك صحة لهجة رسوله إذ كان عن لسانه ينطق وإلى أذنه يؤدي ، وقد قطعت بسكيني ما لم يكن من كلامي إذ لم أجد إلى قطع لسان رسولك سبيلاً .

فلما جاء الرسول إلى الاسكندر دعا رسوله الأول فقال : ما حملك على كلمة أردت بها فساد مُلكي ؟ فأقرّ الرسول إن ذلك لتقصير رآه من الموجه إليه ، فقال الاسكندر : فأراك لنفسك سعت لا لنا ، فلما فاتك بعض ما أملت أشعلت ناراً في الأنفس الخطيرة الرفيعة ، فأمر بلسانه فنزع من قفاه .

وقد كان من الملوك الأولين من يرسل على رسله العيون ثم يقابل ما يأتي به العيون بما تأتي به الرسل ، فإن وجد بينهما خلافاً عاقب المرسل . وهذا باب عظيم نفعه ، كبير ضرره .

والتاسعة - أنه ما وجد الملك إلى إنفاذ السرية وتوجيه جيش يتولى عنه اللقاء ويكفيه الحرب سبيلاً - فلا ينبغي له أن يلقي حرباً بنفسه ، لأن كل فائت مع بقاء الملك في قرار مُلكه مرجو تداركه ، وكل ذاهب سواء مؤمل تلافيه .

الاعتماد
على القادة
المخلصين

ولم تزل هذه العادة من سُنن الملوك المتقدمين والأنبياء المرسلين والخلفاء الراشدين .

فقد كان النبي ﷺ بعدما قوي شأنه وكشف جمعه وأعوانه يعول على هذا الباب ، وكان يبعث رجالاً من أصحابه على سرايا معروفة ، مثل خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وعمر بن العاص ، وخرج من الدنيا وكان قد أمر أسامة بن زيد على جيش ، فكان يجود بنفسه عليه السلام ويقول : أنفذوا جيش أسامة .

وكذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان رحمهم الله .

وباشر أمير المؤمنين عليّ - رحمه الله - الحروب والوقائع بنفسه فلم يتم له ما أراد .

واعتاد ذلك أكثر الملوك والخلفاء من بعدهم ، فأضر الأفراط فيه بكثير منهم ، وبهذا كان أمير المؤمنين عليّ - رحمه الله - حيث أستشاره في المسير إلى العدو ، إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك لم يكن للمسلمين طائفة دون أقصى بلادهم ، وليس بعدك من جمع يرجعون إليه ، ومتى تعلم العجم أنك المتولي لقتالهم بنفسك يكن ذلك أشد لشوكتهم واحتشادهم طمعاً في أنك إن تكثرت لم يكن وراءك غاية ولا للمسلمين فئة .

ولقد كتب ارسطاطاليس بذلك إلى الاسكندر : إياك واللقاء بيدك فإنك إن سلمت كنت مخطئاً غاطراً ، وإن ظفرت بك كنت قتيل خرق . وقال : لا تلق حرباً إن قدرت وإن ضعف محاربك .

فإن لم يتهياً له ذلك وأعياه كل هذه المقدمات ولم ير وجهاً دون اللقاء بيدنه فوجه الصواب أن يستعين على اللقاء بسبع خلال :

أولها - أن يكون متوكلاً على الله ومتبرئاً إليه من الحول والقوة إلا به ، وأن لا يقاتل إلا وهو عند نفسه محق متقرب إلى الله متيقن أنه إن فاته جميع ما هو فيه من بدنه وأملاكه وفتيانه فإنه يستعوض منه ما هو أجل قدراً وأعظم خطراً ، ويقرر ذلك لأصحابه عند تحريضهم على القتال وحثهم على اللقاء .

والثانية - تأليف أصحابه وجمع كلمتهم على معاونته بالبذل والإحسان قديماً ، والوعد والأطماع حديثاً ، وتوفير الأرزاق والعطايا وإقامة الجرايات والوظائف في الحال ، فإن لقاء العدو بقلوب مختلفة وأيد متعادية وآراء متباينة وأهواء متفرقة صعب شديد ، واغترار عتيد ، وقل ما يسلم معه جيش ويظفر به ملك .

والثالثة - إن يستعد للقاء بأوفر عُدّة ، ويتخذ له أتمّ أهبة وأجمع آلة يستعان بها على مثل تلك الحال ؛ فإن أحوال اللقاء تختلف في المكان والجنس والوقت ، على ما بيّنا منه أطرافاً ، فلا يدع شيئاً مما فيه الحزم إلّا جمعه واستوثق به واحتاط من جهته .

والرابعة - أن يجعل شُغله وشغل وزرائه مطالعة الفتنين ومراقبة أحوال الجيش دون الاشتغال بالقتال ببدنه وبالطعان بنفسه ، بل فيما يحدثه العدو من بدعة في الحرب ، أو يُبدعه من مكيدة أو يلفقه من خديعة أو يجدده من حملة أو يخرج من كمين في ناحية ، أو يحدث في عسكره من وهن أو انكشاف من نواحي مصافه ، لينتهاز من عدوّه الفرصة ويسد من أنصاره الخلة بالامداد والتأييد والتقديم والتأخير والتحريض والتحيز من فئة إلى فئة ، والإراحة من شدة التعب ودوام النصب .

فإن اشتد القتال وتفاقم الأمر واحتاج الى تولى ذلك بنفسه فالواجب أن يكون قتاله قتال المخرج الذي يعلم أنه إن هرب وأدبر قتل لا محالة وذم وأثم ، وإذا قبل وصبر ربما غلب وظفر وحمد وأجر .

ويضرب عن ذكر كل ما خلفه من نعمة وقنية ودار ومملكة وأهل وقرابة وخدم وحرمة ، ويتوهم أنه فائت بائد إن لم يستفده بالصبر والثبات .

ثم يتذكر ويذكر أصحابه عند التحريض أن من قُتل مُدبراً أكثر من قُتل

مقبلاً ، وليس الإِدبار بمنج مما سبقت به الأقدار، ولا الإقبال بمقرّب من الأجل .
ويذكر الآيات التي أنزلها الله في هذا الباب مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي
يُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرَجٍ
مُشِيدَةٍ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا
الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٣) .

ومثل قول النبي ﷺ ضربة بالسيف أهون من موت على فراش . وقوله :
أكرم الموت الشهادة .

ثم الأبيات التي تذكر عن أهل القدوة في الدين والشجاعة مثل أبيات علي -
رضي الله عنه - :

أَيَّ يَوْمَيٍّ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ يَوْمَ لَا يَقْدِرُ أَمَّ يَوْمَ قُلْدِرِ
ومثل بيتي معاوية :

كَأَنَّ الْجَبَانَ يَرَى أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ
فَقَدْ تَدْرِكُ الْحَادِثَاتُ الْجَبَانَ وَيَسْلَمُ مِنْهَا الشُّجَاعُ الْبَطْلُ
وأبيات الشجعان والأبطال التي ذكرنا شيئاً منها فيما تقدم من كتابنا .

(١) آية ١٥٤ آل عمران .

(٢) آية ٧٨ النساء .

(٣) آية ١٦٠ آل عمران .

ويذكر الآيات التي حث الله بها المؤمنين على القتال وأوجه بها عليهم ، وما أوعده به الفارّ من الزحف مثل قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصَةٌ ﴾^(١) .

وقوله : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) .

فإن في تذكر هذه الآيات في المعارك والمواقف الصعبة تأييداً للقلوب على مباشرة القتال ، وضرباً من الفأل ، والفأل تحريك للجذود^(٣) ، وبشارة للنفوس ، وتقوية للقلوب .

وربما خطر ببال الملوك وأصحاب الجيوش وجرى على السنتهم في تلك المواقف وغيرها من أوقات المخاوف والأخطار آية أو بيت أو كلام يتطير بها ، فتتكسر بذلك قلوب السامعين وتضعف به مُتَتَمِّمٌ ويكون سبباً للضعف والخور والخذلان والفشل .

ولقد ذكر المدائني أن أبا مسلم صاحب الدعوة بينا هو يسير مع عيسى بن موسى مُنْصَرِّفَهُ إِلَى أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ إِذْ جَرَى عَلَى لِسَانِ عَيْسَى فَقَالَ :

سَيَأْتِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَرْبَى مِنْكَ عِزًّا وَمُفْخَرًا وَأَنْهَدَ^(٤) بِالْجَيْشِ اللَّهُامُ^(٥) الْعَرَمَرِ

فقال أبو مسلم : ويحك هذا مع الأمان الذي أعطيتني فحلف عيسى واعتق ما يملكه من رقيق إن كان هذا الشيء من أمرك ، وما هو إلا خاطر أبداه لساني ؛

(١) آية ٤ الصف

(٢) آية ١٤ التوبة .

(٣) الجذود : الحظوظ

(٤) وأنهد : أي أكثر قيامها ونهوضا

(٥) اللّهُام : بضم اللام كأنه يلتمهم كل شيء .

فقال : بشس والله الخاطر إذن ، وطن أنه هالك ، وكان على ما ظنَّ .

ولقد ذكر أن دعبل بن علي الخزاعي ورد علي محمد بن طاهر بن عبد الله فطال عليه -حجابه ، فجعل يسأل على بابه عن أحواله وأوقاته حتى بلغه أنه يريد التفرغ للهو يوماً في بعض بساتينه ، وهناك نهر على شفاة مجلسه فأخذ بطة وعلق على جناحها رقعة مكتوب فيها :

يا أيها الملك المسرَّبلُ هيةً لا تأمننَ بوائقَ الحدَّانِ
صاحَ الزمانُ بآلِ برمكٍ صيحةً خَرُوا لوجبتِها على الأذقانِ
وثنى عليهم فاستباحَ حريمهم وأتى الزمانُ على بني هامانِ
هذا لعمرُك قد شهدتُ وقوعه والدهر رقبَ عن بني ساسانِ

وأرسلها في الماء فأخذت وقرئت الرقعة ، فتنغص عليه سروره وتمكن ذلك من نفسه فيما نسيه حتى حلَّ به ما حلَّ وطلب كاتبها فلم يقدر عليه ولا شعر به إلا بعد حين .

ولقد أخبرت أن يحيى بن خالد لما قُرب زوال دولته رأى في منامه كأن هاتفاً يهتف به ويقول :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامر^(١)
فأجابه يحيى وهو في منامه :

بلى نحن كُنَّا أهلُها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ الوائرُ

(١) قائل هذا البيت والذي بعده عمرو بن الحارث الجرهمي ، وهما من قصيدة يتوجع فيها على اخراج جرهم من مكة . أنظر سيره ابن هشام ١ / ١٢٠ .

وجعل هذا البيت يتردد على لسانه حتى صار الأمر إلى ما قال .

. وبلغنا أن أبا خالد الأعور لما لقي العرب من جيوش بني أمية على قنطرة السرحان ببلخ ، وكان قدر من لقيه منهم أربعين ألف فارس من قواد العرب وانجادها ووجوههم وأعيانهم وأبطالهم وفرسانهم ، وأبو داود في عدد قليل ، فلما التقت الفئتان صاح منهم صائح ﴿ نَعْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾^(١) ، فسمع ذلك أبو داود فقال مجيباً بما اجاب الله به أهل هذه الدعوة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾^(٢) ، فكان كما قال .

وهذا باب محكم والأخبار فيه كثيرة . فيجب على صاحب الجيش أن يتعهد فلا يجري على لسانه ولا يفعل ما يتطير به ، ويتعمد لما يتفاد به . فإن النبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره الطيرة^(٣) .

ولقد كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر واكد عليه وأخبره أن الفُرس أصحاب فآل فاستعمله معهم ، ووصف له من ذلك أبواباً عدة وفنوناً مذكورة .

والخامسة - أن يراقب حال جيشه ويتعهد أمر أصحابه فإن رأى منهم لا محالة ضعفاً لا يمكن تقويته ، وخوراً لا يستطيع تداركه بإصلاح ، أو علتهم هزيمة لا حيلة في ردها - احتال في الرجوع سالماً ، ولا يهلك نفسه لجأاً بعد خروج الأمر من اليد ، فإن الحرب سجال ، والدنيا إدار وإقبال ، والأيام دول ، وإلقاء النفس إلى التهلكة خطأ ، وكم من ملك غلب ثم غلب ، وظفر به ثم ظفر ، وهزم ثم هزم ، وليس مع فقد الحياة رجاء الظفر ، ولا مع بقائها يأس من تقلب الأحوال .

والسادسة - هي حسن الظفر إن فتح الله عليه ، وكرم المقدرة إن نصره الله ، وبذل العفو إن غلب ، واستعمال السنّة في أهل القبلة حتى لا يُغرق في

(١) آية ٤٤ القمر .

(٢) آية ٤٥ القمر

(٣) رواه أحمد في المسند ٢ / ٣٣٢ .

اتباع المنهزمين ولا الإجهاز على جرحاهم إن وجدوا ، إلا أن يكون كافراً لا يرجى إيمانه ولا يؤمل خير في إبقائه ، فإن هذا من أدب الله الذي أدب به نبيه ﷺ . حيث قال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) .

وقال : ﴿ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾^(٢) .

واحتال النبي ﷺ يوم فتح مكة بكل حيلة ليعفو فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ومن على عمه العباس .

وكذلك فعل الخلفاء بمن قدروا عليه حياً ، كفعل أبي بكر رحمه الله بقيس ابن معدي كرب حين قوتل على الردة فأخذ . وكذلك كانت السنة .

وبشر أمير المؤمنين عليّ ابن جرموز بالنار لما قتل الزبير مدبراً .

وقد قال أرسطاطاليس للاسكندر : لا تقتل صريعاً ولا تطلب منهزماً أكثر من ليلة .

والسابعة - أن يحذر كل الحذر كره العدو عليه بعد الهزيمة بغدرة أو انتهاز فرصة ، وليجعل حذره من ذلك في ثلاثة أبواب :

منها : أن لا يفرق جيشه في اتباع المنهزمين ، وينفرد عنهم أو يبقى في عدد قليل لا منعة لهم .

ومنها - أن لا يدع أصحابه يشتغلون بأخذ الغنائم عن مكره تكون للعدو ساعة الهزيمة ، فإنها إحدى حيل الملوك وأصحاب الجيوش ، فكثيراً ما سمعنا من أمثال ذلك في قديم الأيام وحديثها أن اشتغل عسكر غالب هازم بأخذ الغنائم فكان

(١) آية ١٩٩ الأعراف .

(٢) آية ٤ من سورة محمد .

فيه هلاكه ؛ وكم من صاحب جيش احتال بتسليم معسكره وخزائنه العامرة الوافرة وأمواله الجمة الكثيرة إلى العدو ، وصير كثيراً مما معه من الصفراء^(١) والبيضاء والصوامت^(٢) والقيمت المضمون بها على طريق العدو الذي في أثره ، فكان ذلك سبباً لقوته أو ظفـره .

ومنها - أن لا يبادر بالنزول ووضع السلاح قبل الإمعان بأخذ الحذر من العدو أو قتله أو بُعدـه عنه بُعداً لا يخاف كروره عليه وسرعة رجوعه إليه ؛ وإقامة الطلائع على الطرق التي يخاف رجوعه منها .

فهذه الخلال السبع التي ذكرناها مما يجب أن يستعملها الملك إذا دفع إلى القتال بنفسه ، ويتقدم بها إلى صاحب جيشه إن تولى عنه الحرب .

ثم العاشرة من التقسيم الأول هي أن يشكر الله عز وجل إذ فتح عليه على النصر شكر الله ونصره ، سرّاً وعلانية وفي الخلاء والملاء ، ويفوض الأمر كله إليه ويتبرأ من الحول والقوة إلا بالله ، ويحمده في كتبه إلى الأولياء والأعداء ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾^(٣) .

وقديماً ما قيل : الشكور يزاد .

وقال الله : ﴿وبدلناهم بجنّتهم ذواتي أكلٍ خَمَطٍ وائلٍ وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ . ذلك جزئناهم بما كفّروا وهل نُجازي إلا الكفور﴾^(٤) .

على أن ذلك لم يزل من عادة الأنبياء والمؤمنين والملوك الأوّكين عند تجديد الله

(١) الصفراء والبيضاء : الذهب والفضة

(٢) الصوامت : الأموال كالذهب والفضة

(٣) آية ٧ من سورة إبراهيم

(٤) آية ١٦ و ١٧ من سورة سبأ

عز وجل لهم الفتوح وإظهارهم على العدو.

ويشكر أهل البلاء والكفاية والعناء والبسالة من أصحابه وخاصته وعامة أوليائه ، ويمدحهم في مغيبهم ومشهدهم ، ويشهر باسم من صدق الوقعة واللقاء ، وبارز الأقران وانكمش^(١) في القراع ؛ ويجدد لهم العطايا والجوائز والمبار^(٢) ورفع المراتب لمن استحقها منهم ، فإن الله قد أدب بذلك خلقه وحث عليه في قوله : ﴿ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ لَا يَصِيْبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣).

وقال الله - جل وعز - ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾^(٤).

وقال الله في عام من يتقرب إليه بطاعة أو يعصيه معصية قلت أو كثرت : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾^(٥).

وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾^(٦).

وجعل من دلائل عدله وحكمته ورأفته أن من تقرب إليه بطاعته أوجب له جزاءين عاجلاً وآجلاً ، فالعاجل أن أمر المؤمنين بتعظيمه وتبجيله والثناء عليه والدعاء له وقبول شهادته والصلاة خلفه ؛ ثم أمدّه بتوقيه وعصمته وتسديده ،

(١) انكمش : أسرع وشمر وجد ، ورجل كمش وكميش عزوم ماضٍ سريع في أموره (اللسان - كمش)

(٢) المبار : جمع مبرة وهي أعمال الخير

(٣) آية ١٢٠ و ١٢١ التوبة .

(٤) آية ٩٥ و ٩٦ النساء .

(٥) آية ١٦٠ الأنعام .

(٦) آية ٧ الزلزلة

وحبب إليه طاعته وبغض إليه معصيته ، كما ذكر ذلك في كتابه حيث خاطب به المطيعين من عباده ، فقال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ^(١) .

في آيات كثيرة ودلائل حاضرة تشهد بما ذكرنا وتبين عما قلنا .

ثم يتعهد جيوشه بتفقد أحوالهم فيأمر بمداواة جرحاهم وتمريض مرضاهم ودفن قتلاهم ، وإبدال ما ينفق ^(٢) من دوابهم ويضيع ويفسد من كراعهم وسلاحهم ، ويكفي ويعول ورثة قتلاهم وموتاهم ، فإن ذلك مما يحثهم على العود إلى مثله من إظهار البلاء والغناء وتحمل المشقة والعناء ، والاجتهاد في التقدم في المراتب .

فهذه الخلال تمام ما يستعان به على كسر الأعداء وإذلالهم ، وإعزاز الأولياء وإنعاشهم ، وهي كلها من أوامر الله تعالى في الدين ، وأفعال الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين . وبالله نستعين فإنه خير موفق ومُعين .

* * *

(١) آية ٧ الحجرات

(٢) نفقت الدابة . ماتت

البَابُ العَاشِرُ

في تقدّم النيات وطلب التأويلات لكثير مما يجري في أيدي الملوك والأمراء
مما اختلف فيه كثير من العلماء أؤكده كثير من الفقهاء

نقول إن الله عز وجل خلق جميع ما في هذا العالم لخلق لا لنفسه ، فلم
يحظر عليهم شيئاً منها بخلاً به عليهم ولا استئثاراً به دونهم ، ولذلك ما قال : ﴿ قُلْ
مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ (٢)

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ (٣) .

ثم حظر عليهم أشياء نظراً منه لهم ورحمة بهم وإبقاء عليهم وتعويضاً لما هو
أنفع لهم وأبقى وأزین وأبهى وأعم لصالحهم وأولى ؛ فوقع الحظر والتحريم في كل
ما وقع فيه لجهات من العلل معلومة وأغراض للخلق عند العلماء مفهومة .

منها أنه قسم بينهم معاشهم بما في هذا العالم من أصناف نعيمها وزهرة
دنياها ، فجعل لكل منهم حظاً على ما علمه أصلح له وأنفع ، ومن الفساد أمتع ،
ونهى غيره من البشر عن أن يزاحمه في حظه ويكاثره على قسطه عدواناً وظلماً وقسراً

(١) آية ٣٢ الأعراف

(٢) آية ١٦٨ البقرة

(٣) آية ٥١ المؤمنون

وغشياً ؛ إلا بشرائط معلومة وحدود مضرورة من البيع والهبة والميراث والعوض من التعاون والتعاقد ؛ لما علم في ذلك^(١) من فساد العباد وهلاك البلاد .

ومنها أشياء خلقها لهم لضرب من ضروب المرافق ، ونوع من أنواع المنافع ، ونهاهم عن أن يعدلوا بها عن جهتها إلى غير ما خلقها الله له ، جهلاً بموضع النفع فيه ومكان الرفق به ، مثل السموم التي جعلها للأدوية ، فربما جعلها بعضهم في الأغذية وكان فيه هلاكه وهلاك غيره .

ومنها أشياء حظرها عليهم اقتصاراً بهم على المقدار الذي يكون فيه كفايتهم ، وتنسد به خللتهم ، ثم يكون أرفق بهم وأفرغ لقلوبهم من دواعي البغي والكفران والتعدي والطغيان ، فنهاهم أن يتعدوا أطوارهم ويتجاوزوا أقدارهم .

ومنها أشياء جعلها لهم في أول الخلقة لضرب من الاستعمال ونهاهم عن استعمالها في غيره تأديباً لهم وتنظيماً كالميتة التي حرم عليهم أكلها وأباح لهم عند أكثر العلماء الانتفاع بإهابها وعظامها ، وجعل لحمها غذاء للسباع الأرضية والهوائية من كلاب تحرسهم وتصطاد لهم وتؤنسهم ، وسباع جعل لهم في عظام كثير منها وجلودها وأنيابها مرافق مختلفة .

فلم يحرم شيئاً منها من جهة إلا جعل عنه عوضاً هو انفع منه لهم وأرفق بهم ، ثم أباحه لهم من جهة أخرى ليتم به المنفعة والغرض ، ويستحق به العبد على الطاعة من الله - تبارك اسمه - العوض .

فيجب على العبد إذا علم أن ذلك كذلك أن لا يتعدى حدود الله ولا ينتهك محارمه ، فيحرم حظه من العوض دنياً ، ويلتزم سمة الجهل ديناً ، ويستحق من الله - جل وعز - العقوبة في العقبى ، ومن العقلاء من المتدينين الذم في الأولى .

(١) ذلك : إشارة إلى المزاحمة والمكاثرة عدواناً وظلماً الخ .

الحلال
والحرام
والمشتبه

ثم إن الأشياء تنقسم في بابي التحليل والتحريم إلى ثلاثة أقسام : حرام
بين ، وحلال بين ، ومشتبه مكروه .

فأقل ما يجب من حق الله على المرء المسلم أن يتجنب الحرام ، ومن حق
الورع أن يتجنب الشبهة ، فمن لم يفعل ذلك طلب في الشبهة موضع تأويل يتأوله
وحجة يعتمدها .

ثم ينقسم هذا الباب قسمة ثانية ، وهي أن منها أشياء حرّمها الله بالإجماع
والإطلاق ؛ وأشياء أحلها وأباحها بالاتفاق ؛ وأشياء قد اختلف العلماء فيها .

فالواجب على المقر بالله وبالشرعية ، والمعترف بحق التنزيل والديانة أن
يحتنب الحرام المطلق بالاتفاق ، وينظر في موضع الاختلاف ؛ فمن لم يفعل
واقصر على أحد أقاويل الأمة وأئمة أهل الملة كان أوسع طريقاً وأقرب إلى الحق
سبيلاً .

ثم جعل الله - وله الحمد - إلى استبانة المشكل واستيضاح المشتبه منها طرقاً
لائحة ، وسبلاً واضحة ، وجعل للهارب من الحرام إلى الحلال سبلاً معلومة ،
وعن كل محرم بدلاً يسكن إليه المتدين ، ويقنع به المستخرج .

والناس في هذا الباب على طبقات ثلاث :

فمنهم الناسك الورع الذي يدع كثيراً مما أحلّ الله له ويقنع من الدنيا
بالقوت الذي يزجي به يومه ، رغبة عنها وزهداً فيها إذ عرف وعاین سرعة زوال ما
في هذه الدار ووشك انتقالها من حال إلى حال ، وكثرة غدرها بأهلها ، وإذلالها لمن
أعزّها ، وقتلها لمن عمرها .

سُمواً بهمتهم البعيدة ونفسه الزكية إلى نعيم لا زوال له ، ودارٍ لا انتقال

عنها ، فصار في الدنيا ملكاً بطيب الحياة ، وفي الآخرة ملكاً بنيل الثوبات والمكرمات .

وبهذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له : إن أمكنك أن تدع مما أحلّ الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرّم الله عليك فافعل ، فإن من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام .

ومنهم المتهتك بمحارم الله ، الذي لا يفكر في عاقبة ولا ينظر في آخرة ، ولا يترفع في الدنيا عن لؤم الأحداث وقبح المقالة ، ولا يعتبر بالعقوبات المؤلمة المعجلة ؛ فمن كانت هذه سبيله وطريقه فبُعْداً له وسحقاً .

ومنهم من يرغب من الدنيا في لذة العيش وطيب الحياة ، ومن الآخرة في نيل الأجر والثواب ، فتوخّى فيه الحلال واجتنب الحرام وتمتع بالدنيا وقام بوظائف الدين ، وأمل أن يكون من الذين آتاهم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ومن الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فعسى الله أن يتوب عليهم إذا تابوا ، ويغفر لهم إذا أنابوا .

فمن الواجب على الملك العاقل الفاضل إذا عرف ما قلنا أنه إن لم تطاوعه نفسه على رفض الدنيا حتى يلحق بمنزلة الزهاد الأخيار ، أن لا يرضي بمنزلة الفسّاق الفُجار فيكتسب المآثم ويدخل النار فيخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

ثم قد اختلف العلماء في تولي العمل للملك الجائر والسلطان الظالم ، ^{حكم} ^{تولي العمل} ^{للحاكم الظالم} فحرّمه كثير منهم ، وكرهه طائفة ، وأجازه آخرون ، ما لم يأمر السلطان العامل بالجور ويجبره على الظلم ، فإذا أمره بذلك حرم عليه تولي عمله إلا مضطراً كارهاً خائفاً على نفسه القتل والضرب الذي لا صبر له عليه .

وخالف كثير منهم بين هذه الأعمال فحرم منها بعضاً وهو كل

عمل يدخل فيه أخذ مال من غير حِلِّه ، وإهراق دم في غير حقه ، أو حبس أو تعذيب . وأباحوا الكتابة والقضاء والحسبة وأشباه هذه الأعمال .

واحتج المحرمون بقول الله عز وجل : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) . وقوله ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴾ ^(٢) . وبقول الرسول ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(٣) .

قالوا : فكيف تجوز مؤازرته ومعاضدته وليس له من الله ولاية ولا عهد؟

وقال آخرون : إذا لم يأمره بالمعصية وأباح له الحكم بما أمر الله به فالمستحب له أن يفعل ذلك ليقيم حقاً ويمضي حكماً ويرد باطلاً ويدفع ظلماً ، فقد قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ^(٤) .

قالوا : ولا قدوة أجّل من يوسف نبي الله عليه السلام حيث تقلد العمل من تحت يد الريان بن الوليد وهو كافر وقومه كفار ، وأن ذلك جائز أو واجب لمن علم فيه صلاحاً ونوى فيه خيراً .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أحد أعظم أجراً من وزير مع سلطان يأمره بذات الله » .

فعلى المتقلد الصلاح والخير ، ويأمر بالإنصاف والعدل ، ولا يضره التقليد بين يدي ظالم ، وقد روى عن النبي ﷺ قوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن

(١) آية ١٢٤ البقرة

(٢) آية ٥١ الكهف

(٣) سبق تخريج الحديث

(٤) آية ١٠٥ المائدة

كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (١) .

وكره كثير من المسلمين ما أحدثه الملوك من إقامة الحجاب والغلمان وشدة الحجاب ، وقالوا إنه بدعة ودلالة على الخيلاء والتكبر ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من أحب أن يمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » (٢) .

وأجازه آخرون إذا لم يقصد به هذه الأسباب وتوخى فيه الاحتياط لدينه والذب عن نفسه وحرمة ، وإعزاز مملكة الإسلام ، لا سيما عند فساد الزمان وأهله ، وإدبار الأمور وتهافت الناس في دور السلطان ، وتحارصهم على صحبته مرة والغدر به تارة .

ولذلك فلا بأس بشراء العبيد لينصر بهم الدين ويذب عن حوزة المسلمين ، من غير ميل إلى شهوة ، أو قصد إلى محرم ، إذا جعل ذلك من خاصة ماله فيكونوا عبيده .

ولا خير في الغلمان المزوقة وإلباسهم الملابس المكروهة في الدين من الديباج والحرير إلا ما رخص منه في الوقعة والحرب وعند الطعن والضرب ، فإن النبي ﷺ قد حرمهما على رجال أمته إلا في تلك الحال . ولا بأس بعد الحرير والديباج بلبس كل ثوب فاخر من الخزوز والبرود .

تحریم
الحرير على
الرجال
والملحم .
وكره كثير من العلماء قياساً على الحرير والديباج كل ثوب نسج من الأبريسم الخالص ، ورجعوا (٣) في الثياب التي سداها قطن ولحمها أبريسم مثل المسقط

وكل ما لم يكن فيه ذب عن الحوزة ومعونة للأمة وصيانة للملة ولا عدة للحرب ونصر لسمعة فيه يثبت المال - فهو حرام ، إلا أن يفعل ذلك السلطان من خاصة ماله أو رزقه في الديوان .

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه أبو داود والترمذي . انظر جامع الأصول ٥٣٦ / ٦

(٣) ورجعوا في : هكذا في الأصل وأظنه تحريفاً وتستقيم العبارة إذا قلنا : وأباحوا الثياب الخ .

فأما سائر أنواع العدد والعتاد والسلاح من الطبول والأعلام ومعاون الإسلام فلا بأس به إذا نوى بها الخير الذي ذكرناه ؛ فقد كان للنبي ﷺ فرسان ونعلان وراية ودرع وسيف مُحَلَّى وقضيب ورمح وترس ؛ وكان لأصحابه سلاح كثير ، وكان لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ولعبدالله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابة سيوف مُحَلَّاة .

تحريم أواني

وأما استعمال أواني الذهب والفضة والسرر المرصعة بالجواهر فإن الدين قد الذهب حرّمها كلها وأوعد النبي ﷺ على الشرب بآنية فضة أو ذهب وعيداً غليظاً ، والفضة فلا يجوز للسلطان في الإسلام ولا لغيره استعمالها أو صرف أمواله وأموال المسلمين وبيت مال المؤمنين إليها فإن فيها سرفاً وتبذيراً .

وقد جعل الله الزجاج التنظيف وأنواع الجواهر التي خلقها للآلات بدلاً من الذهب والفضة اللذين لم يخلقاً للأواني والشرب ؛ على ما في ذلك من إضاعة الجيوش وإفقار الجنود وفتنة الرعية والإجحاف بها ، وكل ذلك إيدان بزوال الملك والمملكة ، ودلالة على الخيلاء والشره والحرص المذموم في الدين والعقل ، ووضع الشيء في غير موضعه .

الزنى
والخمر

فأما الفواحش المحرّمة في الدين بالاتفاق والتي يقع فيها قطع النسل وفساد الأنساب ، وإبطال الموارث والأحساب - فالملك أجلّ حالاً وأرفع منزلة من التدنس به والتقدير بعاره وشناره ، بل الواجب عليه في جلالة رتبته وشرف همته وعلو منزلته أن لا يخطره بباله فضلاً عن تناوله .

وليس يبعث عليه إلا الشيطان وسوء العادة التي يتعودها الإنسان ؛ وقد عوّض الله عنه وأبدل منه ما هو أرفع منه وأطيب وأحمد عاقبة وأصوب ، وأعمل في عمارة الدنيا وبقاء النسل وخيرة الذكر ، من تزوج النساء مثنى وثلاث ورباع ،

واستبدال زوج مكان زوج ، إلى ما لا غاية له ، وشراء الإماء وتسري الجواري إلى ما تبلغ إليه الطاقة وتنتهي إليه الهمة .

وأما الشرب فقد أجمعت الأمة ونطقت الآية بتحريم الخمر وهو عند العرب عصير العنب غير مطبوخ ، فلم تختلف الأمة أن الله حرّمها قليلها وكثيرها ، وحرّم السكر من كل شراب لما ذكر الله فيه من أنواع الفساد من وقوع العداوة والبغضاء المؤديين إلى خراب العالم ، وتضييع الصلاة والدين المؤدي إلى أليم عذاب الله وشديد عقابه ، نعوذ بالله منه .

واختلفوا فيما دون السكر مما دون الخمر من الأشرية ، مثل الباذق^(١) والنبيذ الزبيبي والتمري ، فمنهم من حرّم كل مسكر الجنس ، ومنهم من أباح بعضه دون بعض .

ووردت الرخصة والروايات عن النبي ﷺ وأهل القدوة من الصحابة والتابعين والعلماء المتقدمين دلالة وتصريحاً في إباحة بعضه والزبيبي خاصة . والأحوط في الدين تركها بكليتها ، ومجانبتها بجملتها لما يتوقع فيها من الفساد .

ومن لم يسلك هذا المسلك فالمختلف فيه أقرب من الحق وأشبه من المتفق على تحريمه ، فيجب على الملك أن لا يختار أفحش المذاهب وأبعدها من الدين .

حكم سماع
وأما السماع من المزامير والطناير والمعارف فإن الناس قد اختلفوا فيه ، المزامير فحرّمه كثير منهم ، وتخرج عنه عامة أهل الدين والورع والفضل ، قالوا وذلك لأنه والمعارف هو ولعب وصدّ عن سبيل الله ، وقد جاء الدين بتحريم هذه الأبواب جملة ، وقد والأغاني قال الله : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾^(٣) .

(١) الباذق : ما طبخ من عصير العنب أدنى الطبخ . والكلمة فارسية

(٢) آية ٧٠ الأنعام

(٣) آية ١١٥ المؤمنون

وقال بعضهم إن ذلك مباح ما لم يُتغنَّ فيه بكلام قبيح من حث على زنى أو فاحشة أو كفر أو هجاء ، فإن النبي ﷺ سنَّ في الدف^(١) سنة عند العرس والزفاف ، ولقن فيه كلاماً صدقاً ، وهو مشهور بالحجاز ومكة إلى يومنا هذا . وقد كان مباحاً بل مأموراً به في الشرائع المتقدمة وعلى لسان داود عليه السلام ، على ما جاءت به الروايات .

ولجلالة حال السماع عند الأوائل وإباحته لهم بما ألف الفلاسفة فيه من كتب الموسيقى وعنوا به العناية الشديدة .

وأما العرب فقد كانت لهم ضروب من الأغاني في صدر الأمة وقبله وبعده قد عرفت بينهم ، فلم ينهوا عنه نهياً باتاً ، وما ورد بالنهي الفاصل فيه كتاب محكم ولا خبر مجتمع عليه والوجه فيه أن يتحرج من كثير منه ويكتفي من جميع السماع والأغاني بالقرآن ، فقد روى عن النبي ﷺ « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »^(٢) .

وقال : « ما أذن الله بشيء كاذنه للذي يتغنى بالقرآن »^(٣) .

فإن جاوز ذلك فرواية الأشعار العربية وغيرها مما يفيد المعاني الشريفة ويبعث على مكارم الأخلاق من الجود والشجاعة والكرم والسباحة والحلم والعفة والعلم والديانة ؛ وينتقي منها أجودها وأفصحها وأبلغها وأحكمها ، وتكون النية في ذلك استفادتها واستعمالها .

واختلف الناس في الملة فيما يستعمله الملوك من الركوب إلى الصيد والصولجان والطبابة^(٤) وما أشبهها ، فعزموه قوم وكرهه قوم ، وزعموا أن ذلك من باب اللعب واللهو ، وفيه حمل على الدواب فوق طاقتها ، وإفناء للعمر فيما لا فائدة فيه ولا معنى له ؛ وأجازه آخرون واختاروا منها ما يخف على الدواب والأفراس ، وأجازوا الاصطياد على نية الانتفاع والنفع به ودفع ضرر الحيوانات المؤذية عن

(١) رواه البخاري في النكاح ، وأحمد في مسنده ٢٥٩ / ٤

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والدرامي وابن ماجه وأحمد في المسند

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي : جامع الأصول / ٤٥٥

(٤) الطبابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة

المسلمين ، ورياضة الدواب والأبدان بالفروسية للذب عن الملة وحماية الحوزة .

قالوا : فلا بأس به إذا قصد هذا القصد وذهب إلى هذا النحو وتجنب فيه الإفراط ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يسابق بناقته العضباء ،^(١) وقلما كانت تسبق . قالوا وكانوا يستبقون على الركاب وعلى الخيل وعلى أقدامهم .

قالوا : وكتب عمر بن الخطاب رحمه الله إلى أهل حمص أن علموا أولادكم الفروسية والرمي واختلفوا بين الأغراض .

وروى النزال بن سبرة قال : أتانا كتاب عمر بن الخطاب رحمه الله بثلاث تعلموا الرمي واختلفوا وارفعوا الأزر .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من هوكم إلا النضال والرهان»^(٢) .

وليس بين هذه الأبواب وبينها فرق .

وقد كان للنبي ﷺ من المهاجرين والأنصار فرسان أشداء مذكورون أبطال مشهورون كالزبير بن العوام وخالد بن الوليد والعباس بن مرداس السلمي وعبدالله بن رواحه الأنصاري وكعب بن مالك ، ودونهم .

ومعلوم أن مثل تلك الفروسية لا يبلغها الإنسان إلا بالرياضة الكثيرة والعناية الشديدة .

وأما الصيد فأصله مباح ، وهو حلال بالاتفاق ما لم يقع فيه نية فاسدة .

حكم
الصيد
والألعاب

فهذه جل ما أردنا أن نذكره من الخصال التي يشتغل بها الملوك والأمراء والرؤساء والخلفاء ، ويولعون بها ويستعملونها ، وقد شرحناها وبينناها وأوضحنا ما يجب أن يقدم فيها من نية صادقة ، ويتأول لها من تأويل صحيح . ورأينا أن نختم

(١) رواه البخاري وأبو داود والنسائي . جامع الأصول ٤٠/٥

(٢) النضال : إصابة الهدف . الرهان : يكون في مسابقة الخيل بشروط خاصة

الكتاب بخصال مأثورة وخلال مذكورة عن الملوك الأولين والخلفاء الراشدين والحكماء المتقدمين وذوي التجارب والحجى والأحلام والنهى مما مدحوا بها وامتدحوا ، وقآخروا وافتخروا ، وعدوها أعمدة السلطان وأركان الدول وأساس السياسة وجمال الملك والخلافة ، وإن كانت قد دخلت متفرقة في خلال الأبواب التي قدمناها .

آداب
منثورة

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أيماراع بات ليلة واحدة غاشا رعيته حرمت عليه الجنة »^(١) .

قالوا : وتناير غلامان إلى الحسن بن علي في خط قد كتباه في لوح ، فقال عليّ ثبت فيه يا بني فإنه حكم الله سائلك عنه يوم القيامة .

قالوا : وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بعد كلام له : بأشرُ أمورهم بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً ، وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومركبك ومطعمك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتفها في السمن .

وقال عامل من عمال عمر بن الخطاب له : عظمي ، قال : أوصيك بتقوى الله ودعوتين ترجو إحداهما وتخاف الأخرى ، دعوة لهفان تعينه بالشيء فيدعو لك ، ودعوة مظلوم وهي أوشك صعوداً إلى الله وأسرع كرة ، إن الله أمر بالطاعة وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً ، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها حجة .

قالوا : وكان عمر بن عبد العزيز يقول : والله لولا أني أنعيشُ سنة أو أميتُ
(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد . وليس في البخاري ومسلم . ليلة واحدة . انظر جامع
الأصول ٥٣/٤

بدعة لما سرّني أن أعيش في الدنيا فوقاً ، ولوددت أني كلما أنعشتُ سُنّة أو أمتُ بدعة أنّ عضواً من أعضائي سقط .

قالوا : وكتب عمر^(١) إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر كل ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سُنّة ماضية أو حديث عم فاكته ، فإنني قد خِفْتُ دروس^(٢) العلم وأهله ، وقال : مَنْ عَمِلَ على غير علم كان ما يُفْسِدُ أَكْثَرَ مما يُصْلِحُ ، وَمَنْ لَمْ يُعَدِّ كَلَامَهُ من عمله كثرت ذنوبه .

وروى عمر بن عبد العزيز وهو يقول : اللهم زد مُحْسِن أمة محمد إحساناً ، وأرجع بمسيئتهم إلى التوبة ، وقال باصبعه اللهم حُطَّ من أوزارهم برحمتك .

قالوا : ووفد عمرو بن أمية الضمري على النجاشي ، فدخل عليه فقال : إنا وجدناك كأنك في الرقة علينا منا ، وكأننا في الثقة بك منك ،^(٣) لأننا لم نردك لأمر قط إلاّ نلناه ولم نُخَفِكَ عليه إلاّ أَمِنَاهُ .

قالوا : ووفد وفدٌ على سليمان بن عبد الملك ، فدنا متكلمهم فقال : يا أمير المؤمنين إنا والله ما أتيناك رغبة ولا رهبةً ، قال : فما جاء بك ؟ لا جاء الله بك . فقال أما الرغبة فقد وصلت إلينا في رحالنا ، وأما الرهبة فقد أَمِنَاهَا بعد ذلك ، ولقد حَبَبَتْ إلينا الحياة وهونت علينا الموت ، فإننا نرجوك لمن نخلف من أعقابنا . وكتب أرسطاطاليس إلى الإسكندر : مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ أَنْ يَأْمَنَ أَهْلُ الْوَرَعِ وَالسَّلَامَةِ عَقُوبَتَكَ ، وَيُوطِنَ أَهْلُ الرِّبَا وَالذَّعَارَةِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَزُولِ نَقْمَتِكَ بِهِمْ . ولقد أحسن في هذا المعنى صريع الغواني^(٤) حيث يقول في يزيد بن يزيد :

الزائديون قَوْمٌ فِي رَمَاجِهِمْ خَوْفُ الْمَخُوفِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْوَجَلُ

(١) أي عمر بن عبد العزيز ، بدليل ما قبله .

(٢) دروس : مصدر الفعل دَرَسَ أي زال .

(٣) أي كأننا منك عندما نثق بك .

(٤) هو مسلم بن الوليد .

وفي كلية ودمنة : إنما يؤتني السلطان من قِيل ست : الحرمان والفتنة
والفظاظة والهوى والزمان والخرق .

أما الحرمان فأن يحرم ست خصال أو يعطاها نواقص منها صلح الوزراء
والحياة والمال والبلد والحصون والرسل .

وأما الفتنة فتهيج الأعوان وتشعب الجند وتحارب الناس .

وأما الفظاظة فافراط الخشونة بإرسال اللسان بالشتيم ، واليد بالبسط في غير
موضعها .

وأما الهوى فالإغرام بالنساء والشراب والملاهي والصيد ، حتى يستفرغ
الفراغ فيه .

وأما الزمان فما يصيب الناس فيه من السنين والموتان ونقص الثمرات
والآفات في الحرث والنسل .

وأما الخرق فسوء التدبير ، ومعاملة العدو في حال السلم بالحرب ، وفي حال
الحرب بالهدنة ، وإعمال الشدة في موضع اللين ، واللين في موضع الشدة .

وقالوا إن الحازم يحذر عدوه على كل حال ، يرهب الموائبة إن قرب ، والغارة
إن بُعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولى ، والمكر إن أتاه وحيداً ،
ويكره القتال ما وجد منه بُدأ ، لأن النفقة فيه من الأنفس ، والنفقة في غيره من
المال .

وإذا كان الملك محصناً لسره ، بعيداً من أن يعرف ما في نفسه ، متخيراً
للوزراء ، مهيباً في أنفُس العامة ، متكافياً بحسن البلاء ، لا يخافه البريء ولا يأمنه
المريب ، مقدراً لما ينفق كان خليقاً ببقاء ملكه .

قالوا : وقال الفضل بن مروان : كانت رسل الملوك ملوك الأطراف إذا جاءت بالهدايا يجعل اختلافها إليّ ، فيكون للجوابات ولما معهم من ذلك موضع من ديواني ، وكنت أسأل رجلاً رجلاً منهم عن سير ملوكهم وأخبار عظمائهم ، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم ، فقال : بَدَلَ عُرْفَهُ وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة ، لا يبهظ جنده ولا يخرج رعيته سهل النوال حزن البطال ، فالرجاء والخوف معقودان في يده . قلت فكيف حُكِّمَهُ ؟ قال : يردع الظالم ويردّ الظلم ويعطي كل ذي حق حقه ، فهم اثنان راض ومغتبط . قلت وكيف هيبتهُم له ؟ قال : يتصور في القلوب فتغضي له العيون . قال : فنظر رسول الحبشة إلى إصغائي إليه وإقبالي عليه ، فسأل ترجمانه ما الذي يقول ؟ قال : يصف ملكهم وسيرته .

قال فكلم الترجمان بشيء ، فقال لي الترجمان : إنه يسألك أن تصغي إليه وتقبل بعينك عليه ليحدثك عن ملكهم ، ففعلت . فكلم الترجمان طويلاً ، ثم قال الترجمان : إنه يقول إن مَلِكَهُم ذو أناة عند المقدرة ، وذو حلم عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجترام ، قد كسا رعيته جميل نعمته وقصد بهم تعنيف عقوبته ، يتراءونه ترائي الهلال جلالاً ، ويخافونه مخافة الموت نكالاً ، قد وسعهم عدلاً ، وردعهم سوطه وكبله ، لا تمتهنه مزحة ولا تؤنسه غفلة ، إذا أعطى أوسع وإذا عاقب أوجع ، فالناس اثنان راج وخائف ، فلا الراجي خائب الأمل ، ولا الخائف يفقد الأجل .

قلت فكيف هيبتهُم له ؟ فقال : لا ترفع إليه العيون أجفانها ولا تتبعه الأبصار إنسانها ، كأن رعيته قطا فرقت عليه صقور .

قال فحدثت المأمون بهذين الحديثين ، فقال لي : كم قيمة مقالة الرجلين عندك ؟ قلت : ألفا درهم يا أمير المؤمنين . قال : الله يا فضل إن قيمتها عندي أكثر

من الخلافة ، أما عرفت حديث أمير المؤمنين عليّ رحمه الله وفيه كل إنسان وما يحسن ؟ أتعرف أحداً يحسن أن يصف بعض خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هاتين الصفتين ؟ قلت لا ، قال : فهذان قد أمرت لهما بعشرين ألف دينار وأنا مستزید لهما فاخلع عليهما واجعل العذر سُدّة بيني وبينهما فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه .

قال الواقدي : توفي بعض رسل الملوك بدمشق زمن عبد الملك بن مروان ، فوجد في جيبه لوح من ذهب فيه ثلاثة أسطر : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات استخفت البركات .

وذكر المدائني مما وجد في كتب الأولين من الخصال التي هي أعمدة السلطان هذه الأحرف : ما أزيل الملك بمثل الإهمال ، ولا جوهده بمثل الرأي ، ولا استنبط الرأي بمثل المشاورة ، ولا قلّ العدو بمثل العدل ، ولا استنزل النصر بمثل الكف ، ولا حصنت النعمة بمثل المواساة ، ولا كوفئ الإحسان بمثل النية ، ولا حلّيت الأشراف بمثل التواضع ولا اكتسبت البغضة بمثل الكبر .

وقال عبد الله بن المقفع : ينبغي للسلطان العاقل أن يعلم أن عليه أربع خصال من أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت ، الاجتهاد في التخير ، والمبالغة في التقدم ، والتعهد الشديد ، والجزاء العتيد . أما الاجتهاد للتخير فإنه التخير للعمال والوزراء ، فإنه نظام الأمور ، ووضع مؤونة البعيد المنتشر فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلاً واحداً قد اختار ألفاً ، لأنه من كان من العمال خيراً فیتخیر كما اختیر ، ولعلّ عمال العامل وعمال عماله يبلغون عدداً كثيراً ، فمن سنّ التخير فقد أخذ بركن وثيق ، ومن أسس أمره على غير ذلك لم يجد لبنائه قواماً .

وأما التقدم والتوطيد فإنه ليس كل ذي لب وذی أصالة يعرف وجوه الأمور

والأعمال ، ولو كان بذلك عارفاً لم يكن صاحبه حقيقاً أن يكل ذلك إلى علمه دون توقيفه عليه وتنبيهه له والاحتجاج به عليه .

وأما التعهد الدائم فإن الوالي إذا فعل ذلك كان سميعاً بصيراً ، وإن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصناً حريزاً . وأما الجزاء العتيد فإنه يثبت المحسن ، والراحة من المسيء . وقال : لا تستطاع الأعمال إلا بالوزراء والأعوان ، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف .

قال : وكتب قيصر إلى أنوشروان يسأله عما ضبط به ملكه ، فكتب إليه : لم أهزل في أمر ولا نهى قط ، ولم أخلف وعداً ولا وعيداً ، ووليتُ للغناء لا للهوى ، وعاقبتُ للأدب لا للغضب ، وأودعتُ الرعية الرهبة من غير صنعة وأسكنتُ نفوسهم المحبة من غير جرأة ، وعممت بالقوت ، ومنعت الفضول .

وفي حكم الهند : لا ينبغي للسلطان إقصاء البعيد إذا نفع قريبه ، فلا شيء ينفع أقرب من الجسد ، وربما دووي فكان برؤه بالدواء يؤثر به من بعيد ، والجرد جارٌ مدانٍ فلما ضر نفي ، والبازي بعيد وحشي فلما نفع أدني واقتني .

وفي كلیلة ودمنة : وليس لصاحب الدنيا مال ولا صديق لعمل صالح ، فهو حقيق أن يجعل سعيه فيما يبقى ويعود نفعه ، ويرفض ما سواه ، وينزل المال بمنزلة المدر ، والنساء بمنزلة الأفاعي ، والناس فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر بمنزلة نفسه .

قال : وتكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات في الحكم بين الكلام والسكوت ، فصارت أعمدة وحكماً : فقال كسرى أنا على ما لم أقل اقدرُ مني على رد ما قد قلت .

وقال قيصر : لا أندم على ما لم أفل ، ولكنني أندم على ما قلت .

وقال ملك الصين : إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني ولم أملكها .

وقال صاحب الهند : عجبت ممن يتكلم بالكلمة إن ذكرتُ عنه ضرته ، وإن لم تذكر عنه لم تنفعه .

وكان يقال : خصال من طبائع الجهال : الغضب من غير شيء والإعطاء في غير حق ، وإتعايب البدن في الباطل ، وقلة معرفة الرجل بصديقه من عدوه ، ووضع السرة في غير موضعه ، وثقته بمن لم يجربه ، وحسن ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء ، وكثرة الكلام من غير نفع .

قال : وسأل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص : مَنْ أبلغ الناس ؟ قال : من ترك الفضول وأقبل على الإيجاز . قال : فمن أسخى الناس ؟ قال : من ترك ديناه في صلاح آخرته .

الأحنف بن قيس قال : قال لي عمر بن الخطاب يا أحنف لا تضحك فإن من كثر ضحكك ذهبت هيئته ، ومن كثر مزاحه استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل ورعه ، ومن قل ورعه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه مات قلبه .

وفياً كتب أرسطاطاليس إلى الاسكندر : قد يجب على الملك أن يكون كما أصف عظيم الهمة ، واسع الفكرة ، جيد البحث ، مطلعاً على العواقب ، رؤوفاً رحيماً ، إذا غضب لم ينفذ غضبه ، وإذا تحركت الشهوة فيه ردّها بعقله ، وإذا وافق الصواب أنفذه ، غير لجوج ، وغير وقاح ولا بذخ ولا متهاون ، يعرف آثار من تقدمه ، وينزل الناس على أقدارهم واستحقاقهم ، ولا يضع مراتبهم ، ويتزين لهم بزينة محمودة وأخلاق جميلة ، ويكون متمسكاً بالدين راغباً في الخير والفضل .

وأجاب عن مسائل كتبها إليه الاسكندر يسأله عنها فقال : أي ملك تطاول على جنده وقواده لم يأمن الحيف . أي ملك ضيع الصغير من أمره لم يسلم عليه كبيره . أي ملك نظر في عواقب اموره عذب على ذلك حديث الرعية بفضله وامتدحوه بعقله .

وقال : انظر لضعفاء أهل مملكتك يشكرك عليه أقوياء أصحابك وضعفاؤهم ، وثاب عليه في العاقبة . ونظر الأقياء وتضييعك للضعفاء أمر لا يحمذك عليه الضعفاء ولا يمدحك به أهل المعرفة بالسير ، بل حقاً أقول إنك تنال بالعقوبة ، ومثلك في الدنيا مثل صاحب البستان الذي يضيع أن يسقي الشجر المحتاج إلى الماء ، ويصرف الماء إلى ما لا حاجة به إليه .

وفي بعض سياسة الهند : واعلم أنك إن لم تفصل القضاء على من جارت عليه الخصوم ونكب ، حولت خصومته عليك ، ودخلت بينه وبين خصمه الذي جرت عليه ، وإن عدل الله بعد ذلك من ورائه وورائك حتى يستوفي له منك ، فلا تكتف بالعدل عليهم فيما بينهم دون أن تأخذ لهم من نفسك وتنصفهم منها ، وتعديل عليهم فيما ينوبهم من حقك وينوبك من حقهم قبلك ، فإذا أنت احرزت العدل بإذن الله فاجمع إلى عدلك على الرعية الرأفة بهم والمرحمة والعفو عن جاهلهم ، وبث الأموال في مساكنهم ، ولين الجانب بعامتهم فإن البد^(١) قال لبعض ملوكنا حين سألته عن العدل : إذا أنزلت كل طفل من الولدان لك ولداً ، وكل كبير من الرجال لك أبا ، وكل كبيرة من النساء لك أمّاً ، وكل قرن من الرجال لك أخاً ، وكل مثل ذلك من النساء أختاً ، ثم بررتهم برّ ذلك وجدت عليهم جود ذلك فقد عدلت .

وفي فصل له من هذا الكتاب آخر : ان الدنيا ربما أضييت بغير حزم من الرأي ولا فضل في الدين ، فإن نلت حاجتك منها أو أدبرت عنك وأنت مصيب فلا

(١) البد : ملك الهند .

يستخفّنك ذلك على معاودة الخطأ ومجانبة الصواب ، فإن صاحب الدنيا منها على غرور ، وصاحب الآخرة منها على يقين ، فلا يدري صاحب الدنيا أي رأييه أنجح له في حاجاته ، رأييه الخازم أم رأييه العاجز ، فهو من أمره في لبس ، ومن رأييه على شبهة .

فلا أحد أروح قلباً ولا أقرب بأخذ رأي من امرئ عرف رضوان الله من سخطه ، ثم عمل بمعرفته ، فما آتاه من الدنيا وهو على ذلك آتاه والله عنه راضٍ ، وما أدبر عنه منها أدبر وهو إلى الله معذور .

وإن كنت عالماً برضوان الله من سخطه فامض رأيك وعلمك بذلك في نفسك وفيمن وليت أمره ، وإن كنت غير عالم بذلك فليكن أول أمرك ابتغاء علم ذلك أن تقيس الناس بنفسك فلا تضنّ عليهم بما ترغب فيه من رأيك ولا تأت إليهم بما تكره أن يؤتى لك .

وفي بعض حكم العرب حصّن عقلك من العُجب وحياءك من الرخاوة ، وحلمك من التهاون ، ومصابك^(١) من العجلة ، وعقوبتك من الأفراط ، وعفوك من تعطيل الحدود ، وصمتك من العي ، واستماعك من سوء الفهم ، واستئناسك من البذاء ، وخلواتك من الاضاعة ، وتعاهدك من استفراغ القوة ، وعزماتك من اللجاجة ، ويأسك من القنوط ، ورضاك من الفوت ، وتأنيك من البلادة ، ومرحك من البطر ، وروغانك من الاستسلام ، وحذرک من الجبن .

وقرأنا في سير ملوك العجم أن الملك تطول مدته إذا كان فيه أربع خصال : إحداها - أن لا يرضى لرعيته بما لا يرضى لنفسه ، والأخرى أن لا يسوف ما يخاف عاقبته ، والثالثة - أن يجعل وليّ عهده من يرضاه لا من يهواه . والرابعة - أن يفحص عن أسرار الرعية فحصى المرضعة عن منام رضيعها .

(١) أي لا تصب أحدا في عقوبة على عجل ، لكن تثبت .

وقيل : لا يستغنى السلطان عن الكفاة ، ولا الكفاة عن الافضال ، ولا الافضال عن المادة ، ولا المادة عن العدل . فالسلطان بغير الكفاة عاجز ، والكفاة بغير الافضال مسلطون والافضال بغير المادة منقطع ، وإنما يقيم المواد ببسط العدل ، وفي العدل حياة الدين وبقاء الملك وصلاح العامة ، وصلاح العامة أعد من كثرة الجند .

وبلغنا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين بينا هو يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو اليك ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع رسول الامام فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أمتنتي على نفسي أنباتك بالأمور من أصولها وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل ، قال : فأنت آمن على نفسك . فقال : إن الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين صلاح ما ظهر من البغي والفساد لأنت . فقال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء^(١) بيدي ، والخلو والحامض عندي ؟ فقال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والأجر ، وأبواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ، ثم سجت نفسك منهم فيها ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر قد سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله من هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استصلحتهم لنفسك وآثرتهم على رعيته وأمرت

(١) الصفراء والبيضاء : الذهب والفضة .

أن لا يجربوا عنك - تجني الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله ورسوله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه فائتمروا على أن لا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا وصموه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم ، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقروهم على ظلم من دونهم فامتلات بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء شركاءك في سلطانك وأنت غافل .

فإذا جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فإذا أراد رفع قضية إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإذا جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك قالوا لصاحب المظالم أن لا يرفع مظالمه إليك ، فإن للمتظلم منه حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويشكو ويلوذ ويستغيث ، وهو يدفعه ويعتل عليه ، فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالاً لغيره .

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر الى الصين فقلدتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوماً بكاء شديداً ، فحثة جلساؤه على الصبر ، فقال : أما أني لا أبكي للبلية النازلة ولكني أبكي للمظلوم بالباب يصرخ فلا أسمع صوته .

ثم قال : إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ينظر هل يرى مظلوماً .

فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت نبيه ﷺ لا يغلب بالمسلمين شح نفسك فإن كنت إنما تجمع المال لولئك فقد أراك الله عبدة في الطفل يسقط من بطن أمه وماله في الأرض

مالٌ ، وما من مالٍ إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه .

ولست بالذي تعطي ، بل الله يعطي من يشاء ما يشاء .

وإن قلت إنما أجمع الأموال لتسديد السلطان فقد أراك الله عبيراً في بني أمية ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد .

وإن قلت إنما أجمع الأموال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت عليها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه .

يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ فقال المنصور : لا . قال : فكيف تصنع بالملك الذي خوِّلك مُلك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الاليم .

قد رأى ما عقد عليه قلبك وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشيت إليه رجلاك ، هل يغني عنك ما شححت عليه من طلب الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب على ما خوِّلك ؟ .

فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أنخلق ، ويحك كيف احتال لنفسي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينك فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسدوك . قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني . قال : خافوا أن تحملهم على طريقك ولكن افتح بابك وسهل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عليهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصلى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد .

وهذه موعظة جامعة تبين عن كثير من أصول فساد الممالك والأديان
وصلاحها ، رأينا أن نختم به كتابنا هذا الذي جمعنا فيه جمل ما أوجب الله على
ملوك أهل الملة وأمرائها وأئمتها وخلفائها .

وقد أسبغت لهم الموعظة وبذلت لهم النصيحة ، وأديت إليهم الأمانة ديناً
ودنيا وآخرة وأولى ، فليتنظر ناظر وليتعظم متعظ ، وفقهم الله وإيانا للسداد ، وهدانا
وإياهم سبل الرشاد .

تم كتاب نصيحة الملوك والحمد لله وحده ،
والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

الفهرس

٥	مقدمة
٧	الموردي - نسبه
٨	عصره
٩	اخلاقه
١٢	منزلته العلمية
١٣	كتبه
١٥	شيوخه
١٦	تلاميذه - رواة الحديث عنه
١٨	حياته إجمالاً
١٩	كتاب نصيحة الملوك
٢١	وصف النسخة الخطية
٢٣	منهج التحقيق
٢٦	صفحات مصورة من المخطوطة
٣٣	مقدمة المؤلف
٣٩	الباب الاول - الحث على قبول النصائح
٣٩	الملوك وقبول النصيحة
٤٠	الهوى عدو النصيحة
٤٣	أبواب الملوك الخلفية
٤٥	وعاظ شجعان

الباب الثاني

فضائل الملوك	٤٩
ولقد كرمنا بني آدم	٤٩
مقام الملوك	٥٠
الملوك أئمة هداية إذا صلحوا	٥٣
طاعة الامام	٥٣
واجب الشكر	٥٤
تغليب العقل ورياضة النفس	٥٦
موافقة العمل للقول	٦٠
القدوة الحسنة	٦١
فضل الملك	٦٢

الباب الثالث :

اسباب اختلال الممالك	٦٧
الدين اساس الملك	٦٧
زهرة الدنيا وعاقبة الترف	٦٨
العمل بالقرآن وآفة النفاق	٧٠
سيرة السلف	٧١
واجب الحزم ومدافعة ذوي الأهواء	٧٣
قطع الاختلاف	٧٥
حسم أطماع العدو	٧٦
التحرز من الفساد وسنة الفضلاء	٧٧
جند الله ورسله وخلفاؤه	٧٩
بنو أمية	٧٩
سيرة بني العباس	٨١

٨٢	وامعتصماه
٨٣	سيرة أمراء خراسان
٨٤	ملوك الفرس
٨٤	من نصائح ارسطاطاليس لالاسكندر

الباب الرابع :

٨٧	مواعظ تبصر غرور الدنيا
٨٧	هدي القرآن والسنة
٨٨	عظة بالغة
٨٩	الحذر من سوء العاقبة
٩٠	عظات من الشعر

الفصل الأول

٩٢	في المواعظ
٩٣	إمهال واستدراج
٩٤	الأمر ينقص بتمامه

الفصل الثاني

٩٧	خسة الشهوات
----	-------------

الفصل الثالث :

٩٩	آفة الكبير
----	------------

الفصل الرابع :

١٠١	كبح النفس عن الشهوات
-----	----------------------

الفصل الخامس :

١٠٤	اللذات زائلة
-----	--------------

الفصل السادس :

١٠٦	النعمة ابتلاء
١٠٧	كل مستثن عن عمله
١٠٨	شقاء العصاة
١١٠	الحكام قسمان
١١٣	الباب الخامس في سياسة النفس ورياضتها
١١٣	المتقون وجزاؤهم
١١٦	الايان بالله وأداء الفرائض
١١٧	إقامة الحدود والافتداء بالرسول (ص)
١١٨	الناس على دين ملوكهم
١١٩	فضل العلم
١٢٢	أقسام العلوم
١٢٨	صحبة العلماء
١٣١	تمحيص الرأي
١٣٤	طريق العمل
١٣٥	معنى الحكمة
١٣٦	الجد والشجاعة والجلود
١٣٧	الحلم والعفو
١٣٩	كتان السر
١٤١	الصدق
١٤٢	الوفاء بالعهد
١٤٣	شكر النعمة والتنزه عن الفواحش
١٤٤	مخالفة الهوى
١٤٥	التواضع والرضا بالمقسوم

أخذ الحيلة	١٤٨
العدل والتوسط في الأمور	١٥٠
الحسد	١٥١
الثبت	١٥٢
الأعمال المخلدة للذكر	١٥٣
الكتاب والسنة ملاذ	١٥٦

الباب السادس

في سياسته الخاصة	١٥٩
اصطفاء الملائكة والرسل	١٥٩
سياسة خاصة الملك	١٦١
تربية الأولاد	١٦٢
طبقات الخاصة ، اختيار الزوجه	١٦٤
حق الولد على أبيه	١٦٦
تعليم اللغة العربية	١٦٨
كتب الأخبار	١٦٩
اختيار المعلم للولد	١٧١
الأدب الصالح ، صلة الأرحام	١٧٣
العناية بالخدم	١٧٥
تقويم الخاصة ، الرجل المناسب في المكان المناسب	١٧٦
مراقبة العمال	١٧٧
العنفو يسبق العقوبة	١٧٨
الفراغ مفسدة	١٨١
اختيار الأعوان	١٨٢
إنكار المنكرات	١٨٣

١٨٤	لين الجانب ، تعهد الضعفاء
١٨٥	توزيع المسئوليات
١٨٧	سبل التقويم - لزوم العدل في المال
١٨٩	مراقبة الولاية
١٨٩	ونظام المباحث
١٩٠	ونظام الولاية تكليف
١٩١	التضخم الوظيفي وأضراره

الباب السابع

١٩٣	في سياسة العامة
١٩٦	إصلاح الرعية
١٩٩	من واجبات الراعي
٢٠٠	القضاء على الفساد والمفسدين
٢٠٢	معاملة السجناء
٢٠٤	رسالة عمر في القضاء
٢٠٥	أنزلوا الناس منازلهم
٢١٠	بعض عدل ملوك الفرس
٢١٣	للراعي عيون وآذان
٢١٥	العادل يفتح أبوابه
٢١٨	يقظة وحزم
٢٢١	قمع المنافقين
٢٢٤	مباشرة الحكم

الباب الثامن :

٢٢٧	التدبير في الأموال
٢٣٠	التوسط في الانفاق

٢٣٧	حسن تدبير المال
٢٣٨	نصائح للمنفقين
٢٤٠	اصنع المعروف
٢٤٥	الانفاق في الأموال العامة
٢٤٧	سد الحاجات

الباب التاسع

٢٥١	في تدبير الأعداء وأهل الجنايات
٢٥٢	نفوس مهددة : القاتل عدوانا ، الكافر المحارب
	قتال البغاة ، قطاع الطرق .
٢٥٧	القتل ، الزنى ، قذف المحصنات
٢٥٨	السرقه ، التعزير ، درء الحدود بالشبهات
٢٦٠	عشر خصال لمعالجة المخالفين
٢٦٠	أولها : المسالمة
٢٦٣	الثانية : الانذار
٢٦٥	الثالثة : اليقظة للعدو وترك اللهو
٢٦٨	الرابعة : تعهد العسكر
٢٧١	الخامسة : قياس قوة الأمة بما عند عدوها
٢٧٤	السادسة : كتمان السر
٢٧٥	السابعة : استعمال الحيلة والخدعة
٢٧٦	الثامنة : اختيار الرسل والمندوبين
٢٧٨	التاسعة : الاعتماد على القادة المخلصين
	وخصال سبع تستعمل في القتال
٢٨٦	العاشرة : شكر الله على النصر

الباب العاشر :

٢٨٩	في تقديم النيات وطلب
	التأويلات لكثير مما يجري في ايدي
	الملوك والأمراء مما اختلف فيه
	كثير من العلماء او كرهه كثير من الفقهاء .
٢٩١	الحلال والحرام والمشتبه
٢٩٢	حكم تولي العمل للحاكم الظالم
٢٩٤	تحريم الحرير على الرجال
٢٩٥	تحريم استعمال أواني الذهب والفضة
٢٩٥	اجتناب الفواحش كالزنى وشرب الخمر
٢٩٦	حكم سماع المزامير والمعازف والاغاني
٢٩٨	حكم الصيد والألعاب والمسابقة والمناضلة
٢٩٩	آداب مثورة وحكم ماثورة ، وفوائد شتى
٣١٣	الفهارس

